بدر شاكر السيّاب



كنتُ شيوعيّاً

منشورات الجمل

بدر شاكر السيّاب

كنتُ شيوعيّاً

أعدّها للنشر

وليد خالد أحمد حسن

منشورات الجمل

بدر شاكر السيّاب؛ كنتُ شيوعيّاً

وُلِدَ وليد خالد احمد حسن عام ١٩٥٩ ببغداد ـ العراق، نال بكالوريوس لغة فرنسية ـ كلية الآداب ـ الجامعة المستنصرية، ماجستير تاريخ حديث (فكر سياسي) ـ كلية العلوم السياسية ـ الجامعة المستنصرية، نشر العديد من الدراسات والمقالات المؤلفة والمترجمة في العديد من المجلات العراقية والعربية، يجيد اللغتين الإنكليزية والفرنسية وترجم عنهما اكثر من عشرين كتابا.

بدر شاكر السيّاب: كنتُ شيوعيّاً ، أعدها للنشر: وليد خالد أحمد حسن

الطبعة الأولى ٢٠٠٧

Postfach 210149. 50527 Köln. Germany

Tel: 0221 736982. Fax: 0221 7326763

E-Mail: KAlmaaly@aol.com

نشر بدر شاكر السياب اعترافاته هذه عام ١٩٥٩ في جريدة (الحرية) البغدادية لصاحبها ورئيس تحريرها قاسم حمودي المحامي. جاءت اعترافاته في (٢٩) حلقة حملت عنواناً واحداً (كنتُ شيوعيّاً) ثم تلتها (١١) حلقة تحمل كل واحدة عنواناً خاصاً بها.

الحلقة الأولى

العدد ١٤٤١

التاريخ ١٤/آب/١٩٥٩

ليست كتابات الرفيق رائد التي فضح فيها الشيوعية والشيوعيين، هي التي حفزتني على الكتابة. إنها فكرة ظلت تراودني منذ أمد بعيد، أن اكتب عن تجربتي مع الشيوعيين، كيف اعتنقت الشيوعية، وماذا رأيت فيها ومنها، وما الذي جعلني أصبح عدواً لدوداً لها.

وها أنذا أحقق حلمي اليوم. كانت نفسي تجيش بالمشاعر الإنسانية، بحب الآخرين، والسعي وراء الحق والخير والعدالة. اذكر، فيما أذكر، من أحداث طفولتي، أنه كانت هناك كلبة ذات جراء، ويبدو أنها أخذت تؤذي الناس وتهاجمهم كلما مروا إزاءها. فأطلق عليها سليمان النار، وأرداها تاركاً جراءها تتعاوى. وقد بكيتها في حينه، وأبكاني، أكثر ما أبكاني جراؤها اليتامى.

لقد تحدرت من عائلة تملك بساتين للنخيل يشتغل فيها الفلاحون، يتقاضون الثمن من النتائج. ومع أن أهلي كانوا من أطيب الناس قلوباً وأكثرهم بساطة وديمقراطية، فقد رأيت من مظالمهم التي أنزلوها بالفلاحين شيئاً كثيراً. أذكر زنوبة زوجة الفلاح التي كانت تخدم في

منزلنا، قانعة بعد يوم من العمل الشاق، بصحن من المرق أو التمن، وببضعة أسمال لها ولأطفالها كلما حل العيد. وفي إحدى غرف الدار، كانت أكياس الرز والطحين والسكر والشاي، ويبدو أن زنوبة، وهي ترى أطفالها يجوعون، تجرأت وسرقت حفنة من الرز أخفتها في ثيابها. وأحس بها أهلي، رأوا الرز الذي هيأته لتأخذه حين تغادر الدار. فماذا فعلوا؟

وضعوا حفنة الرز في إناء تركوه في إحدى غرف الدار، ثم أمروا زنوبة أن تكنس تلك الغرفة، فترى الرز وتعلم أن سرقتها قد افتضح أمرها. إنني أتذكرها الآن، تكنس وتبكي، شاعرة بالخزي والعار والأسف والخوف. إن هذا المشهد وسواه من المشاهد انطبعت في نفسي منذ الطفولة، فنشأت كارهاً للظلم محباً للآخرين. وجاءت الشيوعية تنادي بالعمل للجميع والطعام للجميع والعدالة والمساواة بين البشر.

ومن لا يريد العمل للجميع والطعام للجميع والعدالة والمساواة؟!

هذا ما كنا نعرفه عن الشيوعية في بادئ الأمر، رغم أن طفولتي شهدت جانباً من جوانبها. ففي عام ١٩٣٠، أو قبله أو بعده بقليل على ما أتذكر، تألف لدينا حزب سمى نفسه الحزب اللاديني، وكان عمي الأكبر من أقطاب هذا الحزب البارزين ومؤسسيه الأوائل. وكان هو ورفاقه يعقدون اجتماعاتهم في غرف الضيوف في دارنا التي يسكنها جدي وأبناؤه وأحفاده وجميع عائلته. أتذكر الآن بوضوح تلك الغرفة التي علقت على جدرانها صور كثيرة، منها للزعيم الوطني أبو التمن، وصور لـ سعد زغلول ولـ مصطفى كمال أتاتورك.

وكان بين الناس الذين يترددون على عمي في معتكفه هذا، خالي زويد والرفيق فهد (يوسف سلمان يوسف) وأناس آخرون لا أعرفهم. كان الحزب اللاديني يعتقد أن الأديان هي سبب شقاء البشرية وتأخرها. وأن الإلحاد هو السبيل إلى التحرر والرخاء. وكانت آنذاك مجلة تصدر في لبنان اسمها (الشمس) تبشر بالإلحاد وتحارب الأديان والقومية العربية. وقد جاء صاحبها أسبر الغريب إلى العراق، وزار عمي في البيت، بل والتقط لنا صورة بكامرته. كان شعار هذه المجلة المخطوط على غلافها أن (آفة الشرق أديانه) وكان اللادينيون ينشرون كتاباتهم في (الشمس)، وكانوا هم وكلاؤها في العراق والخليج، وكان من بين أعضاء هذا الحزب أيضاً، فلاح من ذوي قرباي اسمه عبد اللطيف ناصر، سخيف غاية السخف جاهل غاية الجهل وإن كان يدعي العلم والمعرفة. كان يطلب من الآخرين أن يسموه (لتفينوف) وليس عبد اللطيف. إن عبد اللطيف ناصر هذا هو اليوم معتمد الحزب الشيوعي العراقي في أبي الخصيب بالبصرة، وهو نعم المعتمد، وسوف آتي إلى الحديث عنه حين يحين الدور.

وأذكر أيضاً، أن الرفاق اللادينيين كانوا يحبون الاتحاد السوفييتي باعتباره دولة اللادينيين ويحبون ستالين. ولا أنسى صورته التي خبأوها لدى أحد الفلاحين يوم كبست الشرطة وكرهم. وقد وقعت تلك الصورة في يدي بعد سنوات فحطمت زجاجها، وسحقتها بالحذاء، ثم مزقتها. ومن الطبيعي أنني لا أتذكر تلك الحوادث التي مرت على زمن الطفولة، ذكرى متسلسلة.

ولم تكن اجتماعات الرفاق تخلو من قرع الكؤوس، وكانت تزين مجالسهم السيدة بلقيس، وهي شابة جميلة يعمل أبوها فلاحاً لدى

جدي. وقد طلقها زوجها لسوء أخلاقها فعادت إلى بيت أبيها، وأخذت ترفه عن الرفاق بطريقة شاذة خوفاً من أن تحمل. وكان للرفيق فهد طبعاً نصيب من التمتع بجسدها الريان.

تلك هي المرة الأولى التي احتككت فيها بالشيوعية. وما إن بلغت مبلغ الرجال حتى كانت عواطفي وميولي قد تكونت، كنت محباً للخير والعدل وللناس الخيرين، عطوفاً على الفقراء والبائسين، صديقاً للفلاحين. وبرزت روسيا إلى العالم كله إبان الحرب العالمية الثانية حين تحالفت مع هتلر. وكان العراقيون يحبون هتلر لا لأنهم نازيون ولكن لأنهم يكرهون المستعمرين، وكان هتلر العدو اللدود والعدو القوي لهؤلاء المستعمرين. وصرنا نبث الدعاية لروسيا وللشيوعية جنباً إلى جنب مع الدعاية للنازيين. سوف ينتصر المحور على الحلفاء وسوف تنتصر روسيا معه، وستعم الشيوعية العراق. فبشرى للفقراء، بشرى للفلاحين الجائعين.

وكان الفلاحون كلما سمعونا ندعوا إلى الشيوعية، يتساءلون قائلين: ولكن، عمي، يقولون أن الروس ليس لديهم دين ولامحرمات، وإن من المحلل للشيوعي أن يضاجع حتى أمه وأخته. وكنا نرد بأن هذه كلها تقولات وإشاعات مسمومة يبثها المستعمرون.

وكان لعمي الأصغر صديق يتردد عليه في القرية بين حين وحين، صديق إيراني الأصل يحب أدب جبران خليل جبران، ومي زيادة، ويتحدث عن الديمقراطية والشيوعية ودولة الكادحين. وكان كلامه لطيفاً ـ إن الناس في الاتحاد السوفيتي كلهم سعداء ناعمون متساوون، وإن العلم والثقافة والفن متقدمة فيه، وإن الأخلاق رفيعة عالية إلى آخر هذه الأحاديث. لقد كان حديث أحمد علوان الذي قتل فيما بعد

في سجن الكوت، طلياً، وكنا نقرّه في كل ما يقول، وذات يوم سمعناه يتحدث إلينا عن الحزب الشيوعي العراقي الذي يعمل سراً، وعن قائده العظيم الرفيق فهد الذي لا يعرف اسمه ولا شخصه أحد.

وفي إحدى أيام الجمعة، دعانا إلى بيته وأخرج لنا استمارات الانتماء إلى الحزب الشيوعي، استمارة لعمي عبد المجيد وأخرى لعبد الدايم ناصر وثالثة. لي. واخترنا لنا أسماء مستعارة وملأنا الاستمارات، فأخذنا أحمد.

وهكذا أصبحت لا مجرد شيوعي وإنما عضواً في الحزب الشيوعي العراقي.



الحلقة الثانية

العدد ١٤٤٢

التاريخ ١٦/آب/١٩٥٩

وصل بنا الحديث أمس إلى اليوم الذي أصبحت فيه عضواً في الحزب الشيوعي العراقي. وتحدثني نفسي بأن أروي اليوم كيف تركت الحزب الشيوعي العراقي ولماذا تركته وكيف أصبحت عدواً له، لأمكن القارئ من تكوين صورة جلية للأسباب التي دفعتني إلى الشيوعية والأسباب التي سحبتني منها.

في صباح يوم تشريني من عام ١٩٥٢، حدثت مظاهرات جماهيرية، وكان من نتيجتها إحراق مركز شرطة باب الشيخ وقتل عدد من الأشخاص. وقد لعبت أنا دوراً بارزاً في تلك المظاهرات. وحين صدر أمر بإلقاء القبض عليّ، وجدت أن الهرب أسلم الوسائل. وهكذا كان. فهربت متنكراً في زي أعرابي إلى البصرة، ومن هناك عبرت الحدود إلى إيران. وبعد حوالي الشهرين غادرت إيران إلى الكويت بسفينة شراعية. وبعد بضعة أشهر من الإقامة في الكويت مع جماعة من الشيوعيين العراقيين ـ وسآتي إلى الحديث عن ذلك في حلقة أخرى ـ أقول بعد بضعة اشهر من الإقامة في الكويت والعمل

فيها، عدت إلى العراق وأنا أحمل معي حوالي الستين ديناراً ووجدت ظروف العراق لم تتغير بعد. وإذا بقيت في العراق فسأبقى في خوف دائم من القبض عليّ، وسأبقى دون عمل. لذا وجدت أن من الخير لي أن أسافر إلى مهرجان الشبيبة في بوخارست على ما أتذكر. لذا فقد أخذت من الحزب الشيوعي العراقي رسالة توصية إلى حزب تودا الشيوعي في إيران.

وفي إيران ـ في المحمرة أو خرمشهر كما يسميها الإيرانيون ـ أوصلت الرسالة الحزبية إلى موسى بيمان. وموسى بيمان هذا عراقي نزعت عنه الجنسية العراقية وسُفّر إلى بلاده الأصلية واسمه موسى أسد، وهو الآن ملحق صحافي في السفارة العراقية بلبنان. وأوصل موسى أسد رسالة الحزب الشيوعي العراقي إلى المراجع العليا في حزب تودا. وتقرر أن أسافر إلى طهران للاتصال بمركز حزب تودا هناك.

وسافرت، واتصلت بحزب تودا فأحسنوا استقبالي، وأمروني أن أزودهم بتصويرين شمسيين لي، ليستطيعوا أن يحصلوا على جواز سفر إيراني لي.

ولم تمض بضعة أيام حتى صدرت جريدة (شهباز) التي يصدرها حزب تودا علناً، وهي تحذر الحكومة الإيرانية والدكتور مصدق من مؤامرة أمريكية قذرة لقلب نظام الحكم، ووضعت الجريدة النقاط على الحروف، فذكرت أسماء المتآمرين وفصلت خططهم، وكيف سيأتون إلى الدكتور مصدق في الساعة الفلانية من اليوم الفلاني. ويقولون له كذا وكذا. وأوصوا مصدق بأن يلقي القبض على هؤلاء المتآمرين.

وصدق رئيس الوزراء الإيراني بهذه القصة، فقد تصرف المتآمرون بما تنبأت جريدة شهباز به. فألقى مصدق القبض عليهم وأُحبطت المؤامرة، فلاذ الشاه بالفرار. وفي عصر ذلك اليوم خرجت في مظاهرة صاخبة يقدر عدد المشتركين فيها بحوالي المليونين من الناس، وكان حزب تودا هو الذي دبر تلك المظاهرة. وقد ساهمت في تلك المظاهرة الصاخبة واجتاحتني نشوة هائلة، لأن شعباً صديقاً وحزباً شيوعياً عريقاً قد انتصرا، وأن انتصارهما إن هو إلاّ انتصار للحركة الوطنية وللحركة الشيوعية بصورة خاصة، في الشرق الأوسط كله. وكان المتظاهرون يصفقون ويرددون بلهجة غنائية، تماماً كما فعل أشقاؤهم الشيوعيون في العراق حين كانوا يتظاهرون ويرددون بلهجة غنائية: ماكو مؤامرة تصير والحبال موجودة.

كان المتظاهرون الإيرانيون يرددون: از دست نيروى من شاه فرارى شده ـ الشاه لاذ بالفرار من يدي القوية ـ أو: بيروز باد ملت، برشاه ننك ولعنت ـ فلتعش الأمة أو الشعب وعلى الشاه اللعنة والشنار ـ ولكن، هل قضى على المؤامرة حقاً؟

ذلك ما أجابت عليه جريدة شهباز ذاتها حين طلعت علينا ذات صباح معلنة بأن المؤامرة الخبيثة مقسومة إلى دفعتين. فإذا فشلت الدفعة الأولى، أعقبها المتآمرون بالدفعة الثانية وحذرت مصدق من هذه الدفعة الثانية، وأعطته بعض الأسماء ليلقي القبض على أصحابها. وكان الذين ذكرت الجريدة الشيوعية أسماءهم وأوصت باعتقالهم من أخلص أنصار مصدق الذين يعتمد عليهم. وفكر الرجل أنه إذا ألقى القبض على هؤلاء الرجال، فسيمهد بذلك طريقاً خالياً يجتاحه

الشيوعيون. وإذا استولى الشيوعيون على الحكم فسوف يشنقونه. أما إذا صح ما قالوه عن المؤامرة الرجعية، فإن الرجعيين إذا فازوا فلن يناله منهم أكثر من السجن بضع سنوات. وهكذا نام تحت بطانيته منتظراً ما عسى أن يأتي به القدر.

بعد ذلك بيوم أو يومين على ما أتذكر الآن، كنت أنا وجماعة من الشيوعيين العراقيين الهاربين إلى إيران عائدين من شمران إلى طهران. وشمران هي مدينة أو بالأحرى قرية جبلية صغيرة تعتبر مصيفاً للعاصمة الإيرانية، وكانت الساعة حوالي العاشرة ليلاً، وقد رأينا في الطريق حركة مريبة. كانت هناك ثلاثة لوريات مملوءة بالجنود ولوري آخر مملوء برجال أشداء ضخام الأجسام، كانت هذه السيارات الأربع تتخذ لها موضعاً في طريق جانبي. وداخلتنا الريبة مما نراه. أهؤلاء هم المتآمرون الذين تحدثت عنهم جريدة شهباز؟ أم أنهم جنود مصدق؟

واستفقنا في الصباح على ضجة وصراخ تتخللهما أصوات الاطلاقات النارية. ورأينا جنوداً ينزلون من لوريات ثلاثة محملة بهم وينزل معهم ـ الجاقو قدرية ـ أو رجال الأجرام والسكاكين من لوري رابع ثم يهاجمون الناس، يضربون هذا ويركلون ذاك ويحرقون هذا المحل أو ذاك. وقيل لنا أنه انقلاب رجعي ضد مصدق. وعجبنا لهذا الشعب، لأولئك المئات من آلاف البشر الذين تظاهروا قبل يومين فهزوا طهران هزاً. أين أصبحوا اليوم؟ واتصلت بحزب تودا مستنكراً جمودهم ووقوفهم موقف المتفرج، من هذا الانقلاب الذين قام به حوالي الخمسين أو الستين من الجنود. فأكد لي التوديون أنهم قادرون على سحق زاهدي سحقاً لا قيام له من بعده، فقلت: إذن، فلماذا لا

تسحقونه؟ ضحك وصمت قليلاً ثم قال بلهجة جدية: اسمع أيها الرفيق العربي. نحن على حدود ـ إتحاد شوروى ـ هكذا يسمون الاتحاد السوفيتي. فقلت: حسناً، إنني أعرف هذا، ولكن محدثي استأنف كلامه قائلاً: وإذا استولينا على الحكم نحن الشيوعيين، فهل تظن الأمريكان يسكتون عن ذلك؟ بالطبع لا، سوف يتدخلون، وإذا ما تدخلوا أصيب الاتحاد السوفييتي بالضرر.

فغلت الدماء في عروقي، وأجبته صارخاً بصوت مشحون بالانفعال: ولكنكم إيرانيون ولستم سوفييتاً، وواجبكم أن تدافعوا عن مصالح شعبكم، الشعب الإيراني وليس عن مصالح الاتحاد السوفييتي وشعبه. إن الاتحاد السوفييتي أيها الرفيق لقادر على الدفاع عن نفسه.

فضحك الرفيق الإيراني مرة أخرى وما لبثت الابتسامة أن تلاشت وحلت محلها صرامة تركزت أكثر ما تركزت في عينيه الزرقاوين، وقال: أنت كشيوعي لابد أن تعلم ما هو الواجب الأول للأحزاب الشيوعية في العالم كله، في هذا الظرف إن هذا الواجب هو الدفاع عن السلام قبل الدفاع عن المصالح الوطنية، بل ليس هناك من خير، بل من بد، في التضحية بالمصالح القومية والوطنية الضيقة من أجل السلام وحمايته والاتحاد السوفيتي هو القلعة الحصينة للسلام، بل وللاشتراكية أيضاً. فإذا أصابه ضرر فما جدوى انتصار هؤلاء الملايين العشرين من شعب إيران؟ إننا أيها الرفيق نعرف ما نحن فاعلون.

وكان أول إجراء اتخذه زاهدي بعد نجاح انقلابه، أنه منع السفر، حتى من قرية إلى أخرى لمدة خمسة أيام، وبعد الأيام الخمسة أرسل الرفاق التوديون رسولاً إلى كعبتهم موسكو، وشرح الرسول ظروف البلاد وظروف الحزب للرفاق الكبار هناك. فكان جوابهم: إذا كنتم

تستطيعون السيطرة على الحكم وانتزاعه من يدي زاهدي، فسيطروا عليه. ونحن مستعدون لكل مساعدة.

ولكن، في الوقت الذي عاد به الرفيق الرسول من موسكو، كان زاهدي قد سيطر على الوضع في إيران سيطرة تامة، يتعذر معها القيام بأي ثورة أو انقلاب. وهكذا ضاعت مصالح الشعب الإيراني في سبيل مصالح الأم الحنون بل في سبيل مجرد الخوف على مصالحها.

وتساءلت بيني وبين نفسي: إذن، فما كان يقوله الخصوم من أن الشيوعيين عملاء، ومن أنهم يضعون مصالح دولة أجنبية وشعبها فوق مصالح بلدانهم وشعوبهم. أقول، إذن إن هذا القول صحيح؟ ولكن، أأصبحت شيوعياً لأنني أرغب في الدفاع عن مصالح دولة أجنبية وشعبها، لقد أصبحت شيوعياً لأنني أحب شعبي، أحب جيراني ومعارفي، وكنت أظن أن الشيوعية هي الحل الأحسن، بل الحل الوحيد لمشاكلنا، لمشاكل شعبنا، مشاكل صديقي الفلاح حمد في قريته النائية، والمثقفين والملايين من الناس الشرفاء وغير الشرفاء. ولكنها الشيوعية برزت لي الآن بوجه آخر، وإذا هي تبعية وانحياز. وتذكرت موقف رفاقنا في العراق في قضية العرب الكبرى، قضية فلسطين عام ١٩٤٨، وكيف تحدوا شعور شعبهم وشعور مائة مليون عربي من بني قومهم، وراحوا يهتفون: نحن أخوان اليهود. بل كان اليهود هم الذين يقودونهم. كان يهودا صديق وساسون دلال وإبراهيم يوسف زلخة، وناجي شميل وعدس.. هم قادة الحزب الشيوعي آنذاك. كانوا يسمون دفاع العرب عن فلسطين الحرب الفلسطينية القذرة لمجرد أن المعسكر الشرقي أيد الصهيونية. إنني استطعت آنذاك أن أذكر عشرات المواقف التي كانت تدل على كره الشيوعيين

العراقيين من قلي وبهبهاني وسواهما، للعرب وللقومية العربية.
وتظافرت هذه الذكريات كلها مع ما رأيته في إيران، ولكنني كشيوعي صلب متحمس مؤمن بالشيوعية أشد الأيمان، قلت لنفسي: إنه موقف خاطئ، وأظنه مقصوراً على حزب تودا. ولكن الشيوعيين العراقيين غير راضين عن موقف حزب تودا بالتأكيد.

وعدت إلى العراق. وحين تحدثت لمن التقيت بهم من الشيوعيين العراقيين عن موقف حزب تودا المغلوط، احتجوا عليّ قائلين بأنه موقف سليم وأن التوديين كانوا مصيبين، ولم يكن بوسعهم أن يقفوا غير هذا الموقف دفاعاً عن السلام، الهدف الأول الذي تسعى الأحزاب الشيوعية في العالم كله للمحافظة عليه.

لقد بقيت رغم هذا عضواً في الحزب الشيوعي العراقي، معزياً نفسي بأن القيادة قد تتغير ويأتي إليها أناس يقدرون مصالحهم القومية حق قدرها. غير أني لم يعد يربطني بالشيوعيين غير خيط واه ضعيف، وكان أقل خطأ يرتكبونه كافياً لأن يقطع هذا الخيط بيني وبينهم. وقد ارتكبوا ذلك الخطأ بسرعة، مما سأتحدث عنه في الحلقة القادمة.



الحلقة الثالثة

العدد ١٤٤٣

التاريخ ١٧/آب/١٩٥٩

تحدثت في سلسلة أمس، كيف عدت إلى العراق من إيران أحمل في نفسي أصداء تلك التجربة المريرة التي شهدتها من خيانة حزب تودا الشيوعي لمصالح الشعب الإيراني في سبيل التخوف الموهوم على مصالح الأم الرؤوم. وكيف قارنت، في ذهني، بين ذلك وموقف الرفاق العراقيين، المفروض أنهم عرب، من قضية العرب الكبرى، قضية فلسطين وكيف راحوا يخدمون الصهيونية ويلحسون أقدامها لمجرد أن عاصمتهم الروحية أيدت عصابات تل أبيب. وتحدثت أيضاً كيف راح الشيوعيون العراقيون يبررون موقف الشيوعيين الإيرانيين ويقولون أنه صحيح. وبهذه المناسبة أذكر أن زاهدي ألقى القبض فيما بعد حين اكتشف تنظيمات حزب تودا في الجيش على (٧٣٢) ضابطاً شيوعياً من الضباط الإيرانيين الكبار وأعدمهم.

وقد قلت، أنني بقيت شيوعياً وعضواً في الحزب الشيوعي رغم هذا كله. هناك تعبير كان ولا يزال شائعاً لدى الشيوعيين العراقيين عند الحديث عمن يفصله الحزب الشيوعي من عضويته ـ (أين يولي؟) ذلك

أن الشيوعي أو بالأحرى عضو الحزب الشيوعي إنسان دون شخصية، وهو كالطفل الصغير لا يستطيع أن يعيش وأن يدبر شؤونه دون أمه. يتصورون العيش دون الحزب مستحيلاً أو بحكم المستحيل، غير أن إيماني بالشيوعية وحزبها كان قد تزعزع إلى حد كبير، وبقيت في انتظار أول خطأ يبدر من ذلك الحزب لأثور عليه. وسرعان ما جاء ذلك الخطأ.

كنت قد استطعت بمعاونة بعض الأصدقاء الطيبين أن أتوظف مستخدماً في مديرية الأموال المستوردة. وكنت أحمل معي آنذاك قصيدتين طويلتين كتبتهما في الكويت هما (الأسلحة والأطفال) أولاً و(المومس العمياء) ثانياً. ولم أكن أملك من المال ما يمكنني من طبع إحدى هاتين القصيدتين في كراس، فكنت أبحث عن ناشر يقوم بذلك.

ولاحظت آنذاك أن بعض المتشاعرين التافهين من أمثال عبد الوهاب البياتي وزمرته قد برزوا بشكل عجيب آنذاك نظراً لخلو الميدان لهم، لأنني لم أنشر خلال وجودي في إيران والكويت ثم إيران ولا بيتاً واحداً من الشعر. وراح الأصدقاء يلومونني على هذا الصمت ويحرضونني على أن أنشر شيئاً من شعري في مجلة الآداب. وأخذت بهذه النصيحة فنشرت لي المجلة المذكورة قصيدة بعنوان (يوم الطغاة الأخير)، وقد جاء في مقدمة تلك القصيدة أنها على لسان (ثائر عربي من تونس يخاطب حبيبته).

وثارت ثائرة الشيوعيين لهذا الإهداء، لقد آذاهم أن تُهدى القصيدة إلى ثائر عربي.. وشممت رائحة الشعوبية اللعينة في هذا الموقف الشيوعي، وربطت بينه وبين مواقفهم المتعددة التي أظهروا فيها عداءهم الصريح للعرب وللقومية العربية.

ورحت أدور على الناشرين بالقصيدتين (المومس العمياء) و(الأسلحة والأطفال). وأبدى الناشرون تخوفهم من أن تصادر سلطات العهد البائد (الأسلحة والأطفال) إذا هم تورطوا فأصدروها في كراس. ولكنهم أبدوا استعدادهم لطبع (المومس العمياء) فرحبت بذلك، وسلمت القصيدة لينشروها.

وكدعاية للقصيدة، ونظراً لعدم وجود قصيدة أنشرها، فقد اخترت مقطعاً من (المومس العمياء) ونشرته في إحدى الجرائد بعنوان (مومس عربية) جاء فيه:

فـــي مـــوضـــع الأرجـــاس مـــن
جـــســـدي وفـــي الـــثـــدي المذال
تـــجـــري دمـــاء الـــفـــاتـــحـــيـــن
فـــلـــوثـــوهـــا يـــا رجـــال
مـــن كـــل جـــنـــس لـــلـــرجـــال

وبعد أن ظهر هذا المقطع منشوراً، قابلني عدد من الشيوعيين العراقيين، وأكثرهم من غير العرب من ذوي الأصل الإيراني بصورة خاصة، وهنأوني على هذه القصيدة الرائعة. وأبدوا فرحهم وشماتتهم بالعرب وبالقومية العربية لأنهم لمسوا في هذا المقطع اتجاهاً معادياً للقومية العربية. وقد ساءني هذا الموقف. فالشعوبية اللعينة التي راحت تحارب العرب منذ مقتل عمر بن الخطاب إلى يومنا هذا، إنما هي في الحق نوع من أنواع التعصب العرقي البغيض. فاحدهم إيراني الأصل يكره العرب والعروبة لا لشيء سوى لأنه إيراني وهذا ينطوي على تفكير عرقي. إن القومية العربية المتحررة تعرّف العربي بأنه

الأنسان الذي يعيش في أحد أجزاء الوطن العربي الكبير ويتكلم اللغة العربية ويشعر بأنه جزء من الأمة العربية، وهي لا تنظر إلى أبعد من ذلك، إلى أصله مثلاً.

وحين كانت (المومس العمياء) تطبع أضفت إليها حاشية لأقطع بها على الشعوبيين طريقهم الذي يسلكونه للنيل من العرب وقوميتهم. وقد كان هذا الشرح للبيتين اللذين ذكرتهما أعلاه: (ضاع مفهوم القومية عندنا بين الشعوبيين والشوفينيين)، يجب أن تكون القومية شعبية والشعبية قومية. يجب جعل أحفاد محمد وعمر وعلي وأبي ذر والخوارج والشيعة الأوائل والمعتزلة يعيشون عيشة تليق بهم كبشر وكورثة لأمجاد الأمة العربية: أفليس عاراً علينا نحن العرب أن تكون بناتنا بغايا يضاجعن الناس من كل جنس ولون؟

وكان الشيوعيون قد قرروا مقاطعة هذه القصيدة وعدم شرائها حتى قبل ظهورها، وحجتهم في ذلك أنه كان ينبغي لي أن أنشر (الأسلحة والأطفال) التي تخدم السلام وتدعو إليه بدلاً من أن أنشر (المومس العمياء). وأن المعركة الرئيسية هي معركة السلام، وأما ما عداها وخاصة المشاكل التي تناولتها (المومس العمياء) فأشياء ثانوية.

وظهرت القصيدة واستقبلتها الأوساط القومية بكثير من الارتياح والتشجيع. أما الشيوعيون فقد قاطعوها، وجن جنونهم حين قرأوا تعليقي ضد الشعوبية والشعوبيين، وهاجموني، زاعمين أنما أعنيهم هم الشيوعيين بلفظة الشعوبيين.

قابلني جماعة آخرون منهم قائلين بأنهم لا يأخذون شيئاً على التعليق إلاّ ما جاء فيه: (أفليس عاراً علينا نحن العرب أن تكون بناتنا بغايا يضاجعهن الناس من كل جنس ولون)، زاعمين أن استنكار أن

يضاجع الناس (من كل جنس ولون) بناتنا العربيات إنما ينطوي على روح عنصرية، ثم تساءلوا: ما الضرر في أن يضاجع يهودي أو زنجي أو إيراني المومس العربية؟ ورددت عليهم بأنني أكتب باللغة العربية للقراء العرب، فعلي إذن أن أضرب على الأوتار الحساسة في نفوس العرب، وأنني أثناء القصيدة أظهرت كيف لم يزوج الأب ابنته لأن أصل فلان كذا وجدة فلان كذا، ثم أظهرت إلى أين وصل هذا التعنت بابنته المسكينة، وكيف أصبحت متاعاً لهؤلاء الذين تأبى أن يزوج ابنته إلى شخص يمت إليهم بصلة الدم.

وهذا كله لم يقنع الرفاق الشرفاء، وراحوا يهاجمونني في كل مكان. وبقيت صامتاً إزاء هذا الهجوم لا أرد عليه، وبلغت الأمور حداً لم يسعني السكوت عليه حين راح بعض الشيوعيين يتهمونني بأنني جاسوس وبأنني أتقاضى راتباً من التحقيقات الجنائية. وقابلت هجومهم هذا بهجوم من جانبي على حزبهم العتيد وعلى بعض قادتهم وخاصة أولئك الذين ارتكبوا فظائع أخلاقية من أمثال الرفيق باسم (بهاء الدين نوري) الذي كان سكرتيراً للحزب والذي اغتصب الرفيقة (مادلين مير) وهي لاجئة إلى بيت الحزب، بحيث أنها حملت، وحين كبس الوكر الشيوعي أو اعترف بمكانه أحد الرفاق (لا أتذكر الآن) وحكم على (مادلين مير) بالحبس، وضعت وهي في سجن النساء غلاماً أسمته (سلام). فمرحى بالسلام ومرحى بالحزب الشيوعي وابنه سلام!!

ولكن هجومي على الشيوعيين وعلى حزبهم ظل في حدود الكلام ولم يصل إلى الكتابة. وبعد مدة أصدرت كتاباً ضم قصائد مختارة مترجمة من اللغة الإنكليزية لشعراء من مختلف الأمم والعقائد منهم

الشيوعي ناظم حكمت وبابلو نيرودا وسواهما، ومنهم اليميني مثل ت. س. أليوت، ومنهم الاشتراكي مثل ستيفن سبندر. ورغم أن شرطة نوري السعيد اعتقلتني على إثر صدور هذا الكتاب فإن الشيوعيين لم يكونوا راضين عنه. وغاظهم أن أترجم قصائد لشعراء غير شيوعيين وخاصة لأليوت ولستيفن سبندر الذي كان عضواً في الحزب الشيوعي البريطاني لفترة من الزمن ثم أصبح عدواً للشيوعية والشيوعيين بعد أن اكتشفت بعض مخازيهم. وهو أحد المشتركين في كتاب (الإله الذي فشل).

وقد علقت مجلة الثقافة الوطنية التي يصدرها الشيوعيون في لبنان على الكتاب هذا قائلة: (وهذا شخص اسمه بدر شاكر السياب أصدر كتاباً ضم طائفة من القصائد لشعراء من الفاشست النازيين أمثال أزرا باوند، ومن الجواسيس الذين اشتغلوا في الانتلجنسيا سرفيس، من أمثال ستيفن سبندر).

ولم يسعني السكوت على هذا التحدي الوقح طبعاً. فرددت عليه بمقال قلت فيه أن أكثر الشعراء العراقيين واقعيون إنسانيون يكتبون عن مشاكل الشعب ويقاومون الظلم. وحين يظهرون يصفق لهم الشيوعيون حاسبين أنهم منهم وتطاردهم الشرطة حاسبة أنهم شيوعيون وهم ليسوا كذلك في حقيقة الأمر.

وقلت إنني لست شيوعياً ليتهمني الشيوعيون بالانحراف وخيانتهم. ثم دافعت عن اختياري للقصائد قائلاً: إنني اخترتها لمجرد أنها قصائد جيدة وذات محتوى إنساني بغض النظر عن هوية كاتبها. ثم دافعت عن ستيفن سبندر الذي هو أكثر إنسانية وعمقاً من أي شاعر شيوعي قرأت له، من ناظم حكمت وبابلو نيرودا إلى غيره من شعراء

الشيوعيين الشعوبيين. ثم قلت إنني أخدم أمتي واستهدف مصالحها، غير منتظر تعليمات تأتي من لندن أو واشنطن أو موسكو.

وبدأت المعركة الحقيقية بيني وبين الشيوعيين منذ ذلك الحين رغم أن عدداً منهم كان لا يزال يعتبرني (إنساناً شريفاً) وديمقراطياً مخلصاً ثم روّج الشيوعيون إشاعة عني بأنني (بعثي) وروج آخرون إشاعة تزعم إنني لست قومياً عربياً (وكانوا يتسترون بالقومية العربية آنذاك) وإنما أنا قومي سوري.

بقي أن أقول شيئاً واحداً، هو أنني استطعت أن أجد ناشراً للأسلحة والأطفال فيما بعد. وحين ظهرت القصيدة التي تدعو إلى السلام، أقبل عليها أعداء السلام كما يسمي الشيوعيون القوميين يشترونها وانصرف عنها الشيوعيون الشوفينيون أنصار السلام الذين يحبون الأطفال كثيراً، كما أظهرت حوادث كركوك.



الحلقة الرابعة

العدد ١٤٤٤

التاريخ ١٨/آب/١٩٥٩

كنت نائماً نومة القيلولة ظهراً أمس الأول حين قرع الجرس في داري فأفقت من نومي منزعجاً لأفتح الباب. ووجدت أن الطارق كان صديقاً قديماً من أبناء بلدي، بدأ حياته السياسية مؤيداً للحزب الوطني الديمقراطي ثم تحول بعد الثورة إلى صفوف الشيوعيين. وعجبت لهذه الزيارة التي لم أكن لها متوقعاً. وما إن أخذ صديقي مكانه حتى أنبأني بأنه أرسل زوجته إلى البصرة، فشعرت بارتياح عظيم، إذ إنني فسرت الزيارة بأنها من شخص بيته خالٍ من أي إنسان سواه، فلاعجب أن يبحث عن صديق يقضي معه فترة الظهيرة المملة الطويلة.

غير أنه ما لبث أن بادرني صارخاً: ما هذه الكتابات؟ كيف ترضى لنفسك أن تنحدر إلى هذا المستوى.

ودار بيني وبينه حديث طويل عما أكتبه ونصحني بأن أكف عن الكتابة، واختتم حديثه قائلاً: لقد دخلت إلى الحزب الشيوعي بمحض اختيارك وخرجت منه بمحض اختيارك أيضاً. إن ما بينك وبين الشيوعيين قد انتهى. كلنا نعرف ذلك. انتهى قبل الثورة لا بأشهر

وإنما سنوات. أفلا ترى أن من الأكرم والأنبل أن تضم قلبك على ما فيه دون أن تتعرض للشيوعيين بخير أو بشر؟

وأجبته: صحيح أن ما بيني وبين الشيوعيين قد انتهى منذ سنوات عديدة، ولكن هل تركني الشيوعيون بسلام؟ لقد ظلوا يلاحقونني بالشتائم والأكاذيب والسباب حتى انتهى بهم الأمر إلى التسبب في فصلي من وظيفتي، فقطعوا بذلك رزقي، موردي الوحيد الذي أعتاش منه وأقيت أطفالي. إنني في حرب معهم، وهي حرب شخصية بالإضافة إلى كونها حرباً عقائدية.

وأنا أرى لزاماً عليّ اليوم أن أروي قصة فصلي والدور القذر الذي لعبه الشيوعيون فيها ليقرأها ذلك الصديق ويقرأها معه المواطنون ويقرأها المسؤولون. وقبل، ليقرأها سيادة الزعيم الأوحد، وأنا آمل أن يكون في وقته الذي يكرسه لخدمة الشعب والسهر على مصالحه، متسع لقراءة هذه السطور التي يكتبها لا مجرد مواطن مظلوم وإنما شاعر من أبرز شعراء العرب.

إننا نحمّل رجال العهد البائد مسؤولية تلك الجريمة التي ارتكبوها بحق الشاعر معروف الرصافي، حين حاربوه في رزقه، لأنه كان ضد الملك والبلاط، وهاأنذا اليوم شاعراً لا يقل عن الرصافي شاعرية ووطنياً مخلصاً وديمقراطياً صميماً أحارب في رزقي، في عهد الزعيم الفذ عبد الكريم قاسم، لا لأنني ضد الجمهورية بل لمجرد أنني أحب عبد الكريم قاسم أكثر مما أحب خروشوف أو ماركس أو لينين، وأحب العراق أكثر مما أحبّ الاتحاد السوفيتي، وأحب الشعب العربي العظيم أكثر مما أحب الشعب السوفييتي أو سواه من الشعوب.

بعد أن أنقذتنا تلك الضربة التي اصطفى الله لتنفيذها زعيمنا العبقري عبدالكريم قاسم، وأطلق الحريات للناس أجمعين بما فيهم الرفاق، كان الشيوعيون يتوقعون مني أن أعود إلى صفوفهم، كما عاد إليها المئات من الجبناء الذين قدموا البراءات ونبذوا الشيوعية في عهد نوري السعيد. ولم أكن قد تقدمت ببراءة أو نبذ، بل إن سلطات المجرمين البائدين ظلت حتى فجر ١٤/تموز الخالد تطاردني بتهمة الشيوعية، ولكني لم أتراجع عن موقفي الذي اتخذته إزاءهم منذ عام ١٩٥٣، بعد أن اتضحت لي خياناتهم ومخازيهم الكثيرة. بل إنني تجرأت واتخذت موقف العداء منهم.

ففي عهد نوري السعيد كنا نعطف عليهم ونتجاوب معهم ونستنكف أن نعاديهم، لأن الخونة الطغاة من رجال العهد البائد كانوا يضطهدونهم، فكان الوقوف ضدهم يعني الوقوف إلى جانب نوري السعيد وزمرته الوسخة.

وحدثت مؤامرة الشواف. وفي اليوم التالي لحدوثها أقبل علي شيوعي من شيوعيي ١٤/تموز، هو موظف صغير في دائرتي مديرية التجارة العامة حاملاً بيده عريضة وطلب إلى توقيعها. وبعد أن قرأتها رفضت التوقيع عليها، فسألني الرفيق الشيوعي داود سلمان أو سلمان داود، فأنا لا أتذكر اسمه جيداً الآن، أقول سألني الرفيق حامل العريضة عن السبب الذي جعلني امتنع عن التوقيع عليها، فأجبته جواباً لم يقع من نفسه موضع الرضى. فقال: إن الذي لا يوقع هذه العريضة هو خائن! فغاضني هذا التحدي الوقح منه وسألته: من أنت لتحكم على الناس بالخيانة أو الوطنية؟ أين كنت قبل ١٤/تموز يوم

كانت الوطنية تكلف الأنسان حياته أو عمله أو تقوده إلى السجن والتشرد والحرمان؟ فأجاب بالصفاقة عن الرفاق، الصفاقة التي روى (ع. ع) فصلاً من فصولها. سنقطع حديثنا عن فصلي لنروي لكم هذا الفصل الذي شهده (ع. ع) وهو محام كان في البصرة، وهو مصاب بالشذوذ الجنسي بشكل فظيع. وقد انتمى (ع. ع) أول ما انتمى إلى أحد الأحزاب الوطنية، وبعد أن قضى مرامه تركه إلى حزب الشعب الذي كان عزيز شريف رئيساً له. وقضى (ع. ع) لبانته في هذا الحزب. ثم انتقل إلى حزب التحرر الوطني الوجه البارز للحزب الشيوعي العراقي آنذاك، فمكث فيه أطول مدة. فإن نصف المنتمين إلى هذا الحزب كانوا من اليهود، وإن نسبة الجمال والاستعداد للتضحية بين الشبان اليهود أعلى منها بين سواهم. واختير (ع. ع) منظماً لعدد من شبان إسرائيل.

وفي ذات يوم كان في اجتماع تنظيمي مع حسقيل أو شلومو الجميل اللطيف. وسرعان ما انقلب الاجتماع التنظيمي إلى اجتماع من نوع آخر، وخلال ذلك رفع الرفيق المناضل حسقيل رأسه والتفت إلى منظمه سائلاً: أستاذ... رأيك بانقلاب حسني الزعيم. أرأيت حرصاً على النضال أكثر من هذا؟ ثم هل رأيت صفاقة أشنع من هذه؟ هذه هي صفاقة الرفاق.

أقول أجاب الرفيق داود بهذه الصفاقة الحسقيلية: إن الماضي لا يهم، وعلينا بالحاضر. لقد كان ماضيك مجيداً ولكن حاضرك لا يساوي شيئاً، إنني مناضل الآن. فشتمته وشتمت المناضلين والشيوعيين والحزب الشيوعي، فتناول عريضته وانصرف مولولاً

صارخاً: الله أكبر. يسب الزعيم ويمدح جمال عبد الناصر، ووصل الخبر إلى الأستاذ المرتشي القذر (ج) الذي أنقذته أنا من الفصل ذات يوم في العهد البائد حين توسطت له لدى المدير العام الذي اكتشف ارتشاءه قائلاً له: إنه محسوب على الوطنيين، وإذا فصلته بتهمة الرشوة فسوف يشمت أنصار نوري السعيد قائلين ـ أهؤلاء هم الوطنيون الديمقراطيون المعادون لنوري السعيد، سرّاق ومرتشون.

أقول: وصل الخبر لهذا الرفيق المرتشي البخيل، ومن بخله أنه لا يشتري لأطفاله له فاكهة غير التمر. وذات يوم توسل به الطفلان.. بابا، إشتر لنا موزاً أو تفاحاً.. والله متنا من التمر. فقال: أنا قرأت في مجلة سوفييتية أن التمر فيه فيتامينات أكثر مما في الموز أو التفاح. وحين وصل الخبر إليه وهو يعلم بعدائي الصريح لهم وسبابي لهم، ورواياتي لفضائحهم، وجدها فرصة سانحة للانتقام مني. وكان المدير العام للدائرة غائباً في أجازة، فكتب الأستاذ (ج) كتاباً إلى وزارة الاقتصاد يعدد جرائمي، وقد جاء في ذلك الكتاب: وشوهد وهو يبتسم في يوم مؤامرة الشواف مما يدل... أرأيت الدايالكتيك والمنطق؟ مما يدل على أنه فرح بهذه المؤامرة الحقيرة، وهو ممن لا يتورعون عن سب سيادة الزعيم...

وبعد دقائق رن جرس التلفون وكان المتكلم معاون شرطة العباخانة، وقد طلب إلي أن أذهب إليه. وعرفت أنني سيقبض عليّ ولما كنت أعلم علم اليقين أنني لم أرتكب ذنباً أحاسب عليه، قررت الذهاب إليه. وخرجت من غرفتي لأحصل على رخصة من وكيل المدير العام وأذهب إلى مركز شرطة العباخانة. غير إنني فوجئت

بالفرّاش يقول لي: سيد بدر، ممنوع تخرج من غرفتك. وظننت أنه أجراء اتخذ حرصاً على مصالح الجمهورية للحيلولة بين الموظف وبين قضاء وقته في زيارة الموظفين الآخرين والثرثرة معهم. فقلت له ـ بأمر من؟ فقال: بأمر الجماعة، فصرخت به ـ ومن هم الجماعة؟ إنني رئيس ملاحظين وليس هناك من مرجع أعلى مني سوى المدير العام. وأنا ذاهب إلى المدير العام.

وعند ذاك هاجت عليَّ الكلاب الحمراء: إجلس مكانك أيها الحقير. ودفعني أحدهم وهددني بأن يكسر رأسي. وجاءت الرفيقة الشريفة تماضر وصارت تسبني سباً بذيئاً يندى له جبين كل عذراء حتى لو كانت نصف عذراء.

ما لبث شرطي من الأمن أن جاء واصطحبني إلى المركز، ورافق الشرطي شَعُور فاشل يحقد علي لأنه شاعر فاشل، كأنني مسؤول عن فشله، ورافقنا أيضاً الشاهدان المحترمان الأستاذ الفنان نوري الراوي والمناضل داود سلمان. وفي المركز غير نوري الراوي اسمه وقال ـ نوري أحمد محمود، كأنه يخاف محاسبة التاريخ له حين يصبح مصوراً خالداً. وسألهما المفوض الذي يتولى التحقيق: هل سب الزعيم أو الجمهورية أو أحد المسؤولين؟ فأجابوا بالنفي. وهكذا خرجت من التوقيف... غير إنني فصلت من عملي.

وقرأت إعلاناً لشركة النفط تعلن فيه عن حاجتها لمترجمين، وقدمت طلباً إليها بواسطة مديرية شؤون النفط، فزودتني بكتاب إلى الشركة مع عريضتي، وعين المسؤولين في الشركة موعداً لمقابلتي. وقبل الموعد بيوم راجعت بعض الأصدقاء في الشركة، فقيل لي: إن

مديرية شؤون النفط ألغت كتابها السابق بكتاب جديد؟ فلماذا يا مديرية شؤون النفط تحرمونني من هذا الحق البسيط، حق الاشتغال في شركة أجنبية، بينما تبيحونه للضباط الذين أحيلوا على التقاعد لأنهم متهمون بالتآمر على الجمهورية؟ أأنا أشد خطراً منهم وأكثر إجراماً. وأنت ياطلفي الصغير غيلان ويا بنيتي الصغيرة غيداء، لكما الله، ولن يترككما تموتان جوعاً. فإذا كانت عدالة الإنسان، أي إنسان، مثلوبة، فإن عدالة الله كاملة ولن يحرم الله عبداً من رزقه المكتوب.



الحلقة الخامسة

العدد ١٤٤٥

التاريخ ١٩/آب/١٩٥٩

كنت قد حدثتك في الحلقة الأولى من سلسلة المقالات هذه، كيف أصبحت عضواً في الحزب الشيوعي العراقي، وكان اسمي السري الذي اخترته لنفسي هو (جرير) وكنت آنذاك طالباً في السنة الثانية من دار المعلمين العالية، التي أصبحت الدراسة فيها يومذاك خمس سنوات، بعد أن سميت السنة الأولى من الدراسة فيها السنة التحضيرية وكانت الدراسة فيها باللغة الإنكليزية لجميع الدروس من تاريخ وجغرافيا، عدا اللغة العربية.

وبعد انتهاء العطلة واعتزامي السفر إلى الكلية في بغداد، زودني الرفيق أحمد علوان الذي كان مسؤول الحزب في أبي الخصيب، وهو إيراني الأصل، عمل مدة مع حزب تودا وقد قتل في سجن نقرة السلمان فيما بعد. أقول، زودني الرفيق أحمد علوان بكتاب تعريف وتوصية إلى حسين الشبيبي في بغداد. وقد أوصلت ذلك الكتاب، فاتخذ الشيوعيون إجراءاتهم حيث أخبروا أعضاء الحزب من طلاب دار المعلمين العالية، بأنني شيوعي منهم.

وفي الدار قابلني جاسم حمودي، وكان طالباً في الصف الرابع آنذاك وقال إنهم يرحبون بأنني أصبحت منهم.

وفي تلك السنة ارتأى المسؤولون يومها، منح الطلبة والتلاميذ بعض الحقوق الديمقراطية فأعطوهم الحق بتأليف اتحادات الطلبة.

ونشطنا نشاطاً محموماً في دعايتنا الانتخابية. وكان عددنا نحن الشيوعيين قليلاً للغاية بين الطلاب، كنا خمسة أو ستة لا أكثر.

ورحنا نضرب على كل وتر تخرج نغمته موافقة لما نريد. بثثنا بين الطلاب الأكراد أن القوميين يكرهون الأكراد وقوميتهم، بينما نعتبرهم نحن أخواناً لنا. بل إننا أخذنا نسب العرب والقومية العربية أمامهم، بل رحنا ننتقص من العرب ونزعم أن التاريخ العربي ما هو إلاّ مجموعة من المذابح والمجازر وأن القواد العرب وزعماؤهم العظام ما هم إلاّ إقطاعيون حقراء، جلادون إلى غير ذلك.

ومررنا على إخواننا اليهود، وهم مع الشيوعيون دون حاجة إلى دعوة أو دعاية. وضربنا على وتر الطائفية، ونادينا أن يكون أعضاء اتحاد الطلبة من أتباع المذهب الفلاني واستغللنا بعض الرفيقات للتأثير على قسم آخر من الطلاب. ورشحت أنا نفسي عن طلاب السنة الثانية، وفزت في الانتخاب، لا لأنني كنتُ شيوعيّاً ولكن لأنني كنت محبوباً بين الطلاب، فقد كنت خلوقاً ذكياً ودوداً، وصديقاً للجميع.

وكان بين الفائزين أيضاً صلاح خالص، عن طلاب السنة الثالثة، وكان علينا أن نختار رئيساً ونائباً للرئيس وسكرتيراً من بيننا. وجرت الاتصالات بيننا نحن الفائزين. وكان خالص يدعو لنفسه رئيس للاتحاد، فوعدناه بأننا سننتخبه ولكني أنا وجاسم حمودي الذي فاز ممثلاً لطلاب السنة الرابعة اجتمعنا وقررنا أن صلاح خالص وكان

عضواً أو مؤيداً للحزب الوطني الديمقراطي آنذاك، لا يصلح أن يكون رئيساً. فالرئيس يجب أن يكون منا، نحن الشيوعيين. واقترح جاسم أن أكون إنا رئيساً لأنني (محبوب أكثر) على حد تعبيره.

وهكذا كان، فانتخبت أنا رئيساً للاتحاد بينما انتخب جاسم حمودي نائباً للرئيس. ولكنه كان، في حقيقة الأمر، هو الرئيس الفعلي. فقد كان أعلى مركزاً مني في الحزب، وكان هو الواسطة بيننا وبين الحزب الشيوعي. ولكنك قد تتساءل: إذا كان جاسم حمودي أعلى مركزاً منك في الحزب، وكان هو الرئيس الفعلي للاتحاد، فلماذا لم يكن الرئيس الأسمى أيضاً؟

لقد أراد أن يبقى هو في الظل بينما أكون أنا في النور، ولأكون كبش الفداء حين الفداء، لأن رئيس الاتحاد هو أكثر أعضائه مسؤولية وأكثرهم عملاً. إن خسارة الحزب في فصل معتمده أكثر من خسارته في فصلي أنا، العضو الاعتيادي.

إن من يقرا اعترافات جاسم حمودي في (الموسوعة) التي طبعتها دائرة التحقيقات الجنائية في حينها، يطلع على الدور الذي لعبه الحزب الشيوعي العراقي في إضراب طلاب دار المعلمين عام ١٩٤٥.

فقد أُلقي القبض على الرفيق جاسم بعد تخرجه، وقد اعترف بكل ما لديه من معلومات، شأن العشرات من الرفاق المناضلين. ولم لا يعترف وقد اعترف من قبله مالك سيف وهو سكرتير الحزب، واليهودي يهودا صديق وهو عضو اللجنة المركزية ورفيق جالاك، وهو سكرتير الحزب أيضاً الذي خلف مالك سيف، وأصدر في حينه منشوراً يقول فيه: «إن عقارب مالك سيف ما زالت تعشعش في حزبنا وعلينا أن نقضي عليها. وإن خيانة مالك سيف لن تتكرر». ولكنه، رغم هذه البطولة خان واعترف وعمل شرطياً في التحقيقات الجنائية.

وإذا كان لخيانة مالك سيف والتي سأفصل ما أعرفه عنها في حلقة أخرى، ما يبررها حيث أراد إنقاذ البلد من الصهيونية التي سيطرت على الحزب آنذاك، إبان الحرب الفلسطينية، وراحت تعمل ما في وسعها لضرب مؤخرة الجيش العراقي الذي كان يجاهد في فلسطين، أقول إذا كان لاعترافات مالك سيف ما يبررها فليس لاعترافات رفيق جالاك ما يبررها. لقد أُلقي القبض على رفيق جالاك في حي من أحياء اليهود، وادعى أنه (ابغاهام) يعني (أبراهام)، وأنه يهودي فقير ولكن بعد ضربتين بالخيزرانة صاح بلغته الأصلية اللغة الكردية: زانم، أي أنني أعرف. وأدلى بكل ما يعرف.

هذه هي بطولات الرفاق وحزبهم العتيد ذي التاريخ الذي يبدأ باللادينية وينتهي بمجزرة كركوك.

وكعادة الشيوعيين في كل زمان ومكان، ماعدا الدول الشيوعية طبعاً، رحنا نتصل بالطلاب محاولين أن نثير بينهم روح التذمر والاستياء، ونجعلهم يقومون بأعمال مخلة بالنظام المدرسي. ونجحنا بمعاونة رفاقنا من الطلاب الشيوعيين في الصف التحضيري، أن نثير سخط طلاب هذا الصف على هذه السنة الزائدة.

إن الدراسة في جميع الكليات عدا الطب، هي لمدة أربع سنوات، ماعدا دار المعلمين العالية. ومع ذلك فإن خريجيها لن يتقاضوا راتباً أكثر من الراتب الذي يتقاضاه خريج كلية الحقوق، الذي يدرس لمدة أربع سنوات، وعلى هذا النمط من الكلام.

ونجحنا في خطتنا، فأضرب طلاب التحضيري مطالبين بجعل الدراسة في دار المعلمين العالية لمدة أربع سنوات وحسب وبنقلهم من القسم الداخلي المستقل الذي يقيمون فيه إلى القسم الداخلي الذي

يضم طلاب بقية الصفوف، والاستغناء عن التدريس باللغة الإنكليزية الذي وضع في الأصل لتمكينهم من هذه اللغة المهمة وجعله باللغة العربية إلى آخر مطاليبهم العديدة، وكان الطلاب المضربون يجتمعون في حديقة المعرض العامة، حيث كان عضو اتحاد الطلبة وهو شيوعي أيضاً يخطب فيهم ويحثهم على التمسك بمطاليبهم والاستمرار في الإضراب.

وأمرني جاسم حمودي بأن عليّ كرئيس لاتحاد الطلبة، أن أزور هؤلاء الطلاب المضربين في الحديقة وأخطب فيهم. ورحبت أنا بهذه الفكرة، فقد كنت في شوق إلى رؤية الآنسة (ل) الطالبة في الصف التحضيري آنذاك، التي كنت أحبها.

وذهبت إلى الحديقة فاستقبلني الطلاب بالهتاف والتصفيق، واعتليت إحدى الأرائك وخطبت في الحاضرين، ووعدتهم بأن اتحاد الطلبة سيصدر بياناً يؤيد إضرابهم فيه، ويدعو بقية الطلاب إلى الإضراب. وكم كان فرحي عظيماً حين رأيتها، حين رأيت معبودتي الصغيرة، تصفق لي متحمسة... فهي (تقدمية) وقد أعجبها ما لمسته من (تقدمية) في خطابي.

وفي اليوم التالي، أصدرت بياناً، باعتباري رئيسا لاتحاد الطلبة أيدت فيه الطلاب المضربين ودعوت بقية إخوانهم إلى نصرتهم. وتأزم الوضع في الكلية، ودعانا معاون العميد، وكان الدكتور عبد العزيز الدوري، إلى اجتماع به لمناقشة المشكلة وتعمدنا في ذلك الاجتماع أن نهين أستاذنا الجليل وأن نقابله بالاستخفاف. وقد تقبل كل تصرفاتنا السمجة بروح مسامحة غالية. ولم نتوصل إلى اتفاق. وفي اليوم التالي كانت الكلية في شبه إضراب. ودق جرس الدرس، فخرج العميد

الدكتور خالد الهاشمي يستطلع الأمر، فرأى أن أكثر من ثلثي الطلبة كانوا متجمعين هنا وهناك في ممرات الكلية وحدائقها ولم يدخلوا الدرس. وراح يأمرهم بالدخول إلى الدرس فانصاع له أكثرهم. ومر، في طريقه، بإحدى الطالبات، فأمرها بأن تدخل الدرس فقابلته متحدية قائلة باستهزاء: (هي والله!! مد يدك إلى السماء، فهي أقرب)، فاغتاظ العميد لهذه الوقاحة، حتى فقد أعصابه وضربها. وقامت قائمتنا، واتخذنا من الطالبة المصفوعة قميص عثمان، ونجحنا في حمل كل الطلاب على الإضراب.

واتخذ مجلس الأساتذة قراراً بإبعادي أنا وجاسم حمودي عن الدار لمدة أسبوع ليتاح له التحقيق فيما حدث. وانتقلت إلى أحد الفنادق. وما أن ابتعدنا عن مسرح الإضراب حتى انتهى وعاد التلاميذ إلى دروسهم.

واجتمع مجلس الأساتذة فقرر فصلي لمدة سنة وفصل جاسم حمودي لمدة أسبوعين فقط، فقد كنت أنا البارز في هذا الإضراب، وفصل عدد آخر من الطلاب لمدد متفاوتة.

بقي أن أقول أننا حاولنا أثناء إضرابنا الاتصال بعدد من الصحف والحصول على تأييدها لنا، فامتنع أصحاب الصحف جميعاً عن ذلك، حتى صاحب إحدى الصحف (التقدمية) الذي أخبرنا بأنه (متعلم) أي متألم ولكن خالد الهاشمي صديقه، وهو يعتز بهذه الصداقة، لذلك لا يستطيع تأييدنا.

غير أننا لمسنا لدى جريدة الساعة، كانت جريدة طائفية كما يذكر الجميع، عطفاً على قضيتنا، فأردنا أن نستغله. وقصدنا إدارة الساعة وقابلنا المسؤولين عنها، وكان بينهم حسين مروة المناضل الذي كان

طائفياً آنذاك، وأفهمناه أن القضية لاعلاقة لها بالشيوعية اطلاقاً، وإنما هي صراع بين السنة والشيعة، أرأيت هذه الحقارة منا، نحن الشيوعيين المناضلين أعداء التفرقات الدينية والعنصرية؟ وسألني الرفيق حسين (عفواً، لم يكن رفيقاً آنذاك): أنت شيعي؟

فأجبته: نعم، فسألني: يقولون عنك شيوعي. فقلت: لقد أضافوا واواً إلى الحقيقة.

وبعد الإقامة أسبوعين في الفندق والأكل في المطاعم، مما حطم ميزانيتي المتواضعة بل أدى إلى إفلاسي تماماً. بعد هذا كله أرسل الحزب الشيوعي إليّ بيد الرفيق جاسم حمودي ديناراً واحداً كمساعدة لي من الحزب. ولو كان لدي شعور بالكرامة آنذاك لرفضت هذه المساعدة التافهة، ولكنني عددت تبرع الحزب لي بأي مبلغ كان انتصاراً لي كشيوعي أدى واجبه نحو حزبه. وهكذا ضاعت سنة من حياتي في سبيل الرفاق المناضلين، بل سنوات.



الحلقة السادسة

العدد ١٤٤٦

التاريخ ٢٠/آب/١٩٥٩

حدثتك في العدد الماضي أيها القارئ العزيز، عن الإضراب الذي قمنا به في دار المعلمين العالية تنفيذاً لأوامر الحزب الشيوعي العراقي، وكيف توسلنا بمختلف الوسائل لتحقيق أهدافنا، لجأنا إلى العنصرية. فرحنا نثير الأقليات ضد العرب وقوميتهم، وبالطائفية، وحتى بالجنس أيضاً، فرحنا نرسل الرفيقات الحسناوات إلى الطلاب ليجذبنهم إلى صفوفنا. وحدثتك أيضاً أن مجلس الأساتذة قرر فصلي لمدة عام واحد فعدت إلى قريتي لأقضي هذا العام.

وكانت الأشهر التي قضيتها في القرية بعد فصلي من أحفل الأشهر بنشاطي الحزبي، وكفاحي المتواصل في سبيل جر الفلاحين البسطاء والقرويين السذج إلى صفوف الحزب.

عقدنا، أنا وعمي عبد الحميد الذي كان معتمد الحزب الشيوعي في أبي الخصيب، وشخص آخر من ذوي قربانا أسمه عبد الدائم، مجالس الخمر مع الفلاحين، ورأى الفلاحون في ذلك، في أن نقصد أكواخهم ونشرب الخمر معهم، ونتحدث إليهم من القلب إلى القلب، حادثا طار بعقولهم.

لم يكونوا ليتصوروا مثل التواضع والديمقراطية من أبناء الأسر التي تملك بساتين للنخيل وثروة تعتبر في الريف ضخمة، وإن كانت تافهة في حقيقة الأمر.

ولجأنا إلى الغش والخداع معهم. فليس معقولاً أن نشرح للفلاح الساذج مبادئ المادية الديالكتيكية. فنقول له أن المادة الأولى من مواد هذه الفلسفة هو نكران العقل المطلق، وأن المادة أصل الأشياء، وهو بصريح العبارة إنكار لوجود الله تعالى ونسف لكل القيم الروحية والدينية التي يؤمن بها الفلاحون.

قلنا لهم أن الشيوعية تسعى إلى إلغاء الفروق بين الناس فلا يبقى شخص أفضل من شخص آخر، وتسعى إلى توزيع الأرض على الفلاحين. وإني حين استعرض هذا كله الآن، يتملكني العجب من هذه الصفاقة. إن الملاكين الذين يملكون بساتين النخيل في البصرة، بما فيها أبو الخصيب، هم في حقيقة الأمر أناس فقراء أو متوسطو الدخل في أحسن الأحوال. إن هناك بضعة نفر من هؤلاء الملاكين، يبلغ الدخل السنوي الواحد منهم ستمائة دينار. أي أن الدخل الشهري للملاك الواحد، الذي كنا نسميه إقطاعياً قذراً مستغلاً، مصاصاً للدماء، هو خمسون ديناراً فقط.

إن الدخل الشهري لأي موظف وسط هو أكثر من هذا كثيراً. أما بقية الملاكين فإن مدخولاتهم السنوية تافهة بحيث لا تكاد تكفي للوفاء بحاجاتهم.

وهكذا، فقد ضربنا على الوتر الحساس في نفوس هؤلاء الفلاحين البسطاء. إن جوعهم إلي الأرض، ذلك الجوع الرهيب الذي ورثوه عن آبائهم وأجدادهم وجد في السراب الشيوعي الأحمر، غايته المنشودة، والمتنفس الذي يفرج الكربة.

إن الفلاحين لم يغرسوا النخيل في البساتين التي يعملون فيها، ولم يبذلوا أي مجهود في إحالة الجزر الطينية على حواشي شط العرب، إلى مزارع مزهرة. فليس لهم أي حق في هذه البساتين. كان من المعقول جداً، أن نعدهم بأن الشيوعية سوف تعمل على زيادة حصتهم من حاصلات بساتينهم من التمر. ولكننا كنا كرماء للغاية. وعلى كل فإن الكرم بالوعود هو أتفه أنواع الكرم وأقلها عناء وكلفة.

وتسربت هذه الوعود الخلابة إلى نفوس الفلاحين واحتلت لها مكاناً في عقولهم الواعية واللاواعية. أذكر ليلة مقمرة من ليالي الصيف، كنا نعقد فيها مجلساً من مجالس الشرب، وكان مقرنا في فسحة تحف بها الكروم في البستان الذي يعمل حمد فلاحاً فيه. وكنا قد نجحنا في إغراء حمد بالانتماء إلى الحزب الشيوعي. وسكر حمد سكرة فظيعة، فإن رداءة العرق الذي كنا نشربه، وحرارة الصيف اللاهبة كانتا كفيلتين بذلك. وراح يهذي بأحلامه وأمانيه. قال بلهجة جعلها السكر ثقيلة: نعم. أنا شيوعي وأمي شيوعية وأبي شيوعي. نعم، أمس رحت إلى محمد سعيد، وهو مالك البستان، فقال: تعال حاسبني واعطني ثمن التمر الذي بعته من بستاني. فقلت له: أي تمر وأي بستان؟ فقال: بستاني الذي تعمل فلاحاً فيه. فضحكت وأجبته: ليس لك أي بستان. إنني فلاح والبستان بستاني. وحين راح يلقلق ضربته بطلقة من الساير - والساير كما يعلم القارئ نوع من التمر - فلم يمت. فحشوت مسدسي بطلقة حلاوي - والحلاوي أجود أنواع التمر - فأرديته قتيلاً. وأحاطني الشرطة والناس ثم حبسوني في سجن النساء. وقد قضيت في هذا السجن أياماً ممتعة. تصور حمد بين مئات النساء الحسناوات؟

إن أحلام حمد هذه لا تختلف عن أحلام أي شيوعي آخر، السرقة واغتصاب أموال الآخرين، والقتل، وأخيراً انتهاك الأعراض. ولقد شهدنا الشيوعيين خلال أشهر الكابوس الأحمر الرهيب، يحققون هذه الأحلام واحداً بعد واحد. رأيناهم ينهبون البيوت والحوانيت، ورأيناهم يقتلون، ورأيناهم يرتكبون من الموبقات ما يتأبى القلم عن ذكره.

غير أن علاقة الفلاحين بنا، لم تكن تخلو من مكدرات لهم، كلما جئنا نطالبهم باشتراك الحزب أو بالتبرع له. إن الفلاح الذي لا يحصل إلاّ على اثني عشر ديناراً، طوال العام كله، يرى من الصعوبة عليه التبرع بمائة فلس للحزب العتيد.

وفي ذلك العام تأسست، كما أتذكر، العصبة الصهيونية الشيوعية التي سميت في حينه عصبة مكافحة الصهيونية. وكان عيداً بل ونصراً عظيماً لأخواننا الحساقلة أن يؤلفوا جمعية تخدم أغراضهم الصهيونية. ولم تخل البصرة من نشاط لهذه العصبة. فقد كان في البصرة عدد كبير من اليهود ولم يكونوا ليفوتوا مثل هذه الفرصة الثمينة.

وكشاعر شيوعي، فقد كانت الأحداث التافهة من إضراب يقوم به بعض العمال، إلى مظاهرة يقوم بها الشيوعيون تهز شاعريتي الشيوعية فأكتب عنها القصائد الطوال.

إن من يقارن بين المواضيع التي يكتب فيها الشعراء الكبار من غير الشيوعيين، وبين المواضيع التافهة التي يكتب بها الشعراء الرفاق، لا يمتلك إلاّ أن يعجب لهذا الدرك الذي ينحط إليه أناس لا يستحون من أن يسموا أنفسهم شعراء.

وكنت أكتب القصائد الحمراء وأرسلها في البريد إلى الرفاق الكبار

في بغداد، ليقرأها بعد ذاك المحامي حمزة سلمان، في حفلات العصبة الصهيونية نيابة عني. وكانت تلك القصائد التافهة التي أرثي لنفسي الآن أنني كتبتها، تحظى بالإعجاب الشديد والتصفيق المدوي.

وجمع يهود البصرة قواهم فقرروا إقامة احتفال باسم العصبة الصهيونية. ودعيت إلى المساهمة بهذا الاحتفال بقصيدة من قصائدي. وتحرك وفدنا إلى مدينة البصرة، وفي إحدى المدارس الابتدائية التي كان مديرها من الرفاق أو عاطفاً عليهم في القليل، أقيمت الحفلة وألقيت قصيدتي وكانت ناجحة بشكل لم أكن أتوقعه. وحين انتهت الحفلة أخذنا الرفاق الحساقلة أنور وأدور ونعيم وموسى إلى بيت أحدهم، وهناك جاءت لنا راستيل وهي صبية يهودية جميلة، هي أخت لأحد الرفاق، بكؤوس الشراب والأقداح وصحون المزّة. وجلسنا نشرب ونسب العرب وقوميتهم ودينهم، ونشيد بكفاح الأخوة اليهود قائلين لهم أن اليهودي لا يمكن أن يعيش سعيداً ويشعر بكيانه كإنسان إلاّ في المجتمعات الشيوعية. ما أحلاك أيتها الشيوعية: حفلات وتصفيق، ثم شراب ومزّة وعشاء، وفتاة جميلة تجالسنا وتحادثنا وهي تتموع وتتغنج وتستعمل كل الأساليب اليهودية القذرة في إفساد الأخلاق.

لقد أثبتت الأيام إخلاص اليهود للوطن، فهم مخلصون لوطنهم القومي، فحين فراري إلى إيران رأيت في طهران كل قادة عصبة مكافحة الصهيونية، وقد ألفوا جمعية صهيونية وراحوا يصدرون جريدة قذرة تنطق بلسانهم اسمها ـ عالم اليهود ـ إلاّ واحداً منهم هو نسيم الذي أعرفه باسمه الأول وبالوجه ولا أعرف لقبه فهو مؤيد لحزب تودا.

ولكن أصدقائي التوديين حذروني قائلين: رفيق عرب، بحضرت اقاي نسيم هيج حرف نزن. أيها الرفيق العربي، لا تنطق ولا بحرف واحد عند وجود السيد نسيم.

ولقد أسقط كافة اليهود الشيوعيين العراقيين جنسياتهم العراقية ورحلوا، إما إلى إسرائيل وإما إلى إيران، حيث يزاولون النشاط الصهيوني. رحلوا كلهم إلاّ الرفيق يعقوب مصري الذي أشهر إسلامه وسمى نفسه عادل منير، وهو اليوم عضو اللجنة المحلية للحزب الشيوعي العراقي في كركوك. فهلا حقق المسؤولون عن الدور الذي لعبه هذا اليهودي المسلم في حوادث كركوك ومجزرتها الرهيبة.

ولكن أبناء الشعب، أبناء العراق الصميمين، ظلوا على كرههم لليهود وشكهم بهم.

أذكر مرة أن عمي مجيد كان يوزع بعض منشورات العصبة الصهيونية في سوق أبي الخصيب. وكان يحمل في يده علاّقة (سلة خضروات). وفي أحد المقاهي ناداه واحد من الجالسين صائحاً: خوجة.. أعطني منشوراً. لقد كان يظنه يهودياً، إذ لم يدر في خلد أبناء شعبنا العظيم، أن عربياً مسلماً يمكن أن يخدم العصبة الصهيونية المجرمة. ولكننا، مع الأسف الشديد خدمناها ونحن صاغرون.

وكثيرة هي الليالي التي يجفو النوم مضجعي فيها. وأرى فيما يشبه الحلم، صفوفاً من الأطفال العرب المدماة وجوههم وأطرافهم وهم ينظرون إليّ بعيون ساخطة دامعة ويهتفون: لماذا؟ لماذا؟

نعم لقد خدمنا الصهيونية وخنّا قضية أمتنا وقضية شعبنا في الوقت الذي كنا نتصور فيه أننا نخدم الشعب والأمة.

أذكر أنني كنت موقوفاً في موقف السراي. وكان معي في غرفة الموقف عدد من الرفاق بينهم خمسة من اليهود أو ستة. منهم الرفيق الذي أصبح فيما بعد سكرتيراً للحزب الشيوعي العراقي إبّان معركة المصير التي كان يخوضها العرب ضد اليهود في فلسطين. وجيء إلينا بالموقف، بثلاثة من العرب الفلسطينيين كانوا يحسبون العراق مربضاً للعروبة عن حق كما كان حكام العهد البائد يزعمون. فجاؤوه مسلحين ليثيروا نخوة أبنائه فكان مصيرهم التوقيف ثم النفي خارج الحدود. وراح الرفاق اليهود يشرحون لهؤلاء المجاهدين العرب الفلسطينيين، وكيف أن اليهود ذوو حق في فلسطين العربية بموجب الديالكتيك وتعريف الرفيق ستالين للقومية من أن الشعب الذي يسكن رقعة واحدة من الأرض ويتكلم لغة واحدة، ويربطه اقتصاد مشترك واحد وتاريخ واحد، يؤلف قومية.

ولما كانت هذه الأوصاف منطبقة على اليهود في فلسطين فهم يؤلفون قومية، متجاهلين أن اليهود الذين جاءوا من كل آفاق الأرض يتكلمون مائة لغة مختلفة وأن تاريخهم الواحد يعود إلى فترة معينة من الزمن قبل أكثر من ألفي سنة اختلفت بعدها تواريخهم ومصائرهم. ولكن الدول الاشتراكية احتضنت إسرائيل فمن واجب الشيوعيين حتى العرب منهم احتضانهم.

* * *

الحلقة السابعة

العدد ١٤٤٧
التاريخ ٢١/آب/١٩٥٩

حدثتك أمس عن العام الذي قضيته في القرية، مفصولاً من دار المعلمين العالية. وعن النضال الذي كنت أقوم به في سبيل بث الفكرة الشيوعية الهدامة واجتذاب الناس إلى حزبنا الشيوعي. وأذكر الآن حادثة من أبرز حوادث ذلك العام تدل على تفاهة الأدب الشيوعي، والشعر الشيوعي بوجه خاص، وتفاهة التصفيق الذي يثيره ذلك الشعر لدى ـ الجماهير ـ وللجماهير هذه قصة طريفة لا أرى بأساً من روايتها الآن قبل أن أروي الحادثة التي أشرت إليها في أول هذا المقال.

كان هناك مواطن عراقي من كردستان، اشترك في مظاهرة دبرها الشيوعيون، فحكم عليه المجلس العرفي بالحبس بضعة أشهر، ولم يكن شيوعياً وإنما كان مواطناً محباً لبلاده، العراق، مخلصاً لها. وقد وجد هذه الأشهر من الحبس، طويلة صعبة أكثر مما يحتمل، فكان يدمدم في شبه بكاء ـ ست أشهر؟! شهران فقط راحا منها. ما الذي سيقضيها؟

وكان الرفاق الشيوعيون ـ وأكثرهم من الحساقلة ـ يجيبونه بأن، لا

تيأس. سوف تأتي الجماهير ثائرة وتخلصنا وتخرجنا من السجن محمولين على الأكتاف. وأقنعوه بمثل هذا اللغو الفارغ وأغروه ذات يوم بأن يقرأ معهم نشيدهم المشهور: السجن ليس لنا نحن الأباة، السجن للمجرمين الطغاة.

وقرأ المسكين نشيدهم معهم وقدم إلى المحاكمة جزاء قراءته هذا النشيد، فحكمت عليه بستة أشهر أخرى من السجن. وتذمر من هذا، فقال له الرفاق: لا تيأس، سوف تثور الجماهير وتحررنا وتخرج بنا من السجن محمولين على أكتافها. فاطمأن باله لهذه الوعود الحلوة. واستطاعوا بعد فترة أن يقنعوه بالاشتراك معهم في إضراب من إضرابهم، وتصادم كما تصادموا، مع سلطات السجن. وفشل الإضراب الشيوعي فسيق المشتركون إلى المحاكم، فحكمت على صاحبنا بالسجن لمدة سنة. وارتاع البائس لما حدث.

دخل إلى السجن محكوماً لمدة أشهر ستة، وهاهو ذا يصبح محكوماً لمدة عامين. وراح يعلن عن ضيقه بالسجن، واستطال مدة سجنه. فطمأنه الرفاق الشرفاء إلى أن ـ الجماهير سوف تثور قريباً وتخلصنا وتخرجنا من السجن محمولين على أكتافها. فاستشاط صاحبنا غيظاً وصاح: جماهير، جماهير، وينه لعد؟ مايجي ويخلصني؟

حدث أن عطّلت السلطات جريدة ـ العصبة ـ التي كانت تصدرها العصبة الصهيونية بعد أن أصبحت لساناً ناطقاً بحال الشيوعيين الصهاينة فتأثرت لهذه النكبة الجسيمة، وكشاعر شيوعي مخلص كتبت قصيدة جاء فيها:

يــاحــابــســيــن صــحــيــفــة الأحــرار

لــن يــمــنــع الــقــيــد اشــتــعــال الــنــار

إن تــحــبــســوهــا فــهــي نــور ســاطــع

بــيــن الــضــلــوع، وصــرخــة اســتــنــكــار

وحدث أن احترق أحد الرفاق من العمال الشيوعيين في شركة نفط البصرة بعد أن انفجر النفط عليه، فقررنا، نحن الشيوعيين تشييع جثمانه الذي كان سينقل إلى النجف الأشرف بمظاهرة ضخمة حشدنا لها كل قوانا. وعند محطة القطار في المعقل ارتقيت إحدى السيارات وألقيت قصيدتي في جريدة ـ العصبة ـ بعد أن ربطت بين كفاح تلك الجريدة وبين حقوق الطبقة العاملة التي يمثل انفجار النفط ـ وهو كما أعلم الآن حادث ليس للإنسان من تأثير عليه ـ خرقاً فاضحاً لها. ولا تسل عن الهتافات والتصفيق والاستعدادات. ومع ذلك، فقد أزعجني أنني رأيت ـ الجماهير ـ تستعيد لا الأبيات القومية بمعناها أو بمبناها وإنما الأبيات التافهة التي هي عبارة عن شعارات سياسية منظومة. إن من يقرأ تلك القصيدة التافهة التي كتبها الشاعر الشيوعي ناظم حكمت عن القنبلة الذرية التي أُلقيت على هيروشيما، تلك القصيدة التي كتبها في وقت كان الدفاع عن السلام فيه، الهدف الأول لكل الشيوعيين في العالم والتي قال فيها:

إنني طفلة من هيروشيما

أحرقت القنبلة شعري.وعيني

وأحالتني إلى رماد.

إن شبحي يزوركم الآن أيها

الأحياء

طالباً إليكم أن تنقذوا بقية

الأطفال

من المصير المؤلم الذي صرت إليه.

إن من يقرأ هذه القصيدة التافهة، ثم يقرأ تلك القصيدة الهائلة التي كتبتها الشاعرة الإنكليزية إيديث ستويل، وهي شاعرة دينية، يأخذه العجب حين يرى قصيدة الشاعر الشيوعي تقف كقزم تافه إزاء قصيدة الشاعرة الإنكليزية الجبارة.

إنني أسأل نفسي الآن: هل نجحت خلال عام كامل من النضال، في الليل والنهار بين الفلاحين البساط؟ إذا كان القياس بعدد الفلاحين الذين جذبناهم إلى الحزب الشيوعي، فإنني ناجح غاية النجاح. ولكن دعوني أعرض لكم نموذجاً من نماذج هؤلاء الفلاحين الذين غررنا بهم وجعلناهم يصبحون أعضاء في الحزب الشيوعي ويدفعون له كاشتراكات وتبرعات ما كان يكفي لإنقاذهم من الجوع أياماً عديدة.

كان هناك فلاح آخر من فلاحي القرية اسمه (ح. س) له زوجة شابة جميلة، وأم عمياء. وقد مرض (ح) هذا مرضاً اضطر معه إلى دخول المستشفى، فظلت أمه وزوجته المسكينتان دون حام أو معيل. وفي هذه الفترة بالذات كثر تغيب الفلاح ـ حمد ـ وهو الذي رويت أحلامه الخمرية في حلقة سابقة عن اجتماعاتنا بعد أن كان من أشد المتحمسين للشيوعية وللحزب الشيوعي الذي وعده بتحقيق أحلامه

جميعاً، ووعده بجنة في الأرض، وقلقنا لذلك، وأردنا أن نستجلي أمره. أيذهب لسرقة العنب أم ماذا؟ وتبعناه ذات ليلة، أنا وعمي دون أن يشعر بنا، فرأيناه يدلف إلى بيت (ح) الخالي من صاحبه. ثم مد يده إلى جيبه وأخرج بضع سيكارات قدمها إلى العجوز العمياء أم (ح) قائلاً: خالة أم (ح) هذي سكاير، (ح) أخونا، وهذا واجب علينا.

وشكرنا في نفوسنا للرفيق حمد هذا الإحساس النبيل. إن دروسنا لم تضع عبثاً معه. فقد أفهمناه في جملة الأشياء التي أفهمناه إياها منذ اللحظة الأولى التي بدأنا نجتذبه فيها: إن الفقير أخو الفقير والفلاح أخو الفلاح، وها هو ذا يساعد أم أخيه الفلاح، العمياء التي غاب معيلها، فلم تجد فلساً تشتري به السكاير لنفسها.

غير أن رفيقنا حمد، خفف من وطء خطواته بعد ذاك، واتجه كاللص كأحقر لص إلى الفراش الرث الذي كانت زوجة (ح) الجميلة الشابة تنام فيه، ورأيناه يخون أخاه الفلاح، النائم مريضاً في مستشفى مجاني بزوجته مستعيناً على تحقيق غايته الدنيئة ببضع سكاير ليسد بها فم العجوز العمياء. ومع ذلك فقد كنا ناجحين في مهمتنا. إن غاية نضالنا ليست تربية الأخلاق الكريمة لدى أعضائنا وإنما إثارة الطمع والحقد في نفوسهم، وقد امتلأت بهما نفس حمد حتى فاضت، حتى أنه تجرأ في إحدى سكراته، وحلم بأنه سيصادر أملاك جدي - وهي قليلة - وتكرم على عمي عبد المجيد فوعده بأنه سيعطيه أملاك أبيه.

إن الشيوعية لم تهذب أخلاق الفلاحين وحدهم وإنما هذبت أخلاقنا نحن أعضاء اللجنة المحلية للحزب الشيوعي في أبي الخصيب، وإليك مثالاً على هذا التهذيب.

لعل من البداهة أن نقول أن جميع الأديان السماوية منها وغير السماوية وجميع الوصايا الأخلاقية، منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا قد مضت على أنْ من واجب الأنسان أن يحترم أباه وجده وأخاه الأكبر منه. ولكننا، ونحن الشيوعيين، كنا نرى في مثل هذه النصائح سخفاً برجوازياً ما بعده من سخف.

ولقد رأى الناس إبّان شهور الكابوس الشيوعي الرهيب، كيف أصبح الأبناء الشيوعيون يقدمون الإخباريات الكاذبة ضد آبائهم وأمهاتهم وأخوتهم فعجبوا للأخلاق قد تغيرت وانحطت وما دروا أنها قصة قديمة وإن كانت لم تكشف إلاّ الآن حين أعطى أبونا البار وقائدنا المحنك عبد الكريم قاسم الحرية لجميع المواطنين من أي لون كانوا حتى تكشفت كل فئة على حقيقتها وأصبح الناس لا يلومونه بل إنهم يباركونه إذا أوقف هذه الفئة عند حدودها بعد أن تكون قد انكشفت لدى الناس. فلو أنه ألقى خطابه الذي شجب فيه الفوضوية والفوضويين في أوائل الثورة، لصحنا، حتى نحن غير الشيوعيين، ما الفرق إذن بين العهدين؟ ولكنه الآن لن يلقى حتى وإن سحق الشيوعيين سحقاً غير الإعجاب والتأييد والدعاء بطول العمر ودوام العهد الزاهر. وهذه هي العبقرية. إننا لو استعرضنا خطب الزعيم وتصريحاته منذ بداية الثورة حتى الآن، لوجدنا أن خطابه الرائع الذي ألقاه في كنيسة المار يوسف وتصريحاته العظيمة في المؤتمر الصحفي التي شجب بها الفوضوية والفوضويين وأظهر للناس بجلاء أنه أب لهذا الشعب العراقي بملايينه السبعة من عرب وأكراد وتركمان وكافة القوميات الأخرى، أقول، لو استعرضنا التأييدات الشعبية التي حظيت

بها كل خطب الزعيم وتصريحاته منذ قيام الثورة حتى الآن، لوجدنا أن خطابه في كنيسة المار يوسف وتصريحاته في المؤتمر الصحفي قد لقيت تأييداً هائلاً لم ينله أي خطاب أو تصريح سابق له بهذا القدر.

وبعد، فلنعد إلى موضوعنا ونعرض نموذجاً من التهذيب الشيوعي للأخلاق.

كان لدى جدي فلاح اسمه ـ محمود طيارة ـ لم يمكث في بستانه سوى بضعة أشهر، انتقل بعدها من البستان حاملاً معه المساحي والمناجل والعُدد الأخرى التي هي ملك صرف لجدي، إنها سرقة واغتصاب وإنه لأمر واضح للعيان. واكتشف جدي السرقة فأرسل شخصاً يستدعي محمود طيارة إليه. وكنت آنذاك مفصولاً من دار المعلمين العالية وكان الوقت شتاء عند المغرب وأنا جالس إزاء الموقد في المضيف أقرأ رواية الأم لمكسيم غوركي، وقد امتلأت نفسي حماساً. وحين أقبل محمود طيارة سأله جدي عن المساحي والمناجل وبقية العُدد، فأجابه الفلاح بكل صلافة: إنها ليست مناجيلك ولا مساحيك وإنما هي مناجلي ومساحيي أنا الفلاح. حينذاك هجم جدي بجسمه القوي على الفلاح وطرحه على التخت الخشبي، وأخذ يضربه بالخيزرانة. أتعرفون ماذا فعلت أنا؟ تظاهرت بأنني أحجز بين جدي وبين الفلاح، واستطعت أن انتزع الخيزرانة من يد جدي وأضعها في يد الفلاح، ثم أحرك يده، فلم يكن ليجرؤ هو على القيام بذلك حتى تضرب الخيزرانة جدي على عينيه.

لقد اعتبرت عملي هذا يومذاك بطولة من البطولات وانتصاراً للفلاح الكادح ـ وإن كان سارقاً ـ من الإقطاعي الحقير. وبعد، فهذه

هي الأخلاق الشيوعية التي هي أخلاق للشيوعيين في كل مكان وليست مقصورة على الشيوعيين في العراق. وسأروي للقراء في وقت قريب حوادث من هذا النوع مما شهدته في إيران أو ما قرأته في تلك الرواية الرائعة التي ألفها الكاتب الإنكليزي الكبير جورج اورويل وسماها (١٩٨٤) حيث تنبأ فيها بأن العالم ستكون فيه ثلاث حكومات شيوعية آنذاك تقتسمه فيما بينها ووصف لنا في قصته الحياة في بريطانيا تحت ظل الحكم الأحمر.



الحلقة الثامنة

العدد ١٤٤٨
التاريخ ٢٤/آب/١٩٥٩

عرضت عليك في مقال أمس نماذج من الأخلاق الشيوعية الرفيعة ووعدتك بان أعرض عليك نماذج أخرى. وهاك قصة حدثت لي في إيران، لتدرك منها أن أخلاق الشيوعيين واحدة في كل مكان، وأن الشيوعيين العراقيين لا ينفردون بالمخازي والجرائم التي كشفت أشهر الكابوس الأحمر في العراق لوحات عديدة منها.

كنت أنا وصديق عربي من عربستان، نتجول في ناحية من عبادان وكنا نحمل بأيدينا عدداً من الكتب الضخمة. ومر بنا كهل إيراني ينظر إلينا مستغرباً، ثم صاح: أغا، أراك تحمل كتباً، فهل تريد أن تصبح حماراً؟ فقلنا له: ماذا تقول؟ كيف نصبح من الحُمر المستنفرة؟ فقال: دعني أحدثكما. كان لي ثلاثة أبناء، وكانوا في غاية الأدب وكرم الأخلاق. وحين كبروا أرسلتهم إلى المدرسة. ولكن أخلاقهم بدأت تفسد يوماً بعد يوم. لقد علمتهم المدرسة وكتبها أن يصبحوا توديين شيوعيين، وها هم اليوم، وهم رجال يافعون، لا يحترمونني حتى أمام الغرباء ويتفوهون بالعبارات البذيئة أمامي.. بل.. أتصدقون إذا قلت لكما أنهم يجلدون عميرة أمامي؟

وقد غاظني هذا، فذهبت إلى مدير المدرسة قائلاً له: خذ حمرك واعطني أبنائي فقال: أي حمر وأي أبناء؟ فأجبته: كان لي ثلاثة أبناء هم درر فريدة في كرم الأخلاق، أرسلتهم إلى مدرستك فحولتهم إلى حمر. فخذ هذه الحمر وأعد إلي أبنائي.

حدث في صيف ذلك العام الذي قضيته في القرية مفصولاً أن شُنت حملة على العصبة الصهيونية المجرمة، فعطلت صحيفة العصبة، ثم منعت اجتماعاتهما، وأوقف رؤوسها. وكان بين أقطاب العصبة البارزين يهودي اسمه (نعيم طويق) أخذت الشرطة تطارده فأمره الحزب بأن يلجأ إلى قريتنا التي كانت يومذاك حصناً منيعاً من حصون الشيوعية. وجاءنا نعيم، فهيأنا له مكاناً في أحد بساتين النخيل، وكنا نقضي كثيراً من أوقاتنا في الجلوس معه والاستفادة من معلوماته في المادية الديالكتيكية والشؤون الحزبية.. وزعمنا لأبناء القرية أنه صديق من أصدقائي في دار المعلمين العالية وأن اسمه محمود وطال مكوثه لدينا، وكان يقضي معظم أوقاته جالساً يقرأ أو يتحدث، حتى أصيب بالدمامل في ردفيه. وذهبنا إلى المستوصف فاستحضرنا له محلول اليود وبعض القطن. وفي كوخ طيني في البساتين، كان الرفيق نعيم، يرفع دشداشته ويخلع لباسه الداخلي، وينحني أحدنا، أو يركع على ركبتيه ليداوي الردف اليهودي الشيوعي الكريم. وفي ذات يوم، جاء رفيقنا حمد إلى البستان على حين غرة، فرأى نعيم، وقد عرى ردفه في الكوخ، بينما أمسك عبد الدائم بالقطن في يمناه وراح يمر به على دمامله. ورسخت الصورة في ذهن رفيقنا الفلاح الساذج ولكنه لم يقل شيئاً.

وفي ذات ليلة عقدنا مجلساً من مجالس الطرب في بستان آخر

ودارت علينا الخمرة حتى سكرنا. غير أن رفيقنا عبد الدايم لم يكن معنا في ذلك المجلس، فقد مكث مع الرفيق نعيم يسامره ويشجعه في حمد فانطلق خياله. وتلفت يمنة ويسرة وتساءل: وأين دايمو؟ وهو يقصد عبد الدايم، فأجبناه: مع محمود. فقال حمد: طبعاً يبقى مع محمود، فهو أكثر إيناساً منا ومن مجالس خمرنا، فهو زوجته. تظنون أنني لا أعلم بما يجري؟ لقد رأيتهما منذ أيام في الكوخ. وكان دايمو يعبئ القطن في (....) محمود، طلاب.. تلاميذ، حزب التحرير - ويقصد حزب التحرر - إذا كنتم تفسدونهم بهذا الشكل، فمن الذي سيدافع عنا. لقد تعود محمود على عبد الدايم فأصبح لا يستطيع مفارقته أو الصبر عنه. أفما ترون أنه غادر القرية إلى البصرة منذ أيام فلم يمكث في البصرة سوى ساعات عاد بعدها إلينا؟ فلماذا؟ إنه يزعم أن الشرطة مازالت تبحث عنه. ولكن الحقيقة هي أنه اشتاق إلى دايمو وما يفعله به. سأذهب إلى محمود غداً وأضعه في زنبيل كبير وأحمله على ظهري إلى السوق، وعند موقف السيارات أرمي الزنبيل على الأرض وأصيح: دونكم إياه، واقبضوا عليه، واقبضوا عليّ معه فهو شيوعي وأنا شيوعي أيضاً. طلاب.. تلاميذ.. حزب التحرير.. من الذي سيدافع عنا؟

وانتهت العطلة الصيفية وانتهت معها مدة فصلي، فسافرت إلى بغداد، وكان أول عمل فعلته عند وصولي إليها أنني زرت الرفيق حسين الشبيبي الذي كان موقوفاً مع عدد من الرفاق في الموقف العام. إنني أتصوره الآن وهو يرتدي بيجاما حريرية ويحمل بيده علبة معدنية تحتوي خمسين سيكارة من سيكاير بلايزر الإنكليزية التي لا يشربها إلاّ المدللون.

كان الموقف جنة من الجنان، فقد زرتهم قبيل الظهر، ولما حان موعد الغداء تغديت معهم وأكلت من الأطعمة ما لم أذقه من قبل، وبعد الغداء راح حسين الشبيبي يسألني عن نشاطنا في البصرة وأبي الخصيب وزودني بنصائح وتعليمات لأسير على هديها الأحمر في دار المعلمين العالية وقال لي: لقد تخرج جاسم حمودي. فاستلم أنت مكانه في الدار.

إنني فرحت بهذه الثقة التي أولاني الرفيق حسين إياها، وجدت المهمة أكبر مما أستطيع الاضطلاع بها وبعد أيام اتصلت بالرفيق (يهودا صديق) أن ينتدب لهذه المسؤولية غيري، لأنني مفضوح كشيوعي، ولأن العمادة تراقبني وتضيق عليّ.

ومع أنني كنت لا أغيب عن اجتماع من اجتماعات خليتنا الشيوعية الطلابية، ولا يفوتني عدد من أعداد جريدة (القاعدة) ولا منشور من منشورات الحزب، فقد التزمت الهدوء الظاهري، غير تارك للعمادة أية ثغرة تنفذ منها إليّ.

وذات يوم، وكان يوم خميس، اتصل بي الرفاق الشيوعيون في الدار، وأنبأوني أن مظاهرة حزبية ستقوم يوم غد وطلبوا إلي المساهمة فيها. وأذكر الآن، بصورة باهتة، أننا جلسنا في مقهى صاحب على ضفة دجلة، ثم تجولنا في السوق المجاور لها، واشترينا حزماً كثيرة من الخيزران إذ كان ينبغي للمظاهرة أن تكون مسلحة بالعصي على الأقل.

وخرجت المظاهرة، وسارت قرب سينما الحمراء. وكانت خطتنا في التظاهر أن يحتشد عدد منا عند موقف الباص كما لو كانوا ينتظرونه حتى إذا جاء الباص ركضوا إزاءه كما لو كانوا ينوون الصعود

إليه. ثم ظلوا راكضين هاتفين بشعاراتهم حتى تنضم إليهم بقية الجماعات، وحينذاك تسير المظاهرة وترفع شعاراتها.

ونجحت الخطة وسارت المظاهرة وإن كانت الشرطة على علم سابق بها، بوقتها ومكانها. ولما كان الرفاق ينتوون الصمود في مظاهرتهم مهما حدث، فقد رأوا أن يحتضن الواحد منا الآخر، مزنجلاً يده بيده، كي لا يكون لأحد مجال للهرب فيضطر مكرهاً إلى الصمود.

وكنت في قرار نفسي صامداً، مقرراً أن (أموت تحت الراية الحمراء) كما يقول أحد الشعراء الشيوعيين، وما لبثت سيارة جيب من سيارات الشرطة أن أقبلت نحو المظاهرة من مؤخرتها فوجدت نفسي مبطوحاً على الأرض والدماء تجري من يدي، لقد فر رفاقي المتظاهرون كما تفر الأرانب المذعورة ولما كنت غير منتو (من النية) أن أهرب، فقد ظللت على وضعي مما جعل رفيقيّ عن يمين وشمال يجذبانني، فأسقط.

لقد اكتشفت منذ زمن بعيد أن الشيوعيين أجبن خلق الله. ولابد لهذا الجبن الشيوعي من سبب. إنني أفسر هذا الجبن بأن سببه إلحادهم وعدم إيمانهم بالبعث وبحياة أخرى غير هذه الحياة، ولهذا تصبح الحياة عزيزة عليهم، لأنها حياتهم الوحيدة. إن من يقرأ تاريخنا العربي يجد أن معركة فكرية عنيفة قد جرت بين الجبرية والقدرية من علماء المسلمين. فالجبرية يزعمون أن الأنسان قادر على التصرف بمصيره وأن في وسعه أن يتحاشى الموت والأذى. بينما يذهب القدرية إلى أن هناك أقداراً مكتوبة، وأن من تصل منيته لن ينجو منها وإن كان في بروج مشيدة. وحين انتصر القدرية ارتفعت الروح

المعنوية للجنود المسلمين. فصار الجندي يذهب إلى المعركة ويقتحم أهوالها دون خوف أو تردد، لأنه يعلم أنه لن يموت إلاّ إذا كان ذلك مقدراً له.

ونهضت من الأرض ونفضت التراب عن ملابسي فوجدت الرصيفين يغصان برجال الشرطة الذين كانوا يمسكون بتلابيب الرفاق المتراكضين هنا وهناك. وأخرجت سيكارة وضعتها بين شفتي ودسست يدي في جيبي لأخفي الدم السائل منهما. ثم سرت بكل هدوء واتزان ومررت برجال الشرطة فلم يكترثوا لي لأنهم لم يعتقدوا بأنني، وأنا الهادئ في مشيتي كنت من المتظاهرين.

ومررت بمعاون شرطة ضخم الجثة قصير القامة يقف على الرصيف ويحاول الامساك بكل متظاهر هارب يمر به. وسأله واحد من أبناء الشعب عما يريده هؤلاء المتظاهرين، فأجابه المعاون (ضابط شرطة): ما أدراني؟ إنهم يريدون أن يجيئوا بـ لينين وينصبوه ملكاً. ومع أنني ضحكت مما قاله يومذاك فإنني أدرك أنه كان على صواب فيما قال وإن عبر عنه تعبيراً ساذجاً.

فإن الذي يسعى إليه الشيوعيون في كل مكان ـ ما عدا الشيوعيين اليوغسلافيين ـ هو ربط بلادهم بالعجلة السوفيتية وإخضاعها لسادة الكرملين.

أفما أتاك حديث الجنرال السوفيتي الذي أصبح وزيراً للدفاع في حكومة بولندة الشيوعية؟!

إن الشيوعيين العراقيين يقلبون السماء على الأرض حين يأتي إلى بلادنا خبير أمريكي أو بريطاني بصناعة الجبن أو مكافحة الجراد. زاعمين أنه رسول الاستعمار وجاسوسه وأن مجيئه إلى بلادنا هو

انتقاص من سيادته. فماذا يقول الرفاق عن الجنرال الروسي الذي أصبح وزيراً للدفاع ـ ووزارة الدفاع مهمة للغاية كما يعلم الجميع ـ في الحكومة البولندية الشيوعية المفروض أنها حكومة مستقلة؟

إنهم يسمون ذلك تعاوناً بين الرفاق.. فهل رأيت مغالطة أوضح من هذه المغالطة؟ دعني أحدثك بشيء حدث هنا، في العراق لتدرك منه مدى أخلاص الشيوعيين لوطنهم لشعبهم.

في أوائل الثورة المباركة وبعد أن انتهجت جمهوريتنا الحرة سياسة الحياد الايجابي فتحت أمام المستورد العراقي كافة الأسواق في العالم كله، إلاّ إسرائيل طبعاً وإلاّ فرنسا التي تضطهد شعبنا العربي المكافح في الجزائر وإلاّ ايطاليا التي اتخذها اليهود، واليهود العراقيون بصورة خاصة، مركزاً تجارياً لهم.

وفرحنا بهذه الخطة الحكيمة، فهي تتيح للتاجر العراقي ومن ثم للمستهلك العراقي الحصول على أحسن البضائع بأرخص الأسعار.

وتقدم التجار بطلباتهم إلى مديرية التجارة العامة وراحوا يستوردون من أي مكان يجدون فيه البضاعة الجيدة بالسعر الرخيص.

وتقدم التجار بطلبات إلى مديرية التجارة العامة لاستيراد أقمشة قطنية من اليابان. فرفض الرفيق الذي لا أريد حتى أن أذكر الحرف الأول من اسمه والذي أعطى لنفسه ـ بكونه مناضلاً صلاحيات أكثر من صلاحيات المدير العام ـ أقول، رفض هذا الرفيق السماح لهم باستيراد الأقمشة القطنية من اليابان قائلاً لهم: إن اليابان بلد رجعي استعماري وإنهم إذا أرادوا الحصول على إجازات استيراد فعليهم بالاستيراد من الصين الشعبية.

وكان التجار قد اتصلوا بأسواق الصين قبل هذا، فوجدوا أن الأسعار اليابانية أقل من الأسعار الصينية كثيراً. وأطلعوا الرفيق ـ وهو مرتش فوق العادة ذلك ـ على العروض اليابانية وعلى العروض الصينية، وأروه أن الأسواق اليابانية أرخص وأن ذلك سيكون في صالح الشعب العراقي، هذا الشعب الذي يتباكى الرفاق الشرفاء على مصلحته. فأجاب أنه لا يكترث لذلك لأن الصين الشعبية بلد صديق ولأن الصين أيضاً اشترت كميات كبيرة من التمر العراقي بينما لم تشتر اليابان منه شيئاً، واضطر المستوردون إلى القبول بما أراده الرفيق. فحصلوا على إجازات الاستيراد التي لا يمكنهم استيراد شيء دون الحصول عليها. وطلب التجار البضائع من الصين، وصبروا بضعة أشهر حتى وصلت البضائع. ففرحوا بذلك. وحين فتحوا الصناديق وكشفوا الأقمشة القطنية، فوجدوا مكتوباً عليها ـ ميد إن جابان ـ إنها بضائع يابانية في الأصل. وقد اشترتها الصين من اليابان ثم باعتها على بعض العراقيين (القشامر) بعد أن ربحت عليها. قد تكون اليابان دولة استعمارية قذرة بينما الصين دولة اشتراكية شريفة صديقة، ولكن حين استوردنا تلك البضائع التي اشترتها الصين من اليابان وباعتها لنا بعد أن ربحت عليها، أفلا نكون قد استوردنا من اليابان، اليابان الدولة الاستعمارية اللدودة! كما يزعمون، بطريق غير مباشر؟

هذا نموذج من نماذج الوطنية الشيوعية عرضناها عليك، وبقي أن نعلق بشيء ما على الجبن الشيوعي، فقد تقول: إنك يا أخي كاذب. فالشيوعيون ليسوا جبناء. أفلم يقتلوا ويسحلوا ـ لا نوري السعيد وإنما المتآمرين الخونة ـ ويحرقوا وينهبوا. والجبان لا يجرؤ على قتل إنسان أو سحله. ألم يقتلوا الشيوخ والأطفال والنساء في كركوك وفي غير

كركوك. إن قتل طفل صغير يحتاج إلى قسوة في القلب لا يمكن أن يمتلكها جبان.

أنت محق فيما تقول يا أخي ولكن دعني أسالك، هل تقدم شيوعي بمفرده أو حتى عشرة من الشيوعيين نحو قومي متآمر وقتلوه؟ وهل تجرأ شيوعي بمفرده على أن يحرق داراً أو ينهبها. كان المئات أو الآلاف من الرفاق الشرفاء يجتمعون ليهجموا على مواطن أعزل أو طفل ضعيف كل ذنبه أن أباه ليس شيوعياً ليقتلوه أو يسحلوه.

وبعد، فإني عارض عليك نموذجاً آخر من نماذج الشجاعة الشيوعية حين أحدثك في إحدى الحلقات القادمة عن انتفاضة ١٩٥٢ وإحراق مركز الشرطة في منطقة باب الشيخ غداً.



الحلقة التاسعة

العدد ١٤٤٩

التاريخ ٢٥/آب/١٩٥٩

يتساءل كثير من القرّاء، لماذا لا أسلسل كتاباتي فأدون ذكرياتي عن مغامراتي الشيوعية حسب ترتيبها الزمني. وأجيب هؤلاء المتسائلين بأنه تحدث أحياناً بعض الحوادث الطارئة التي اضطر إلى تناولها قبل أن يكون أوانها قد فات. وأضرب منها مثلاً حادثة الوسيط الذي أرسله الشيوعيون أو إن أخي الشيوعي مصطفى هو الذي أرسله على الأقل. فإن تلك الحادثة فرضت عليَّ أن أتناولها في وقت حدوثها، فليس معقولاً أن أتحدث عنها بعد أسبوعين مثلاً، قائلاً أن الشيوعيين أرسلوا وسيطاً لي قبل أسبوعين.

ففي يوم السبت الماضي، طلعت علينا صحيفة وطنية! بمقال كتبه أخي مصطفى شاكر السياب عنوانه ـ أتهم أخي ـ ولقد قرأت ذلك المقال وأنا مشفق على كاتبه، أخي الأصغر. وقد وجدته ـ شأن كتابات الشيوعيين ـ مليئاً بالمغالطات. وتساءلت في نفسي: أيليق بي أن أرد على تلميذ في الصف الرابع الثانوي، لو أنني لم أُفصل من عملي، لكنت اليوم أستاذه؟ ثم وجدت أن هذا التلميذ الفاشل ليس

شخصاً اعتيادياً. فهناك رابطة تربطني به لا سبيل إلى نكرانها أو تناسيها. وهل هناك رابطة أقوى من رابطة الدم عند غير الشيوعيين على الأقل.

قال الكويتب بعد مقدمات أغرقها بدموعه وملأها بارتعاشات يديه، شأن الكتابات التي يكتبها المراهقون المتأثرون بـ عبرات المنفلوطي المغرقة في دموع العشاق والبائسين، إنه وجد نفسه في معركة حتمية فرضتها عليه وعليه أن يخوضها وإلى جانب القوى الوطنية!! - أي الشيوعية وهذا التفسير لي أنا وليس للكويتب - التي يتوقف على نجاحاتها - لاحظ هذه المجموعة المحببة إلى الشيوعيين نجاحات، نضالات وأضيف أنا إليها براءات -. مستقبلي وعيش أطفالي.

كأن ليس للفرد العراقي من مستقبل وليس لأطفاله من عيش إلاّ إذا انتصرت القوى الوطنية الحمراء وحققت نجاحاتها فساد النظام الشيوعي. إنني أخاطب الرفاق، فأقول: منذ أن تنبه حزبكم إلى أن من الواجب عليه أن يخوض المعركة في القرى والأرياف إلى جانب المدن التي كان كفاحه مقصوراً عليها، منذ ذلك الحين، وأنتم تمنون الفلاحين بأنكم ستوزعون عليهم الأرض.

وهاهو الزعيم العبقري - الزعيم وليس الحزب الشيوعي العراقي - يوزع الأرض على الفلاحين. فهل أن مستقبل الفلاحين وعيش أطفالهم غير مضمون بوجود الزعيم المنقذ الذي هو كما صرح مراراً فوق الميول والأحزاب إلاّ إذا جئتم أنتم للحكم فملك رفاقكم الكبار العمارات والسيارات وتزوجوا زيجات باذخة، كما نرى الآن؟

ثم يقول الكاتب النحرير: وللسياب مقالة على شكل اعتراف لا تزال محفوظة لدى إحدى صحفنا اليومية! تلقي ضوءاً على تحامله متى نشرت.

فما هي تلك المقالة، كما يصفها الأخ المحترم؟ التي هي على شكل اعتراف؟ لقد كنت أنوي أن أتحدث عنها متى حان أوانها حسب تسلسلها الزمني، ولكن الأخ الشيوعي قد اضطرني إلى التعجيل بالحديث عنها، وإليك قصتها:

بعد أن فصلت من عملي، أخذ شقيقي مصطفى يكثر من زياراته لي في البيت ويلقي عليَّ اللوم من أن كل ما أصابني هو من صنع يدي... وأن الوطنيين - وهو يعني الشيوعيين - لا يزالون يحبونني، وأن عزيز الحاج الذي كان صديقاً لي منذ أن كنا زميلين في دار المعلمين العالية، يحب أن يراني، وأن عزيز الحاج هذا يمتلك اليوم كثيراً من صفات الله تعالى، القادر القدير... فهو يستطيع أن يعيدني إلى عملي الذي فصلت منه بكلمة واحدة من عنده، بل إن مصطفى أبلغني بأن عزيز الحاج كان على رغبة في زيارتي وأنا موقوف. وكثر إلحاح مصطفى وتصويره للأمور بطريقة سحرية، كما كثر إلحاح النسوة في البيت حتى ضقت ذرعاً به فقلت في نفسي: لأذهب إلى عزيز الحاج وأجد ما يريد فلن أخسر شيئاً. وذهبت إلى إدارة جريدة - اتحاد الشعب - التي اتخذها الحزب الشيوعي العراقي مقراً علنياً له، فلم أجد عزيز الحاج هناك وإنما وجدت جمال الحيدري وحمزة سلمان وكلاهما صديق. واستقبلاني استقبالاً طيباً وأعلنا عن أسفهما على فصلي ثم قالا أن قضية فصلي ليس موضوع بحث الآن، وأن علينا الآن أن نبحث في قصة اختلافي مع الحزب الشيوعي، وأن من المستحسن أن أكتبها على ورقة ليدرساها ويدرسها الحزب ثم أخذ القرار النهائي. وتناولت ورقة ورحت أروي قصة - المومس العمياء - و - الأسلحة والأطفال - كما رويتها للقراء على صفحات هذه الجريدة.

وبعد أن قرأ جمال الحيدري ما كتبته قال إنه يصدق جميع ما قلت غير أنني لم أبين في هذه ـ المقالة ـ كما يسميها أخونا، خطأي. فأضفت إليها أن خطأي كان هو أنني قابلت هجوم الشيوعيين عليّ بهجوم مني عليهم، وشتائمهم بشتائم مثلها، وكان الواجب عليّ ـ كشيوعي ـ أن أسكت وإن نعتوني بالجاسوس وأستمر في كتابة القصائد التي تظهرني كديمقراطي صميم. هذه هي المقابلة التي راح الشيوعي الصغير يهدد بنشرها، ولا أرى فيها أي بأس.

ثم يقول الكاتب حفظه الله ووفقه حين يتقدم إلى الامتحان للحصول على شهادة الصف الخامس الثانوي: فلست بحاجة إلى فضح ما جاء به كاتب المقال من أكاذيب وحوادث نمقها بخيال شاعري، فالحوادث التي ذكرها وجعل من نفسه شاهد عيان لها ـ إن صحت هذه الافتراءات ـ فقد حدثت في أعوام لم يكن فيها الكاتب غير طفل يبكي متى ما ذكر الأطفال كلمة ـ بكى. بكى. بكى ـ وأظنه لا ينكر ذلك.

أرأيت العبقرية الشيوعية؟ إنني لا أتذكر فهد ومغامراته مع بلقيس ولادينيته وإلحادة، لأنني لم أكن غير طفل صغير. غير أن الرفيق مصطفى ـ الذي يصغرني بأربعة أعوام ـ يتذكر جيداً طبعاً أنني كنت طفلاً أبكي متى ما ذكر الأطفال كلمة ـ بكى. بكى. بكى ـ حيا الله الذاكرة الشيوعية. لا يعجب أحد لهذه المعجزة فالشيوعيون ـ كما دلت الحوادث ـ عباقرة وذوو ذاكرات قوية. فقد أصدروا ذات يوم منشوراً باركوا فيه إسقاط اليهود لجنسياتهم العراقية ونزوحهم إلى إسرائيل للخلاص من الاضطهاد ثم ما لبثوا بعد بضعة أيام ـ وكان الناس نسوا منشورهم الأول إذا كانوا هم وأعني الشيوعيين قد نسوه ـ

أن أصدروا منشوراً آخر شجبوا فيه الهجرة إلى إسرائيل، وقالوا أن على اليهود البقاء في أماكنهم وخوض النضال إلى جانب القوى الوطنية الشريفة!

إن كاتب المقال وضع أمام عينيه مرآة وراح ينقل منها تفاصيل صورته المنعكسة عليها، ثم ينسبها إليّ. فمن الذي أسرف في اللذة؟ إنني لا أريد أن أذكر ما يعرفه أخ عن أخيه، فليس من الصالح أن ننشر على الناس غسيلنا القذر.

ثم راح الكاتب شأن جميع الشيوعيين يحاول التمويه وخداع الزعيم البطل بأن الشيوعيين وحدهم هم المخلصون للجمهورية وأن سواهم من قوميين واستقلاليين وآخرين، خونة متآمرين. كأن مجزرة كركوك وحادثة بعقوبة وحوادث السليمانية وسواها من الحوادث التي وقعت هنا وهناك لم تكن كافية لكي يدرك الزعيم العبقري منها ويدرك الشعب معه مدى إخلاص الشيوعيين له وللوطن.

ثم يقول الكويتب عني: حتى وجد في أحضان الحركة الوطنية الأم التي افتقدها واليد التي تنتعشه من الشعور بالنقص الذي برز في نفسه خلال حياة الطفولة.

من هو المبتلى بالشعور بالنقص أيها ـ الكشكول ـ وهذا هو اللقب الذي كنا نطلقه عليه يوم كان طفلاً وكان يبكي لسماعة أشد البكاء.

لقد ماتت أمك وأنت طفل رضيع عليل فنشأت محروماً من عطف الأم تبكي لكل لوم ـ لا نهرة ـ يوجه إليك، مفكر بأنك ما كنت لتلقى هذا اللوم لو كانت أمك موجودة. وكان رأسك وما يزال وإن أخفاه الشعر الآن طويلاً فكنا نعيرك بذلك حتى تبكي. وكان الخدم

والفلاحون وأهل القرية جميعاً ينادونك بهذا اللقب المحبب إليهم وهو ـ أبو راس الطويل ـ.

فأي هو الذي يمكن أن يبتلى بالشعور بالنقص؟ الأخ الأكبر الذي ليس أعور ولا أعرج ولا مصاباً بأية عاهة؟ أم الطفل الصغير العليل الذي ماتت أمه، والمبتلى برأس طويل؟!

لقد كنت أنا طفلاً صغيراً فليس معقولاً كما تزعم أن أتذكر الحزب اللاديني وأعماله. أما أنت الذي تصغرني بسنوات أربع فتتذكره جيداً لأنك قلت متحدثاً عن هذه الأشياء ـ فهذا ما سأتطرق إليه في المستقبل ليرى القارئ الكريم الفرق بين ادعاء مسموم وقول بريء ـ ستكون معلوماتك دقيقة مضبوطة لأنك تتذكر جيداً، فمرحى بك أيها المسكين ومرحى بالعبقرية الشيوعية.

إنني أنصحك بأن تنصرف إلى الدراسة لتستطيع المشاركة في امتحان البكالوريا للصف الخامس الثانوي والنجاح فيه يامصحح التاريخ، ولك مني ألف سلام.



الحلقة العاشرة

العدد ١٤٥٠
التاريخ ٢٦/آب/١٩٥٩

لا أتذكر من حادث مهم بين المظاهرة التي حدثتك بحديثها وكشفت لك عن (شجاعة) الرفاق الملحدين فيها وبين وثبة كانون وما بعدها من شهور الانتعاش الشيوعي الصهيوني، من حادث مهم إلاّ إلقاء القبض على الرفيق (الخالد) فهد.

ففي العصر في يوم من أيام عام ١٩٤٦ وكنت قاصداً أحد المقاهي، سمعت بالنبأ المشؤوم آنذاك. كنت قريباً من المقهى المقابل لوزارة الدفاع، فسمعت رجلين يتحدثان بذلك، وعلق أحدهما قائلاً: (الكذا ابن الكذا.. سنوات عديدة وهم يبحثون عنه ويحاولون إلقاء القبض عليه. الحمد لله، فسوف نعيش في أمان بعد اعتقاله). ولقد ملأني الغيظ مما قاله ذلك (الرجعي) القذر (عميل الاستعمار).

إن لاعتقال فهد قصة طريفة أرى لزاماً علي أن أسردها لأنها تلقي ضوءاً كشافاً على (الأخلاق) الشيوعية، وترينا صفحات سوداً من تاريخ الحزب العميل وأقطابه. إنها قصة كان بطلها الرفيق حسين الشبيبي. وقبل أن أرويها لابد لي من رواية قصتين عن هذا البطل الهمام تكشفان جوانب من شخصيته الفذة.

ففي عام ١٩٤٥ على ما أتذكر أصدر حسين الشبيبي كتاباً أعتقد إنه كان عن الجبهة الوطنية الموحدة. وكان حسين عضواً في الحزب الشيوعي العراقي، المفروض فيه أنه حزب سري، والمفروض في قادته أن يتكتموا ولا يخلّفوا وراءهم أثراً يكشف عنهم، من خط أو صورة. ولكن الرفيق حسين يريد أن يشتهر، يريد أن يعرفه الناس أو (الشرفاء) منهم على الأقل. يريد أن يسير في شارع الرشيد فيقابله العشرات من الناس بالتحايا. إن أحسن طريقة للتعريف بشخصه هي أن ينشر صورته على الملأ، حتى إذا مر بهم عرفوه وسلموا عليه، وقالوا (هذا هو المناضل العظيم).

وهكذا كان، فنشر صورته الكريمة على غلاف ذلك الكتاب وكان أخوه محمد علي الذي استطاع حسين أن يبلشفه، يشبهه كل الشبه. وحين افتضح أمر محمد علي وارتكب بعض ما يوجب إلقاء القبض عليه، راحت الشرطة تطارده في كل أنحاء العراق. ولم يكن لدى الشرطة من دليل يسترشدون به لمعرفة محمد علي إذا رأوه، غير صورة أخيه حسين المنشورة في ذلك الكتاب (الوطني)، فكنت ترى أفراد الشرطة السرية والعلنية يحملون بأيديهم نسخاً من الكتاب المشؤوم، ناظرين إلى الصورة التي في غلافه وإلى وجوه العابرين.

تلك هي القصة الأولى، أما الثانية فأدهى وأمر كما يقول القائلون. من المعروف جيداً لدى الناس أن هناك مطعنين اثنين يوجهان إلى الشيوعية والشيوعيين في كل مكان وزمان هما: إن الشيوعي ملحد وإباحي، فكان الأجدر بالشيوعيين أو بقادة الشيوعيين على الأقل أن يبتعدوا ما وسعهم عن الجنس وفضائحه وألاّ يتطرقوا إلى ما يمس بالأديان. لكنهم، على العكس مما كان متوقعاً، اغرقوا في ابتذالهم

الجنسي حتى أصبحت تستطيع أن تمسك بتلابيب أية فتاة أو امرأة شيوعية، ثم تهتف: تعالوا إليها فإنها رديئة الأخلاق.

بعد أن صدر حكم الإعدام على الرفاق (الخالدين) فهد وحسين الشبيبي وزكي نسيم ويهودا صديق وحان موعد تنفيذه، أرسلوا إلى كل واحد منهم برجل من رجال الدين، بشيخ للمسلم وبقسيس للمسيحي وبحاخام لليهودي، ليباركه ويذكره بربه وبالعالم الآخر ويعدّه لاستقبال الموت. وحين جاء الشيخ إلى حسين الشبيبي في الليلة التي أُعدم في فجرها طرده شر طرده وأهانه وقال له (إنني شيوعي، والشيوعي لا يؤمن بالله) فمرحى بالرفاق.. الخالدين منهم وغير الخالدين.

والآن نعود إلى قصتنا الأصلية وبطلها، كما قلنا الرفيق حسين الشبيبي نفسه.

في عام ١٩٤٥ حين برز وجه الحزب الشيوعي العراقي المكشوف الذي سمى نفسه حزب التحرر الوطني وكان حسين الشبيبي من أبرز قادته ومؤسسيه، انتمى إليه الآلاف من الناس، ذوي النيات الحسنة الذين رأوا في برنامجه روحاً وطنية تقدمية، غير عالمين بأنه ابن من أبناء الحزب الشيوعي الذي اعتاد أن ينجب نقابات العمال واتحادات الطلبة والجمعيات الفلاحية ونقابات المعلمين وسواها من المؤسسات (الديمو... قراطية) التي رأينا أمثالها منذ قيام الثورة ولمسنا سيطرة الحزب الشيوعي العراقي عليها سيطرة جعلتها تحيد عن أهدافها الأصلية وتتسم بالحزبية الضيقة مما حدا بالكثيرين من منتسبيها إلى الانسحاب منها بعد أن اتضحت لهم حقيقتها التي هي عدوة للحقيقة.

وكان بين المنتمين إلى الحزب شاب اسمه عبد الوهاب، وأخته المسماة (خ)، وكان أبوهما قصاباً في ناحية من نواحي بغداد. وكان

الأخ وأخته من أشد أعضاء حزب التحرر حماساً، كانا يشتركان في جميع المظاهرات والاحتفالات وحملات جمع التبرعات وما أشبه، حتى برز اسماهما بيننا جميعاً نحن أعضاء حزب التحرر الوطني ومؤيديه. وقد سمعت وأنا في البصرة باسم الأخ وأخته، ورويت لي قصص عن بطولتهما النادرة. وحين كان حسين الشبيبي أو أحد الرفاق الكبار يوقف، كان القصاب ينتقي من اللحم أطايبه، وبعد أن تطبخه ابنته (خ) بيدها، تحمله على رأسها إلى الموقف ليأكله الرفاق.

وخرج أحدهم من الموقف فوجد الشرطة تلاحقه وتشدد عليه الخناق. كان لا يستطيع أن يستأجر داراً يسكن فيها، لأن الشرطة حينذاك ستعتبرها وكراً من الأوكار الشيوعية، فتشدد عليها المراقبة وتكبسها مرة بعد مرة. وهو، إذا نزل في فندق لقى من مضايقة الشرطة له وتضييقهم الخناق عليه ما يجعل حياته جحيماً. وحار في أمره، فأنجده القصاب أبو عبد الوهاب، ودعاه إلى السكن في بيته، وأفرد له غرفة قائلاً: (إن البيت بيتك، وهذا وهاب أخوك وهذه (خ) أختك). وكانت (خ) فتاة جميلة في رونق الصبى فاشتهاها الرفيق. وبحجة تثقيفها حزبياً بدأ يغزو قلبها وجسمها. حتى جاء يوم استطاع فيه أن يقضي مأربه منها. واحتج بحجة ما ونقل أمتعته من دار أبيها إلى مكان آخر.

وحملت الفتاة، فلاحظ أبوها وأخوها انتفاخ بطنها، فسألاها عن الشخص الذي اعتدى عليها، وحين أجابت بأنه الرفيق لم يصدقاها، وشددا عليها، فأصرت على أنه الرفيق المذكور. فقالا أن المسألة بسيطة وسنحدث الرفيق بالأمر، ونقنعه بالزواج منك فنخنق الفضيحة في مهدها، وقابل الأب وابنه الرفيق المذكور ونصحاه بأن يتزوج (خ)

فيجنبها الفضيحة. فقال لافض فوه.. وإن كان الدود والتراب فضاه: (لا أريد أن أظلمها بالزواج منها. إنني أقضي يوماً واحداً من عمري في الخارج وأقضي عشرين يوماً في الموقف، وربما سجنت سنوات عديدة. ثم إنني دون عمل أعيلها منه..). فأجابه الأب المفجوع: إننا لانريد شيئاً سوى الستر وخنق الفضيحة، إنني مستعد لإعالتها وإعالتك أنت معها. ولكن الرفيق (الخالد) تمسك برفضه.

واحتكم الأب وابنه إلى الرفيق فهد، وحدثاه بالأمر قائلين: إننا نعيش في منطقة محافظة متمسكة بتقاليدها، فإذا حملت ابنتنا سفاحاً ثم وضعت مولودها لم نعد قادرين على مواجهة الناس أو على العيش معهم.

وتحدث فهد مع الرفيق المذكور في هذا الأمر ونصحه بالزواج من الفتاة، فأجابه الرفيق: رفيق.. هناك أشياء كثيرة لا نقرّها ولكن المجتمع يؤمن بها أشد الأيمان بحيث نضطر إلى مجاراته في موقفه منها وإلاّ أصابنا الأذى. من ذلك أننا لا نؤمن بالله وبالأديان، ولكننا لا نستطيع أن نقف في باب المسجد ونصرخ - أيها الناس لا تصلوا فليس هناك من إله ولا بعث ولا آخرة ولا جنة ولا نار. ومع أننا لا نؤمن بالفروق الدينية ولا المذهبية، فإنها تفرض نفسها علينا. إنني من طائفة و(خ) من طائفة. وإن أبي يؤدي بعض الطقوس الدينية ويتقاضى عنها أجراً. فإذا تزوجت أنا امرأة من الطائفة الأخرى، امتنع الناس عن استئجاره، فمات جوعاً ولحق مركزنا الاجتماعي ضرر كبير.

وأخبر فهد أبا الفتاة وأخاها بما قاله الرفيق وجلس الأب وابنه يتدبران الأمر. ما الذي سيفعلان والفضيحة وشيكة الوقوع؟ وإذا حلت بهما الفضيحة فما قيمة الحياة؟ الموت أولى حينذاك، وقررا أن يقتلا

الفتاة ويدفنا عارها معها. وفي ليلة حالكة الظلام قتل القصاب وابنه الفتاة المسكينة ودفناها. وظلا خائفين أن يفتضح أمرهما فيسجنا أو يعدما. وخطرت للابن خاطرة تحقق له الانتقام من لص الأعراض الدنيء الذي جازى إحسانهم وما أكله من زاد وملح في بيتهم بالإساءة إليهم، كما تحقق له النجاة بحياته وحياة أبيه من حبل المشنقة أو السجن الرهيب.

وذهب عبد الوهاب إلى مديرية التحقيقات الجنائية. وتعجب الشرطة والمفوضون والمعاونون من سعيهم إليهم وتساهلوا عما يريد. فأبلغهم بأنه موفد من قبل صديق له، وأن هذا الصديق مستعد لأن يدلهم على مخبأ فهد، ولكن بشرط واحد، وحين سألوه عن ذلك الشرط أخبرهم أن صديقه هذا قد ارتكب جريمة، وأنه لن يدلهم على فهد إلاّ إذا تعهدوا له بأنه لن يعاقب على جريمته.

وتعهد له المسؤولون في مديرية التحقيقات بأن صديقه إذا ما دلهم على فهد فلن يعاقب حتى ولو كانت جريمته جريمة قتل. لأنه يكون قد ارتكب جريمة قتل إنسان واحد، بينما يدلهم على مجرم يحاول أن يقتل الملايين السبعة من العراقيين إذا قدر له النجاح. وأخبرهم عبد الوهاب بأنه هو الذي سيدلهم على مخبأ الفار، وأنه قد قتل أخته لأن أحد الرفاق قد زنى بها. وهكذا أُلقي القبض على فهد في سبيل لذّات الرفيق المذكور. لقد اشترط المسؤولون في التحقيقات على عبد الوهاب أن يغادر العراق لئلاّ يقول الناس أنهم سكتوا عنه مع إنه قد قتل أخته. وقد لقيته وأنا هارب في إيران فحدثني بقصته الدامية والدموع تملأ عينيه.

إن الشيوعيين العراقيين ينكرون هذه القصة اليوم، بل إنهم يزعمون

لك أن (خ) ماتزال حية ترزق، وأنها قد تزوجت ورزقت بأطفال، فإذا بلغوا من حديثهم هذا الحد، فاطلب إليهم أن يدلوك على منزلها وعلى دكان والدها القصاب، ثم اذهب إلى القصاب وقل له، إنني ابن خال فلان زوج ابنتك فلانة وقد أرسلني إليك طلباً أن ترسل معي (معلاقاً) إليه. أفعل هذا لتدرك صدق الشيوعيين (الصادقين). وليس هذه إلاّ بعض مخازيهم العديدة والتي مانعت جريدة (الحرية) في نشر الكثير منها، لأن مستواها أعلى من هذا (الأدب المكشوف).



الحلقة الحادية عشرة

العدد ١٤٥١

التاريخ ٢٧/آب/١٩٥٩

حملت إلي رسائل الأهل والأصدقاء من البصرة أنباء تقول إن كتاباتي قد أزعجت الشيوعيين هناك وأفقدتهم أعصابهم وإنهم راحوا يلفقون الإخباريات الكاذبة عني للحيلولة دون عودتي إلى الوظيفة وقد كانوا هم سبب فصلي منها، وأنباء تقول أن (لتفينوف) قد أقام الدعوى عليّ مستنداً إلى مادة قانونية تعطيه الحق إذا كنت قد نسبت إليه أموراً لو صحت لأوجبت احتقاره بين الناس.

واستعرضت ما كتبته عنه فلم أجد فيه شيئاً ماساً بشخصه الكريم، إذ إنني لم أقل أنه أحرق كوخه في القرية مدعياً بأن القوميين المتآمرين هم الذين أحرقوه، وأنه جُمع من التبرعات له ثلثمائة دينار.. بينما لا تساوي أغراضه التي احترقت أكثر من خمسين ديناراً. ولم أقل أنه يجمع التبرعات للحزب الشيوعي ويسلخ جلود الفلاحين سلخاً في سبيل جمعها، ناثراً الوعود هنا وهناك بأنهم، الشيوعيون سوف يعطون هذا الفلاح البستان الفلاني وذاك الفلاح البستان الفلاني الآخر. حتى إذا جمع عشرة دنانير أو أكثر لم يصل إلى الحزب منها سوى دينار

واحد أو نحو ذلك مدعياً بأن الفلاحين فقراء وأنهم لا يملكون ما يتبرعون به.

لم أقل شيئاً من هذا كله، لقد قلت أنه كان عضواً في الحزب الشيوعي اللاديني وأنه طلب إلى رفاقه في الحزب أن يسموه (لتفينوف)، وأنه الآن معتمد الحزب الشيوعي في أبي الخصيب، وعندي شهود من الناس الذين كانوا لادينيين ثم أدركوا سخف هذه الدعوى. فليقم لتفينوف الدعوى عليّ، فإن ذلك اعتراف منه وهو الشيوعي بأن اتهامه بالشيوعية يوجب احتقار الناس لهم ولحزبهم العميل المأجور ولمذهبهم الإلحادي.

إنني لم أقل عنه شيئاً يمس من قدره. لم أقل مثلاً أنه يوم اندحار فرنسا جلس يبكي في ساحة القرية (أهي.. أهي.. انكسرت فرانسة) وحين سأله العابرون عن سبب بكائه على فرنسا أجابهم بأن زوج أخته الحاج (...) وهو تاجر من تجار التمور، كان يبيع على فرنسا. ولم أقل أن الحزب الشيوعي أرسل محسن ملاّ علي الذي كان قد حكم غيابياً ونجا من قبضة الشرطة إلى قرية جيكور ليعيش في بستان تملكه عائلة لتفينوف وكان الحزب يدفع للتفينوف نفقات محسن. وكنا نسميه في القرية ـ الحجي ـ، ثم افتضح أمره وصارت الشرطة تبحث عنه في القرية ذاتها، فقرر مغادرة القرية ـ الكلام عن محسن طبعاً ـ إلى مكان آخر.

وفي إحدى الليالي، وكانت ليلة العاشر من محرم، جاءتنا زوجة لتيفينوف وهي تلطم صدرها وتبكي على الحسين، وكان يرافقها ابنها الصغير أحمد الذي لا يزيد عمره على سبع سنوات. وكنت مضطجعاً على سريري دون نوم، ووقف أحمد إلى جانبي وأطلق آهة حرى ثم

قال ـ مسكين الحجي. . سوف يذهب. . وفي يوم الأحد سيروح أبي إلى البصرة ليتصل بالحزب.

لم أقل شيئاً من هذا، ولم أقل أنه سافر إلى بغداد ليحضر مؤتمراً من مؤتمرات الحزب الشيوعي، وكنت في ذلك الحين من أتباع (راية الشغيلة) التي كان الحيدري يتولى رئاستها، بينما كان لتفينوف من أتباع القاعدة والرفيق باسم، وكانوا يسموننا جواسيس ونسميهم نحن كذلك. وعاد لتفينوف من بغداد، وفي مساء يوم كنا فيه عائدين من السوق إلى القرية، راح لتفينوف يحدثني أنا المفروض أنني شغيلي جاسوس عما صادفه في بغداد. قال أنهم جلسوا في المقهى القريبة من دار الإذاعة ثم توجهوا إلى قصر أصفر اللون في المكان الفلاني، حيث عقدوا مؤتمرهم الشيوعي. لم أقل شيئاً من هذا كله أيها الرفيق العزيز لتفينوف، فعلام دعواك، ألأنني أهنتك ومسست شرفك حين قلت إنك شيوعي؟ إذا كان الأمر كذلك، فأنا على استعداد للتعويض عليك بما يحكم به القضاء.

ومن الحوادث الأخرى التي تصرفني عن الاسترسال في الذكريات، رسالة تلقيتها من أخي في البصرة يلومني فيها على كتاباتي عن الشيوعيين ويسألني: ما هي الغاية منها؟ إنها لن تؤثر على الشيوعيين. إذا كانت هذه الحقائق التي أرويها لا تؤثر على الشيوعيين، فلماذا ينزعجون منها إلى حد الجنون، إلى حد أنهم أهدروا دمي وقالوا أنهم سيقتلونني وسيبقى قاتلي مجهولاً؟

إن أخي يسألني، لماذا لا أفكر به وبمستقبل أطفاله؟ وهنا العلة التي دفعت كثيراً من الناس إلى التظاهر بالشيوعية خوفاً على مستقبلهم ومستقبل أطفالهم.

أيتصور هؤلاء الخائفون أن عراق عبد الكريم قاسم سوف يصبح شيوعياً بحيث يعاقب فيه لا كل من كتب عن الشيوعيين فقط وإنما حتى أخوته وأهله؟ لا تخافوا أيها الأصدقاء فلن يصبح العراق شيوعياً. إن السياسة التقدمية الحكيمة التي يتبعها زعيمنا الأوحد، هي خير ضمان بأن الشيوعية لن تجد لها مكاناً مناسباً في العراق. إن الفلاح بعد أن وزعت الأرض عليه بموجب قانون الإصلاح الزراعي لن يجد في الشيوعية ما يغريه. كانوا في السابق يعدونه بأن الحزب الشيوعي متى جاء إلى الحكم أعطى الأرض إلى الفلاحين. والآن وقد نال الفلاح أرضه فبأي شيء يعدونه؟ بقصر منيف؟ أم بماكنة؟ أم بزوجة من المعلمات أو بنات المدارس؟

والعامل أيضاً نال حقوقه في عهد الزعيم الأمين، فقد ارتفعت أجوره، وشرعت القوانين التي تضمن حقوقه. فبأي شيء يعده الشيوعيين؟ أأنهم يجعلونه وزيراً، حسناً، إن هناك الآلاف من العمال، فهل سيصبحون وزراء جميعاً؟ أم أن وعودهم له كوعودهم لذلك الفلاح الذي سأروي قصته، لقد وعدوه بأن الحزب الشيوعي متى جاء إلى الحكم فسيعطي لكل شخص قصراً يسكنه وخادماً يخدمه، وعند ذاك صاح بهم الفلاح الذكي قائلاً ـ إنكم تكذبون. وسألوه ـ وكيف نكذب؟ فقال ـ إذا كنتم ستعطون لكل إنسان خادماً فسيبلغ عدد هؤلاء الخدم بضعة ملايين، فمن أين ستأتون بهؤلاء الخدم؟ من أبناء العراق؟

حسناً، ولماذا تصبح هذه الملايين خدماً وهي أبناء الشعب الذي وعدتموه بأن تعطوه الخدم والقصور. تلك هي وعود الشيوعيين. إن ما حدث في (كيرالا) وهي قريبة منا، يعطينا مثالاً واضحاً عن الحكم

الشيوعي ولو أن كيرالا كانت في أوربا الشرقية، لما أتضح فيها ما أتضح من تفكك وانخفاض في مستوى العيش ومستوى الإنتاج.

إن أشهر الكابوس الأحمر كانت على قصرها درساً عرف منه الشعب الكريم ما هي الشيوعية وما هم الشيوعيون ومن يكونون. فلو أنهم نجحوا فيما يطمحون إليه وتأسست دولتهم الشيوعية لازدادت الحالة سوءاً بمائة ضعف أو أكثر.

لقد نشرت جريدة اتحاد الشعب الشيوعية منذ أيام مقالاً قالت فيه، إن ثورة ١٤/تموز ثورة برجوازية. فهل أدرك المسؤولون ما وراء هذا القول؟ إنه يعني أن لابد من ثورة أخرى، ثورة بروليتارية معاكسة لهذه الثورة البرجوازية. تماماً كما حدث في روسيا بعد الثورة البرجوازية التي طوحت بحكم القياصرة، وجاء لينين وقام بثورته البلشفية ضد الحكومة البرجوازية.

لقد ظهر جلياً خلال الأشهر الماضية أن هذا هو حلم الشيوعيين. إن المؤامرات الشيوعية والمخططات والخرائط والأسلحة والأموال التي ضبطت كانت تمهيداً للقيام بهذه الثورة البروليتارية. وبعد ذلك لا يخجل الشيوعيون من الادعاء بأنهم وطنيون مخلصون للجمهورية الخالدة.

ولولا سمو أخلاق جريدة الحرية وارتفاع مستواها لفضحتكم فضائح لن تغطى بغطاء لكشف القناع عن حقيقة أخلاق الشاعرة التي أصبحت رفيقة. ولتحدثت عن ذلك الرفيق الكبير الذي كان منظم بغداد الذي مكثت في بيته شهرين كاملين. كانت لدى هذا الرفيق غرفة أعدها للاجتماعات التنظيمية، ولكنه لم يكن يجتمع إلاّ بالنساء، الآنسات، وكان يغلق باب الغرفة من الداخل بالمزلاج كلما اجتمع

بواحدة منهن، زاعماً بأنهما يتحدثان بأشياء سرية للغاية فلابد من الحيطة. ولقد دفعني الفضول والشك ذات يوم إلى التطلع من ثقب المفتاح في باب الغرفة. فماذا رأيت؟ إنك أيها القارئ العزيز تدرك ما الذي رأيته، فإن هذه (التناحية) من أخلاق الشيوعيين والشيوعيات أصبحت مكشوفة ولا تحتاج إلى فضائح جديدة تثبتها.

حدثني شخص هو اليوم رفيق منكم عن أشياء شاهدها يوم كان سجيناً. لقد كانت الأوامر الحزبية تأتي إلى بعض الشبان الذين يمتازون بالجمال، بأن يرفهوا عن رفاقهم فكانوا يستجيبون لأوامر الحزب العظيم. تلك هي أخلاقكم وإنني أدعوا اليوم بعض الأخوة الذين انخدعوا بكم حيناً من الزمن ثم أدركوا حقيقتكم، إنني أدعوا هؤلاء إلى فضحكم فإنهم يؤدون بهذا خدمة وطنية جلى. إنني أدعو الدكتورة عدوية محمود أديب التي رأت وهي في سجنها، في سجن النساء، نماذج من أخلاق الشيوعيات الرفيعة. أسألوها لماذا انشقت عليكم، لماذا انشق عليكم الآخرون؟

يسألني أخي: ما الغاية من هذه الكتابات؟ فأجيبه، إننا في حرب عقائدية مع الشيوعيين، إن الخطر الشيوعي لا يقل عن خطر الاستعمار القذر. وقد كان في وسعنا أن نتخلص من الاستعمار وجواسيسه وعملائه الخونة، كنوري السعيد ورهطه، ومن أحلافه كحلف بغداد مثلاً، فإننا لن نستطيع الخلاص من الكابوس الشيوعي والسيطرة الشيوعية إذا ابتلينا بها. إننا في جهاد ندافع فيه عن قوميتنا وديننا وتقاليدنا وتراثنا، ندافع فيه عن استقلالنا وكياننا، فإلى التكاتف والاتحاد يا أعداء الشيوعية، من كل فئة وكل دين وكل قومية.

الحلقة الثانية عشرة

العدد ١٤٥٢

التاريخ ٢٨/آب/١٩٥٩

لا أريد أن أعيد الحديث عن شيء يعرفه الناس جميعاً. فكلنا يتذكر وثبة كانون المجيدة ويعرف أن القوى الوطنية جميعها بل الشعب كله هو الذي قام بها ولعل دور الشيوعيين فيها كان أتفه الأدوار. ولكنهم بعد النصر الساحق الذي حازه الشعب نسبوا إلى أنفسهم كل أمجاد الوثبة وبطولاتها. لقد ادعوا بكل شهيد لا ينتمي إلى حزب معين قائلين أنه كان شيوعياً، حتى دحام الحمال الشيخ الذي استشهد لا دفاعاً عن الحزب الشيوعي العراقي ومبادئه وإنما ساقه الشعور الوطني والحس الديني، واعتبر قيامه على الاستعمار وعملائه جهاداً في سبيل الله. أوما رأيت إلى الشيوعيين كيف دعوا بثورة تموز ونسبوها إلى أنفسهم بينما كان الحزب الشيوعي العراقي، الحزب الوحيد الذي لم يرافق الحركة المباركة ولم يتصل بمنجزها المقدام.

كان القائمون بهذه الثورة من أبناء الشعب، وكانوا يعرفون جيداً تاريخ الحزب العميل المملوء بالاعترافات والخيانات، فلم يكونوا ليأمنوا على أنفسهم من إشراك هذا الحزب الخائن في أسرار الثورة

الخطيرة. إنهم لو فعلوا ذلك لوصلت أنباء ثورتهم المرتقبة إلى التحقيقات الجنائية حتماً.

لقد أرسل الزعيم في حينه مندوباً إلى الحزب الشيوعي يسأله عن معتمدهم في الجيش لإشراكه في النضال من أجل الثورة. فذكروا اسم ذلك المعتمد، وكان ضابطاً خسيساً، لو أشركته الثورة في نضالها لأصابتها وصمة من ذلك، ولهبطت قيمتها في أعين الجنود.

أيعلم القارئ، أن قطباً من أقطاب الحزب الشيوعي العراقي كان وكيلاً في التحقيقات الجنائية، يتقاضى راتباً تافهاً لقاء بيع ضميره؟ إن كان لا يعلم، فليعلم الآن.

نشط حزبنا الشيوعي بعد أن أطلقت الحريات. فكانت مظاهراتنا تملأ الشوارع، حتى ينقطع السير والمرور فيها. وضجر الناس من هذا كله. ولكن الحزب الشيوعي كان يريد أن يعرض قوته على الناس. كنا نجتذب الكناسين والحمالين والمجرمين من نشالين وسواهم إلى صفوفنا بوعود معسولة نبذلها لهم. كنا نمنيهم بالقصور والآنسات الحور. ونجحنا في ذلك أيما نجاح. وأقام جماعة من أهالي الكرادة حفلة تأبينية لشهداء الوثبة، وقد دُعيت للمساهمة في تلك الحفلة. لم يكونوا ليعرفوا أنني شيوعي، وكذلك شأن محمد شرارة الذي دُعي إليها دون أن يعلم الداعون أنه شيوعي.

إن من يقرأ قصيدتي في تلك الحفلة وخطاب محمد شرارة فيها، يلحظ الخط الشعوبي الشيوعي واضحاً فيهما، فقد جاء في قصيدتي تلك:

ما زال يملأ مسمع الأحقاب

ذاك الهدير من الدم المنساب

يـعـلـو فـيـرتـجـف الـطـغـاة وتـحـمـى

أسـطـورة الأحـسـاب والأنـسـاب

ما علاقة الأحساب والأنساب بوثبة الشعب على ظالميه؟ إنها الشعوبية التي يغيظها ويمزق أعصابها أن يقول العربي أنه عربي. أما كلمة محمد شرارة فقد كانت كلها مخصصة للهجوم على الحجاج، هذا البطل الذي أراد أن يحمي الكوفة من الغزو الفارسي الشعوبي والذي وضع نظاماً خالداً أن لا يدخل الكوفة إلاّ عربي.

مساكين هم العرب. لقد أحسنوا إلى الأمم المغلوبة، ولكن أبناء تلك الأمم ظلوا حتى اليوم وبعد مرور ألف وثلثمائة عام أو أكثر يضمرون الحقد للعرب، ألم يجعل العرب من الفرس وزراء وحكاماً بل وأئمة وفقهاء يقلدهم المسلمون العرب؟ وهذه العوائل الفارسية والهندية والأفغانية التي نزحت إلى العراق وسكنت فيها، ألم يصبح أبناؤها من البارزين في كل مكان؟

إننا لا نعير أحداً بأصله إذا كان يخلص لهذه الأمة التي يعيش في بلادها ويتكلم لغتها ويشعر بأنه واحد منها. ولكننا نذكر أبناء الأمم الأخرى الذين تؤويهم البلاد العربية وتمنحهم خيراتها، ثم يكيدون للعرب والعروبة. فنذكرهم بأنكم أيها السادة تكرهون أمتنا وتناصبونها العداء لأنكم لستم منها، لأنكم لازلتم تتعصبون لدمكم غير العربي.

في تلك الأيام برزت النعرات الشعوبية بشكل واضح ونشط. الأخوان اليهود، فقد كانوا على علم سابق بقيام دولتهم اللقيطة إسرائيل، ورأوا أن خير خدمة يمكنهم أن يؤدوها لهذه الدولة اليهودية، هي أن يتغلغلوا في الحزب الشيوعي ويسيروه وفق مصالح اليهودية العالمية وإسرائيل. لقد كان الرفاق يهودا صديق وعدس

وساسون دلال، أعضاء في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي آنذاك، وقد نجحوا في تسخيره لخدمة الصهيونية وإسرائيل. لقد كان للصهاينة اليد الطولى حتى في الوثبة، كانوا يطمعون بأن يسيطر الحزب الشيوعي العراقي الذي كانوا يقودونه على الحكم في العراق، فلا يرسل جيشاً ليحارب إسرائيل أو بأن يسيطر على الشارع فيحول بين الحكومة وبين الجيش العراقي لمحاربة اليهود، أو بأن يضربوا مؤخرة الجيش العراقي على أقل الأحوال.

إن لدى الشيوعيين نكات وتعليقات على هذا الموضوع. فهم مثلاً يضربون على المعنى البذيء لكلمة (مؤخرة) قائلين إذا كان الجيش العراقي قد (. . .) هتك من أمام، فما فائدة المحافظة على مؤخرته؟

إن من يتذكر المظاهرة الشيوعية التي انتهت عند المقبرة في باب المعظم، حيث راح الخطباء والشعراء ـ وكنت منهم ـ يصعدون على جدار المقبرة فيلقون الخطب والقصائد.

إن من يتذكر ذلك، لابد أن يتذكر فتاة جميلة بيضاء مربربة في الخامسة عشرة من عمرها أو أكثر قليلاً من ذلك. لقد صعدت وألقت قصيدة نظمها لها شاعر من أهالي الناصرية، قيل أنه كان يحبها. فمن تكون تلك الصبية المناضلة؟ إنها الرفيقة مادلين اليهودية التي كانت لها فيما بعد قصة معي، وقصة كبرى مع الرفيق باسم سكرتير الحزب الشيوعي العراقي في حينه.

لقد اشتهيت تلك الصبية التي ألقت قصيدتها على جدار المقبرة. ولكني ما لبثت أن نسيتها، وفي ظهر يوم من عام ١٩٥٠ أو ١٩٥١ كنت سائراً قرب مقهى الزهاوي حين استوقفتني صبية جميلة كان يرافقها رجل شيخ عرفت فيما بعد أنه الكفيل الذي خرج بها لتوه من

الموقف. استوقفتني قائلة: أستاذ بدر.. أستاذ بدر. فوقفت، فقالت دون مقدمات ودون أن تعرفني بنفسها: عندك ديوان شعر جيد.. ولكني لم أره، فهل تسمح بإعطائه لي. فقلت لها: أي ديوان.. أزهار ذابلة؟ أم أساطير؟ إنهما موجودان في الأسواق وهما ديوانا غزل.

فقالت الرفيقة: نحن ـ لا ندوّر ـ الغزل.. نريد شعراً نضالياً. وحينذاك علمت أنها من المناضلات الشريفات. وعرفت الديوان الذي تعنيه، كانت لدي قصيدة طويلة مازالت لما تكمل حتى الآن، بل إنني أهملتها، وكنت أتحدث فيها عن نضالات الشيوعيين في كل مكان.. في الصين وفي اليونان وفي الاتحاد السوفييتي، واتفقت وإياها على موعد، وجاءت في الموعد وسلمتها الدفتر الذي كنت قد كتبت فيه القصيدة. وراحت تسألني عما إذا كانت منشورات الحزب وجريدته تصلني فأجبتها بالإيجاب، وتواعدنا على لقاء جديد بعد أسبوع، وجاءت في الأسبوع القادم، وتمشينا مدة من الزمن ونحن نتحدث في أمور نضالية، وفي الأسبوع الثالث، وفي الموعد، أقبلت من جديد.

إنها هي مادلين التي كنت قد اشتهيتها قبل عامين، جاءت الآن إليّ، وكتبت قصيدة غزل فيها، خلعت عليها ثوباً نضالياً مهلهلاً، وكتبتها على ورق أزرق معطر. ففرحت بها. وافترقنا وتواعدنا على موعد جديد. ورحت أفكر بالموعد المنتظر، فعزمت على أنني سآخذها هذه المرة إلى فندق من الفنادق المعروفة بأسرارها.

وانتظرتها في الأسبوع الرابع، ولكن، مضت ساعة على الموعد وهي لم تأت، وبعد أن يئست تماماً انصرفت، لأعلم فيما بعد، أن الشرطة قد اعتقلتها ثم أطلق سراحها. لكنني لم أرها. ثم راجت

إشاعة أن الحكومة تريد أن تقبض على مادلين وهي يهودية وتسقط الجنسية العراقية عنها، ثم تسفرها إلى إسرائيل. وكانت مادلين عضوة نشيطة مخلصة من عضوات الحزب الشيوعي. وكان أخوها (الشريف) هو الآخر عضواً في الحزب، وكان سجيناً في نقرة السلمان آنذاك، وقد استفاد منه الرفاق، ورفّه عنهم. وطاف علينا أحد الرفاق (الكبار اليوم) وكنا آنذاك موظفين في مديرية الأموال المستوردة العامة قائلاً أن لدينا رفيقة يهودية، وهي شابة جميلة تريد الحكومة أن تسقط عنها الجنسية العراقية وتسفرها إلى إسرائيل. وإذا تزوجها مسلم أصبحت هي مسلمة ولم تعد الحكومة قادرة على إسقاط الجنسية عنها. فمن يتزوجها؟ وسجلت اسمي راغباً في الزواج منها كما سجل الأستاذ محمد شرارة نفسه كذلك. لا تعجب من ذلك.. صحيح أنه متزوج وأنه في حوالي الخمسين من عمره، وصحيح أن بناته في مثل عمر مادلين وربما أكبر قليلاً.. ولكن ليست عند الاشتهاء الشيوعي من عجب.

وكتبوا صفات كل منا: راتبه وأفراد عائلته الذين يعينهم، متزوج أم أعزب، أمه حية أم ميتة.. إلى غير هذه التفاصيل.

وانتظرنا أسبوعاً دون أن تظهر نتيجة. وحين سألنا الرفاق عن مصير طلباتنا قالوا لنا أن نصرف أذهاننا عن هذه الفكرة، لأن مادلين وجدت لها مأوى أميناً واختفت عن أنظار الشرطة. وعلمت أنها نزلت إلى سرداب الحزب مع الرفيق باسم الذي كان سكرتيراً للحزب آنذاك.

وكانت مادلين مغرية، ولم يكن الرفيق باسم ليفوت صيداً نفيساً مثلها. لقد كان دون جوان شهيراً في السليمانية قبل أن يصبح سكرتيراً للحزب واستطاع أن ينالها بالإكراه أو بعد أن أغراها. ماذا كان بوسعها

أن تفعل وقد هجم عليها يريد اغتصابها، وهو أقوى منها، أتصرخ؟ فعند ذلك ستأتي الشرطة وتلقي القبض عليها وعلى سكرتير الحزب.

يقول البعض أقنعها بأنه هو زوجها وأن الرابطة التي ستربط بينهما هي رابطة زواج، ولكن.. لتعذر الذهاب إلى القاضي أو الحاخام أو المجيء بأحدهما إلى بيت الحزب، فليتم الزواج بدون عقد مؤقتاً.

وحملت مادلين، وشاءت إرادة ربك أن تلقي الشرطة القبض على من في الوكر الشيوعي، على الرفيق باسم وخليلته بل زوجته دون عقد. وفي سجن النساء وضعت مادلين طفلاً ذكراً سمته.. ماذا سمته ياترى؟ سلام.. وهل هناك أجمل من السلام؟ إنه ابن الحزب. ومن أجدر بالحزب الشيوعي، بطل مجازر كركوك من تبني السلام؟

لقد شهدت الدكتورة عدوية محمود أديب التي كانت سجينة سياسية آنذاك ميلاد (السلام) السلام العراقي وليس السلام العالمي، فأدركت سمو الأهداف التي آمنت بها وناضلت من أجلها وضحت بشبابها وبعملها من أجلها. ومن هنا كان نبذها للشيوعيين.

إنني أدعو الدكتورة عدوية، أدعوها للمرة الثانية للكتابة عن ذكرياتها عن الشيوعية والحزب الشيوعي، فتؤدي بذلك لأمتها خدمة جلى.



الحلقة الثالثة عشرة

العدد ١٤٥٤

التاريخ ٣١/آب/١٩٥٩

في رأيي أن يكون هذا الباب الذي أحرره، مخصصاً لمكافحة الشيوعية والشيوعيين وفضح جرائمهم أو مخازيهم، سواء أكان سرد ذكرياتي الخاصة هو الذي يفضح تلك الجرائم والمخازي أم كانت رواية لذكريات صديق أثق بصحة ما يقول، هي التي تقوم بذلك أم كانت كتابات الأدباء الإنكليز والأمريكان أو كتب الشيوعيين أنفسهم هي التي تفضح أخلاقهم.

في وسع الشيوعيين وأعوانهم أن يتهموني بالكذب فيما أقول إذا أنا رويت ذكرياتي الخاصة أو ذكريات صديق موثوق به، وفي وسعهم أن يكذبوا ما يكتبه الإنكليز والأمريكان وسواهم عنهم زاعمين أن هؤلاء الكتاب إنما هم عملاء الاستعمار العالمي وأنهم مأجورون بالجنيه والدولار على ما يكتبون.

ولكن الشيوعيين لن يستطيعوا إنكار ما يكتبه مؤلف سوفياتي شيوعي، خاصة إذا كان كتابه قد طبع على نفقة اتحاد الكتاب السوفييت أو الحكومة السوفيتية، ثم ترجمته دار اللغات الأجنبية في

موسكو ونشرته، وجاء بعد ذلك الرفاق العراقيون الشرفاء فترجموه إلى اللغة العربية ثم نشروه في دار بغداد.

إنهم لن يستطيعوا ـ وهم المترجمون ـ أن يتهموا المترجم بأنه حرّف نصوص الكتاب وشوهها. وهذا ما سأفعله اليوم، حين أعرض على القارئ نماذج من الأخلاق الشيوعية كما جاءت في الكتاب المسمى ـ الأرض البكر حرثناها ـ لمؤلفه شولوخوف، الذي ترجمه الشيوعيون العراقيون ونشروه.

يلذ لبعض الناس وهم في الغالب من الشيوعيين غير الحزبيين أن يزعموا أن الشيوعيين العراقيين ينفردون عن سائر الشيوعيين بتردي أخلاقهم وانحطاطهم. وهو قول يتضمن أملاً في أن يحسن الحزب الشيوعي العراقي مسلكه متى تولت قيادته لجنة مركزية من عناصر مثقفة نظيفة.

وهو وهم ينبغي أن يزول من الأذهان. لأن أخلاق الشيوعيين ـ عدا الشيوعيين اليوغسلافيين الذين سأتناولهم بالبحث في حلقة قادمة ـ هي واحدة في العالم كله.

تتساوى في ذلك أخلاق الشيوعيين في الحزب البلشفي الذي كان يقوده يوسف ستالين، رابع الفلاسفة الماركسيين الأربعة، وأخلاق الشيوعيين في الحزب الشيوعي العراقي الذي يقوده حسين الرضوي البهبهاني، مدرس التمثيل في دار المعلمين الريفية سابقاً، وخريج دار المعلمين الابتدائية.

هناك ثلاثة مطاعن سمعنا الناس يوجهونها إلى الشيوعيين في كل مكان وزمان، وقد كشفتها لنا أشهر الكابوس التي طغى فيها الشيوعيون العراقيون، وصورتها لنا أيضاً مجزرة كركوك التي قتل فيها

الشيوعيون (الشرفاء) الأطفال الصغار ثم ألقوا جثثهم في براميل القمامة والزبل.

وإننا لو فتحنا الصفحة ٦٦ من الجزء الأول من ـ الأرض البكر حرثناها ـ لشولوخوف، في ترجمته العربية التي نشرها الشيوعيون العراقيون أنفسهم، لوجدنا الدليل الصارخ على قسوة الشيوعيين ووحشيتهم وانعدام الرحمة في أنفسهم الشريرة.

إن حوادث القصة تجري في قرية يريد الشيوعيون تأسيس مزرعة تعاونية فيها. وكانوا يغيرون على منازل الكولاك ـ الملاكين ـ فيصادرون ملابسهم وملابس أطفالهم ولعبهم وكل ما وقعت عليه عيونهم. وكان أحد المكلفين بأعمال المصادرة هو ـ أندريه ـ إنساناً ذا قلب وضمير. وقد آلمته المناظر التي رآها في أعمال المصادرة هذه.

واليك ما قاله الكاتب السوفيتي راوياً قصة أندريه مع أعضاء الخلية الشيوعية في الصفحات ٦٦ و٦٧ و٦٨ من الترجمة العربية لكتاب ـ الأرض البكر حرثناها:

ورمقهما أندريه وارتعشت شفتاه وقال بصوت صارخ:

ـ انتهى كل شيء. فلن أشارككم بعد هذا العمل.

ـ أي عمل؟

وأبعد ناجولنوف ـ سكرتير الخلية الشيوعية ـ كرات العد، «لن أذهب بعد لمصادرة إنسان ما، لا داعي أن تحملق فيّ هكذا، حتى لا تصرعك أزمة عصبية».

ـ يبدو أنك أفرطت قليلاً في الشراب!

وأخذ دافيدوف ـ مندوب الحزب الشيوعي إلى القرية ـ يتفرس في انتباه بالغ وجه أندريه الذي ينم عن عزم سيء، وقال له:

ـ ما الذي بك يا أندريه؟ وضح لنا الأمر.

وأثارت النغمة الهادئة في صوت دافيدوف الجهوري أندريه وأهاجته فتلعثم وهو يرتعش غضباً.

ـ إنني لم أتعلم بعد أن أشن الحرب على أطفال.. لقد كان الأمر مختلفاً في جبهات القتال فهناك يهوى الأنسان بالسيف، على كل، من يصادفه وعلى كل فقد سئمت هذا العمل ولن أعود إليه.

وأخذ صوته يرتفع ويعلو كاهتزازات وتر مشدود يوشك أن ينقطع. ولكن، وبعد تنهيدة شبيهة بحشرجة خفض صوته فجأة:

ـ أيمكن أن ترتكب أشياء كهذه؟ أمعنوا النظر في ذلك! إنني لست سفاحاً.. إن لي قلباً. لقد اشتركت في الحرب.. وهذا كاف ـ وزاد صراخه من جديد ـ

ـ إن لجاييف أحد عشر طفلاً.. يا لصيحاتهم حينما قدمنا.. لقد أحسست بشعري يقف فأغمضت عيني وأصممت أذني وهرعت إلى الحظيرة. لقد أغمي على النساء وصب الماء البارد على وجه الكنة وصغارها وبعد.. ألن تريحوني من هذا العمل؟

ونصحه ناجولنوف الذي كان يعتصر بكفه عضلة وجنته المرتعشة ويرمقه بعينيه المشتعلتين:

ـ إبك إذن.. فقد يخفف هذا عنك.

ـ إن لأمر يستوجب البكاء حقاً.. آه.. حينما أفكر في احتمال أن يكون ابني أنا هو الذي...

وتوقف أندريه مبدياً أسنانه في حركة فظة واستدار جاعلاً ظهره إلى المائدة وساد الصمت.

ونهض دافيدوف على مهل، وعلى مهل أيضاً أخذت خده العارية تصطبغ بزرقة الموتى وأنفه بالشحوب، مضى نحو أندريه وأخذه من كتفه وأدره بدون مجهود ثم تحدث متلاحق الأنفاس مثبت العينين على وجه أندريه.

ـ أنت تشفق عليهم.. وترثي لحالهم.. حسناً، وهم هل أخذتهم بنا الشفقة؟ هل بكوا أيتامنا؟ فماذا إذن؟ لقد طردوا أبي مَن مصنعه بعد الإضراب ثم نُفي إلى سيبريا. وكنا أربعة أطفال بقينا مع أمنا. وكنت أبلغ ـ وأنا أكبرهم سناً ـ تسعة أعوام. ولم نملك ما نطعمه فاضطرت أمي ـ أنظر إليّ ـ اضطرت أمي حينئذ أن تحترف الدعارة حتى لا تدعنا نموت جوعاً. وكانت تحضر زبائنها إلى البيت. كنا نسكن في ـ بدروم ـ لم يكن قد بقى به غير سرير واحد. فكنا ننام على الأرض خلف ستار وكان بعض روادها سكارى، فكنت ألصق قبضتي بفم أخواتي الصغيرات لأمنعهن من البكاء. فمن الذي جفف دموعنا؟ هل تسمعني.. وفي الصباح كنت آخذ هذا الروبل الملعون...

ووضع دافيدوف يده المليئة بآثار الجروح تحت أنف أندريه وهو يضغط أسنانه من الألم.

ـ هذا الروبل الذي كسبته أمي، وأجري لاشتري خبزاً.

وفجأة هوى بقبضته السوداء على المائدة كما يلقي الأنسان بعظمة وصاح فيه:

ـ كيف تستطيع أنت أن تشفق عليهم؟

وساد الصمت من جديد ناجولتوف الجالس على حافة المائدة ممسك بأندريه كما يمسك صقر بفريسته، وأندريه صامت ودافيدوف

مضطرب الأنفاس غاد رائح نحى الحجرة دقائق جلس بعدها على الأريكة قريباً من أندريه وهو يلف كتفيه بذراعه ويحدثه بصوت متهدج.

ـ وهل من الصواب أيها الأبله أن تصرخ هكذا (لن أشارككم العمل. إن الأطفال تثير شفقتي) فكر قليلاً فيما سردته علينا.. أتشفق على أُسر الكولاك؟ التي نطردها.. ولكن إذا كنا نطردهم فما ذلك إلاّ لكي لا يمنعونا من أن نبني حياتنا مطهرة من القذارة. إنك ممثل السلطة السوفيتية في جربمياتش أليس كذلك؟ وعليّ أنا أن أقوم لك بالدعاية؟

وحاول أن يبتسم.

ـ إننا نطرد الكولاك ونبعث بهم إلى الشيطان إلى سولوفسكي ولكنهم لن يموتوا مع ذلك فإن اشتغلوا اطعموا. وحين ننتهي من بناء حياتنا فمن يعود أبناؤهم أبناء كولاك فستكون الطبقة العاملة قد هذبتهم.

وأخرج علبة سكاير حاول طويلاً أن يلتقط إحداها بأصابعه المرتعشة ونهض أندريه دون أن يبعد عينيه عن وجه ناجولتوف الذي غطته صفرة عميقة وقفز ناجولتوف كما لو كان منط حوض السباحة قد قذف به أمام أندريه ونفث في وجهه وقبضتاه مشدودتان.

ـ قذر! أهكذا تخدم الثورة؟ إنك مليء القلب بالشفقة، مرهف الإحساس أما أنا فتستطيع أن تصف أمامي ألوفاً من العجزة والأطفال وأن تقول لي بعد ذلك أنه يجب قتلهم من أجل الثورة وسوف أُميتهم جميعاً بمدفعي الرشاش ـ وصاح ناجولتوف فجأة بصوت متوحش ـ أقتلهم جميعاً. ولمع بريق الغضب في عينيه اللتين اتسعتا وبدا زبد على جانبي فمه.

أرأيت ما قاله هذا الشيوعي؟ لو صففت أمامه ألوفاً ـ اسمع جيداً ـ ألوفاً من العجزة.. والأطفال لحصدهم حصداً بالرشاش دون شفقة إذا كان في ذلك مصلحة للثورة.. للثورة البروليتارية طبعاً.

وإذن، فقد كانت مئات المسدسات والرشاشات والسكاكين والخناجر التي كان الشيوعيون العراقيون يخبؤنها معدة لحصد العجزة والأطفال لأن في ذلك مصلحة الثورة البروليتارية. فمرحى بإنسانية الرفاق الشرفاء وشعرائهم التافهين الذين ينضوون تحت الراية الحمراء التي يعرفها الحزب الخائن الوحشي العميل.

وبعد، فقد تحققت لك أيها القارئ من أقوال كاتب سوفييتي ـ مناضل ـ تهمة من التهم الثلاث التي توجه إلى الشيوعيين وهي أنهم قتله قساة القلوب، وإنهم إباحيون منحطون، وإنهم ملحدون أعداء للدين.

وفي الحلقة القادمة سأثبت لك من أقوال هذا الكاتب السوفياتي التهمتين الباقيتين (ومن فمك أدينك ياإسرائيل) أو بالأحرى ياشقيق إسرائيل وعميلها سواء كنت عالماً بأنك عميل لها أم كنت مخدوعاً غير عالم بذلك.



الحلقة الرابعة عشرة

العدد ١٤٥٧

التاريخ ٣/أيلول/١٩٥٩

من خطط الشيوعيين في كل مكان وخاصة في العراق وتكتيكاتهم التي يعرفها كل من له أدنى معرفة بهم، نشر الإشاعات والأكاذيب والتحدث عن مؤامرات مزعومة ليتمكنوا بهذه الوسيلة من ضرب خصومهم وتقوية صفوفهم، لقد مني الحزب الشيوعي العراقي بنكسة لم ير لها مثيلاً حتى بعد اعتقال فهد وبعد إعدامه منذ أن فضح الزعيم العبقري الفوضوية والفوضويين وأعمالهم المنتنة في كركوك. ولم تبق لدى الرفاق الشرفاء من وسيلة يقوون بها صفوفهم بعد أن أخذ المئات من الناس ينسحبون من منظماتهم غير العودة إلى أسلوبهم المفضل، أسلوب الإشاعات والأكاذيب، فهم يشيعون الآن بين أتباعهم ومؤيديهم وأصدقائهم، بأن الحكومة راحت تنكل بالقوميين الزائفين وتطاردهم وتعتقلهم، وأنها راحت تؤدب كل من أساء إلى الرفاق بقول أو فعل.

وعلى هذا الأساس فقد أوقفت صاحب جريدة بغداد، لأنه كان ينشر مقالات رائد، بينما الحقيقة أن صاحب جريدة بغداد موقوف

لسبب آخر لا يمت إلى كتابات رائد بأدنى صلة.. وبأن يد الحكومة امتدت أيضاً إلى الأستاذ طه الفياض، لأنه عدو لدود للشيوعيين، وأن رائد نفسه قد أوقف، وأن بدر شاكر السياب قد أوقف بسبب ما يكتبه عن الشيوعيين في باب ـ كنتُ شيوعيّاً ـ. وإذا بقيت هذه الإشاعات مجرد إشاعات، لم يصدق الناس بها، ورفضوها جملة. ومن هنا كان سعي الشيوعيين لتحقيق جزء من تلك الإشاعات على الأقل.

فحين يقولون أن الحكومة قد أوقفت بدر السياب لأنه عدو للشيوعيين ثم يكتشف الناس أنني لم أوقف، يقابلون بالتكذيب إشاعاتهم الأخرى من أن الحكومة قد عادت إلى تأييد الشيوعيين. كأن الحكومة التي قال رئيسها العظيم أنه فوق الميول والاتجاهات، قد تحيزت لفئة ما في يوم من الأيام أو تحزبت ضد فئة سواها.

إن الحكومة ـ كما قال زعيمنا المقدام المظفر ـ للشعب كله بمختلف أديانه وقومياته ومعتقداته السياسية، وهي لا يمكن أن تكون ضد فئة ما، بسبب معتقدات تلك الفئة، لا لشيء آخر سواها.

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفسر جهودهم التي بذلوها للإيقاع بي ولإرسالي إلى الموقف لتصبح بعض إشاعاتهم التي يرمون من ورائها إلى غرض خطير. لقد حرضوا امرأة ما بأن تقيم الدعوى عليّ مدعية بأنني طعنت شرفها وأنني كنت أعنيها حين تحدثت عن عشيقة أحد الرفاق. وهم أعلم من سواهم أن دعواها فاشلة لامحالة، فليس فيما كتبته شيء يدل على أن تلك المرأة هي المقصودة، فما قصدهم إذن من إثارتها؟ لكي أوقف ولو ليوم واحد لتصح ولو إشاعة من إشاعاتهم العديدة. ولكن الله العلي القدير خيب فألهم، فأطلق

سراحي بالكفالة بعد أخذ استجوابي بدقائق معدودات. فحمداً لله وشكراً للجمهورية وعدالتها واحترامها للمواطن.

على كل، سنعود إلى الموضوع الذي بدأناه أمس حين استشهدنا بكتاب ألفه كاتب سوفياتي، ونشرت ترجمته الإنكليزية دار اللغات الأجنبية الرسمية في موسكو. وعن هذه الطبعة ترجمه الرفاق المحليون إلى اللغة العربية ونشروه. وحين بحثت عن جزئي هذا الكتاب اللذين كنت قد أشرت فيهما على المواضيع التي تخص موضوعي هذا لم أعثر لهما على أثر. وفكرت بأن اشتري نسختين جديدتين منهما، ولكني صرفت الفكر عن ذلك قائلاً في نفسي أن لا داعي لأن أنفع الشيوعيين العملاء ثلثمائة فلس، ذلك أن ذاكرتي استطاعت أن تلتقط تلك السطور المؤشرة، واعتماداً على الذاكرة سأكتب، حتى إذا كذب الشيوعيون ما كتبته وقد يفعلون ذلك، حسب عادتهم في تكذيب الحقائق اشتريت نسختين جديدتين من الرواية وذكرت لهم رقم الصفحة ورقم السطر.

رأيت معي أمس مثالاً على قسوة الشيوعيين وتحجر قلبهم وسمعت ما قاله أحدهم من أنهم لو صفوا أمامه ألوفاً من العجزة والأطفال لحصدهم بمدفعه الرشاش إذا كان في ذلك مصلحة الثورة. لقد ذكرتني هذه الجملة بقصيدة رائعة كتبها شاعر أوربي حر عن مجزرة بلاده يوم اجتاحت عاصمتها الثائرة على الطغيان الشيوعي ستمائة دبابة أجنبية وراحت تسحق الثوار سحقاً شبابهم وشيوخهم ونساءهم وأطفالهم أيضاً. لقد شاهد الناس بعد أن سحق الشعب الثائر وانتهت المعركة جنوداً من الخشب مما يلعب به الأطفال، ملوثة بالدم، بدم الطفل الذي يملكها والذي سحقته دبابات الرفاق فانطرح إلى جانب

جنوده الخشب. . شاهدها الناس في ساحة المعركة وكانت هذه اللعب الخشبية، هؤلاء الجنود الخشب، الملوثون بدم الطفل القتيل، موضوع قصيدة الشاعر. إنه يخاطب الطفل القتيل ويحدثه عن جنود يتحركون ويتكلمون ولكنهم دون قلب دون ضمير، دون رحمة كجنود الخشب الصغار، اجتاحوا بلاده، وقتلوا شعبه، ونثروا جنوده الخشب بعد أن لطخوها بدمائه.

سأحدثك اليوم عن التهمة الثانية من التهم الثلاث التي توجه إلى الشيوعيين في كل مكان وعلى نطاق عالمي من أنهم قساة دون رحمة ومن أنهم متفسخون أخلاقياً ومن أنهم ملحدون أعداء للدين.

لو كان الشيوعيون يؤمنون بالله لشكروه على أنني أنشر مقالاتي ضدهم في جريدة الحرية التي تأبى تقاليدها رواية الفضائح الجنسية التي أعرفها عن الشيوعيين، لأن مستوى الجريدة أرفع منها.

بل، لقد حذف رئيس التحرير صفحات كاملة مما اقتبسته عن رواية ـ الأرض البكر حرثناها ـ للكاتب السوفياتي شولوخوف عن لوشا زوجة سكرتير الخلية الشيوعية في جريماشي. إن في وسع القارئ أن يرجع إلى القصة المذكورة ليرى نماذج رفيعة من شهامة الأزواج الشيوعيين مع زوجاتهم اللواتي يكللن جباههم بالعار، ولو كان شيوعي يعترف بما نسميه نحن عاراً.

وأكتفي بنشر جملة مما ورد في الكتاب على لسان الرفيق البطل:

فحين يضرب هذا الرفيق المناضل أحد الفلاحين حتى يدميه، يقول له ذلك الفلاح:

ـ إذا كانت لديك رجولة فلتظهرها مع زوجتك لوشا.

وحينذاك تصعد الغيرة إلى رأس الرفيق الهمام فيطلق زوجته. لكنه يتلقى لوماً من اللجنة المحلية للحزب ـ وكلهم عارف بقصته مفصلة ـ على تطليقه لزوجته، لمجرد أنها قامت ببعض المداعبات الطفيفة لعدد من الشبان ـ مرحى بهذه الأخلاق التي لا يجد المرء تعليقاً مناسباً يعلق به عليها.

وفي موضع آخر من ـ الأرض البكر حرثناها ـ للكاتب السوفياتي شولوخوف يأتي إلى دافيدوف، مندوب الحزب البلشفي إلى القرية، ويخاطبونه قائلين: إنك لا تؤمن بالله طبعاً. ثم يخبرونه بأن الأمطار لم تهطل ذلك العام. وإذا استمر انقطاعها ماتت الزروع. ثم يرجونه أن يسمح لهم بأن يصلوا صلاة الاستسقاء طالبين من الله أن يمن عليهم ببعض المطر. فيثور الرفيق على هذا السخف، ويحدثهم بقوانين الطبيعة، وبأن المطر سينزل حتماً سواء صلوا لله أم لم يصلوا، ثم يهددهم بأنهم إذا جاءوا بقسيس يقوم فيهم بالصلاة، فسوف يجز لحيته بالمقص الذي يجز فيه به صوف الأغنام.

قرأت، حين كنتُ شيوعيّاً، كتاباً عنوانه ـ الدين في الاتحاد السوفياتي ـ وهو كتاب مصور يتحدث عن الكنائس والجوامع وكنس اليهود، ليثبت أن النظام الشيوعي ليس ضد الدين. فمن يخدعون بهذه الكتب؟

صحيح أن الكنائس والجوامع مازالت في الاتحاد السوفياتي والبلدان الشيوعية التابعة له. ولكن من الذي يؤم تلك الكنائس والجوامع؟ الشيوخ والعجائز.. أو بالأحرى الجيل الذي سيدركه الموت بعد سنوات قلائل حتى لا يبقى له من أثر. وحينذاك من يقصد الكنائس والجوامع؟

إن الشباب السوفياتي يدرس الإلحاد ويتعلم الكفر بالله وأديانه في المدارس والكليات، وفي النوادي. . وفي كل مكان. وحينذاك ستحول الكنائس والجوامع إلى مكتبات عامة وإلى مقرات لجمعيات الشباب والجمعيات الفلاحية ونقابات العمال.

وبعد، فهذه هي أخلاق الشيوعيين مأخوذة من كتبهم أنفسهم، وقد رأينا خلال أشهر الكابوس الأحمر نماذج واضحة منها. لقد أصبحت قسوتهم وتحجر قلوبهم ووحشيتهم مضرب الأمثال. فمن قتل النساء والشيوخ والأطفال في الموصل وكركوك إلى سحل المرحومين ـ عبد الأمير ـ في الكاظمية و ـ أنس ـ في البصرة. إلى عشرات الجرائم التي شهدتها كل أنحاء العراق. أما جرائمهم الخلقية فقد حدثتك بشيء منها فيما مضى. ولولا رغبات عزيزة من رجال أحترمهم وأعتز بهم لحدثتك بما يملأ كتاباً.



الحلقة الخامسة عشرة

العدد ١٤٥٨

التاريخ ٤/أيلول/١٩٥٩

إن الحديث عن موقف الشيوعيين العراقيين بصورة خاصة والشيوعيين العرب وشيوعي العالم كلهم، من القضية الفلسطينية ومساندتهم الصفيقة الصريحة للصهيونية، حديث عن أمر لا يجهله أحد. فما زال الناس هنا في العراق يسمون الشيوعيين ـ أخوان اليهود ـ وقد أخذوا هذا اللقب من شعار رفعه الشيوعيون العراقيون ونادوا به في مظاهراتهم عام ١٩٤٨. ومع ذلك فهناك بعض التفصيلات اللطيفة التي لا أرى بائساً من سردها.

كان موقف الحزب الشيوعي العراقي من القضية الفلسطينية في بادئ الأمر موقفاً وسطاً. فهو من ناحية لم يتبن المصالح والأهداف القومية. ولكنه من ناحية أخرى لم يسفر عن خيانته إسفار من لا يخجل ولا يستحي.

كان الشيوعيون في العراق وفي الوطن العربي كله ينادون بأن تؤلف في فلسطين حكومة ديمقراطية يشترك فيها العرب واليهود. وكان ذلك الحل في حينه أكثر مما يطمح فيه الشيوعيون اليهود الذين كانوا

قد تسربوا إلى الحزب الشيوعي العراقي وتسلموا مراكز قيادية مهمة فيه.

لقد كشفت الحوادث عن أن سكرتير الحزب الشيوعي العراقي كان يهودياً.. مرتين. لقد أصبح اليهودي يهوذا صديق خليفة لفهد في أول الأمر. وبعد فترة قصيرة تسنم اليهودي ساسون دلال مركز السكرتارية في الحزب العميل.

كان اليهود يحلمون، إذا تألفت في فلسطين حكومة مشتركة من العرب واليهود، بأن يتدفق المهاجرون اليهود على فلسطين من أنحاء العالم كلها، فلا يلبث العرب أن يصبحوا أقلية بين ملايين اليهود.

لقد بذلوا في سبيل ذلك أموالهم لدعم الحركة الشيوعية في العراق، وبناتهم لإغراء الرفاق الشرفاء. وكان كسبهم من وراء ذلك عظيماً. وقد أثبتت الحوادث أيضاً أن سكرتير الحزب الشيوعي المصري كان يهودياً ايطالياً.

وقد وزع الحزب علينا منشوراً يشرح فيه شعاره القاضي بتأليف حكومة مشتركة بين العرب واليهود في فلسطين. وكان الجواب الذي هيأناه لنجيب به كل معترض على ذلك الشعار هو: وهل تريد أن تتألف حكومة عربية خالصة فتكون مثل حكومة نوري السعيد مطية للاستعمار؟ وما ذنب اليهود المساكين القاطنين في فلسطين؟ أنلقيهم في البحر ثم نؤلف حكومة عربية خالصة.

ومع أننا كنا نعرف زيف هذه الحجة التي نحتج بها، فقد كنا بها متمسكين. إن الطيبين من الشيوعيين يعانون انقساماً فظيعاً في شخصياتهم. فهم من ناحية ملزمون بالدفاع عن شعارات الحزب وآرائه والخضوع لأوامره، وهم من ناحية أخرى لا يؤمنون في قرارة قلوبهم

بصحة ما يدعو الحزب إليه. ولقد ظللت أعاني هذا الانقسام الفظيع في شخصيتي إلى اليوم الحاسم في حياتي الذي تحررت فيه من الاستعباد الشيوعي.

لقد قرأت مثلاً شعر لكثيرين من الشعراء الشيوعيين من ناظم حكمت وبابلو نيرودا وأراغون وماو تسي تونغ والشاعر السوفياتي سيمونوف، فوجدته سخيفاً. بل وجدت الكثير منه لا يستحق حتى أن يسمى شعراً. ولكنني كشيوعي وكعنصر في الحزب كنت ملزماً بالدفاع عن هؤلاء الشعراء والادعاء بأنهم أعظم شعراء العالم. وإن شاعراً سخيفاً كناظم حكمت هو أعظم من الشاعر الإنكليزي العبقري أليوت أو إيديث ستويل. فإيديث ستويل شاعره دينية، أما أليوت فهو شاعر الموت والإقطاع والاستعمار العالمي. ولكني كنت بيني وبين نفسي معجباً بأليوت وإيديث ستويل غاية الإعجاب، بل إنني كنت معجباً حتى بالشاعر الألماني العظيم ريلكة الذي يتخذه نقاد الأدب الشيوعيون مثالاً على الشاعر الرجعي المتشائم الذي يعبر عن آمال طبقة زائلة، وهي الطبقة الإقطاعية في حالة هذا الشاعر. فلا يملك إلاّ أن يتشاءم بل ويتمنى الموت. ولكن من يستطيع القول بأن ريلكة أعظم شاعرية وأكثر إنسانية وتقدمية من سيمونوف، أكبر شاعر سوفياتي معاصر؟

لقد نشرت وريقة حمراء قبل مدة قصيدة ترجمت عن شاعر صيني يتحدث فيها عن:

البيادر سوف تتوسع فتصبح

كالتلال

والمخازن ستمتلئ بالقمح

وسوف أستيقظ في الصباح

الباكر

فأقود البقرة إلى الحقل...

إلى آخر هذا (الخلط) الذي نهين الشعر والشعراء إذا نحن سميناه شعراً. ولكن الشيوعيين يعتبرونه شعراً عظيماً.

وما لبث الاتحاد السوفياتي أن وقف إلى جانب الصهاينة فصوت في الأمم المتحدة إلى جانب القرار القاضي بتقسيم فلسطين. وقد حدث ذلك بعد أن أصدر الحزب الشيوعي العراقي منشوره المنادي بدولة موحدة للعرب واليهود بأيام قلائل. بل لقد حدثني الأديب العربي الكبير مطاع صفدي ذات مرة في دمشق، أن الحزب الشيوعي السوري بدل شعاراته في مدى ليلة واحدة. ولكن المشرفين على جريدته لم يستطيعوا أن يدبروا ذلك. فخرجت الجريدة الشيوعية للناس وهي تحمل شعارين متناقضين. فقد جاء فيها مقال ينادي بالحكومة الموحدة للعرب واليهود، ومقال آخر ينادي بالتقسيم.

ولم يكن في مستطاع الأحزاب الشيوعية حتى الأحزاب الشيوعية في الوطن العربي التي كانت قضية فلسطين قضيتها وليست قضية الاتحاد السوفياتي، أن تخالف الاتحاد السوفياتي فيما أرتاه.

وارتاح الرفاق اليهود لهذا الموقف. فما لبث الحزب الشيوعي العراقي أن أصدر منشوراً حبذ فيه التقسيم، بل إن جريدة الحزب الشيوعي العراقي (القاعدة) راحت من ذلك الحين تنشر المقالات العنيفة التي تشجب فيها الحرب الفلسطينية وتسميتها الحرب القذرة. وتطالب بسحب الجيوش العربية من فلسطين. وأثار موقف الشيوعيين

العراقيين سخط الشعب وغضبه واحتقاره. بل إننا فقدنا عدداً من أعضاء خليتنا الشيوعية في أبي الخصيب.

وحين تجرأت وسألت أحد الرفاق المهمين ذات يوم عن السبب الذي جعل حزبنا يتخذ هذا الموقف مخالفاً فيه الشعب كله، متحدياً شعوره، استشهد الرفيق بأقوال الرفيق فهد من أنه (متى كانت شعاراتنا صحيحة، فنحن نرفعها، سواء وافقت عليها الجماهير أم لم توافق. إن حزبنا هو الذي يقود الجماهير، وليست الجماهير هي التي تقوده).

وأمام هذه الحجة (الفهدية) الدامغة لم أستطع غير أن ألوذ بالصمت. لقد ظللت ليالي عديدة أعاني السهر والعذاب، يوم أن كنت ما أزال عضواً في الحزب الشيوعي، بسبب فكرة حضرت على بالي وأبت أن تفارقني.

هناك صعلوك يهودي اسمه خضوري كان يطوف في قريتنا والقرى الأخرى فيشتري النحاس العتيق والزري العتيق وما شابه، ثم يبيعها بربح ويعتاش من ذلك. ثم سقّط خضوري جنسيته وسافر إلى إسرائيل. وقد تبين أنه كان يملك حوالي العشرة آلاف دينار، ولم يستطع خضوري أن يأخذ ماله معه فتركه وسافر إلى وطنه القومي. وفكرت، أن الناس جميعاً منذ القدم حتى الآن يحتقرون اليهود ويصفونهم بحب المال حباً جماً. ولكن خضوري، هذا الصعلوك اليهودي الذي لم يكن يعرف القراءة والكتابة كما أعتقد، والذي كان يتحمل شمس الصيف ومطر الشتاء ونباح كلاب القرى، وإيذاء سكانها في سبيل دريهمات يربحها، ترك حطام الدنيا كله ونزح إلى إسرائيل؟ في سبيل ماذا؟ ليعيش في بلاد يشعر بأنه واحد من أهلها في كل شيء، كما يتوهم.

لقد جعله إخلاصه لقوميته لهذه لقيمة الروحية يتنازل عن أمواله التي عانى ما عانى حتى جمعها. وأنا.. أنا الذي أدعي بأنني أديب وشاعر، وبأني لست من عبدة المال، ولا المهتمين به، وأن قصيدة جيدة أكتبها أحب إلى نفسي من آلاف الدنانير. لقد خنت قوميتي وتنكرت لكل القيم الروحية في سبيل ماذا؟ إنني أمني نفسي بأن دخلي سيكون أكبر وبأنني سأحصل على نقود أكثر متى جاء الشيوعيون إلى الحكم. إذن، فأنا أحقر من خضوري؟

وعذبتني هذه الفكرة. لقد حاولت الفرار منها بشرب الخمر والإدمان فيه، ولكنها ظلت تطاردني إلى اليوم الذي تخلصت فيه من الأفكار الشيوعية.

ومن القصص التي نغصت علي حياتي واستدرت دموعي ـ كما يشهد الكثير من الأصدقاء ـ ما رواه لي صديق عربي من فلسطين.. بعد ضياع هذه القطعة المقدسة من الوطن العربي.

إن ابن الشاعر الفلسطيني المعروف عبد الرحيم محمود الذي استشهد دفاعاً عن وطنه وعروبته، هو اليوم سائل يمد يده الصغيرة في طلب الخبز. وتمثلت ذلك الغلام العربي بأسماله الممزقة وقدميه الحافيتين ويده الهزيلة الصفراء وهو يمدها سائلاً إحسان الناس (لله ياأخوان)، فسببت الشيوعيين مع أنني كنت عضواً في حزبهم يومذاك.



الحلقة السادسة عشر

العدد ١٤٦٦

التاريخ ١٤/٩/١٩٥٩

في أوائل العام الدراسي ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩، عينت مدرساً في ثانوية الرمادي. واستأجرت غرفة في أحسن فندق بالبلدة وباشرت العمل. كان المفروض أنني مدرس للغة الإنكليزية.. ولكن الحق أني كنت أقضي أكثر من نصف مدة الدرس في التحدث إلى الطلاب عن الشيوعية: ما هي هذه الشيوعية التي يخافون منها؟

دعونا نرَ، ورحت أشرح لهم مبادئ المادية الديالكتيكية وسواها من الأفكار الشيوعية. وكانت جميلة جذابة. فالشيوعية كما شرحتها للتلاميذ ليست الذبح والحرق والنهب والقتل التي رأيناها في كركوك مثلاً. وليست التبعية لدولة أجنبية، لأن اثنين من حكامها فيلسوفان من فلاسفة الماركسية ـ اللينينية ـ الستالينية الأربعة، وهي ليست خدمة الأهداف الصهيونية، وهي ليست إلحاداً ولا تفسخاً خلقياً. كلا.. إن الكلمات المطبوعة في الكتب التي كنت أشرحها للطلاب كانت جميلة، لطيفة.

إنني ليحرقني الأسف على آلاف الشباب الطيبين الذين يرغبون

رغبة صادقة في خدمة وطنهم وشعبهم. . كيف يخدعهم الشيوعيون بالكلمات المعسولة والأحلام العذبة والوعود الحلوة. حتى إذا زلّت بهم القدم في هوة الشيوعية أصبحوا لا يملأ قلوبهم غير الحقد والحسد والشر.

انقطعت صلتي بالحزب تقريباً. فلم يكن في الرمادي كلها شيوعي واحد. لم يكن هناك شيوعي من أهل البلد على الأقل. ولكني وجدت رفيقين، مدرساً من أبناء دورتي الدراسية في دار المعلمين العالية، وطبيب المعارف، الدكتور رياض وهو شيوعي من لبنان، وكلاهما يسكن الفندق الذي أنا فيه.

وقد يتساءل القارئ: وكيف اكتشف أحدكم أن الآخر شيوعي مثله؟ لقد كنت أنا وزميلي المدرس يعرف أحدنا الآخر. أما الدكتور، فكان على صلة مع كبار المسؤولين في الحزب في بغداد، وقد أخبروه بأمرنا. فكشف نفسه أمامنا دون خوف.

قد يتعجب القارئ مما أخبرته عن أني كنت أقضي أكثر الدروس في الدعاية للمبدأ الهدام، ولكن ألم يسمع ـ بعد قيام ثورتنا المباركة ـ شكاوى من بعض تلاميذ المدارس ـ القوميين منهم وحدهم ـ عن أن الرفاق الشرفاء من مدرسيهم لا يعلمونهم شيئاً وإنما يقضون الدرس في الدعاية الحزبية. إن الشيوعي يعتقد بأن تعليم الماركسية للطلاب ونشر الشيوعية بينهم هي أنفع كثيراً لهم وللبلد من تدريسهم قانوناً رياضياً أو فيزياوياً أو درساً في اللغة الإنكليزية أو العربية.

وكان أهل البلدة كلهم ـ ولا أدري كيف ـ يعلمون بنا نحن المدرسين الاثنين شيوعيان. ولكننا لم نكن لنهتم بذلك.

من الحوادث الطريفة التي حدثت على مرأى ومسمع مني، والتي

لم أستطع فهمها إلاّ بعد مدة طويلة، أن جماعة من عمال النفط ومهندسيه قدموا إلى الرمادي للتحري عن النفط هناك. ونزلوا في فندقنا ذاته. وفي ذات ليلة كانت لديهم حفلة أُريقت فيها العشرات من قناني البيرة حتى سكر العمال ومن معهم من موظفي شركة النفط. وكان بينهم بالطبع بعض الرفاق الشرفاء، وقد انكشف الرفاق الشرفاء أيضاً حين غلبهم السكر. كان الحزب الشيوعي العراقي وما يزال يهتم أكثر ما يهتم بفئتين من العمال: عمال النفط وعمال السكك الحديد، لأنهم يسيطرون على أخطر وسيلتين من وسائل الحرب، النفط والقطارات.

كان من الجالسين في الفندق على موائد الشرب من العمال صديق لنا من أهل الرمادي، وأظنه كان مترجماً أو ملاحظ عمال في الشركة. وسمعت أحد العمال الشيوعيين السكارى يخاطبه: أستاذ، مع أنك لست من طبقتنا العاملة وإنما أنت وطني فقط، فإننا نحبك.

ورحت اسأل نفسي: وطني فقط، لست من الطبقة العاملة وإنما أنت، وطني فقط؟ ما معنى هذا، وعرفت بعد مدة معنى هذا القول الشيوعي: مع أنك وطني ولست شيوعياً. فهناك كما ظهر بعد ذلك فرق كبير بين الوطنية والشيوعية. يكفي أن نستشهد بهذين الاسمين: الصين الوطنية والصين الشيوعية. رغم أن الصين المسماة وطنية ظلماً وعدواناً مثل سيء على المقصود بكلمة وطنية. ولكن الشيوعيين يقصدون بهذه الكلمة نفس ما يقصدونه بها حين يطلقونها على الصَين الوطنية. فالوطنية والقومية إنما هي خرافات برجوازية في نظر الشيوعيين. أما سمعت قول لينين الذي أصبح شعاراً للشيوعيين في العراق وفي سواه: يا عُمال العالم اتحدوا. فأنت إذا فسرته تدرك منه أن العامل الإسرائيلي صهيون بن حسقيل هو أقرب إلى العامل العراقي

محمد بن حسين، من الأستاذ كامل الجادرجي مثلاً. لأن صهيون عامل، بينما ليس الأستاذ الجادرجي سوى برجوازي.

إنهم - وأعني الشيوعيين - يفسرون نشوء القومية كما يأتي. وطبيعي أن هذا التفسير أرويه تفسير مبسط:

كان الإقطاع هو نظام الحكم السائد في أوربا. ولم تكن هناك من دولة بالمعنى الحديث لها. كانت هناك دوقيات يترأس كل دوقية منها أمير إقطاعي. وكانت الحروب والمنازعات قائمة بين هذه الدوقيات. كنت تسأل فلاحاً مثلاً: ما أنت؟ فلا يجيبك بأنني بريطاني أو ألماني مثلاً وإنما يجيبك أنا من الدوقية الفلانية.

ثم برزت الطبقة البرجوازية على المسرح، إنها تبحث عن الأيدي العاملة الرخيصة لتستغلها وعن المواد الخام لتصنع السلع منها، وعن الأسواق التجارية لتبيع تلك السلع فيها. وألغت الإقطاع وحررت الفلاحين، فحصلت على الأيدي العاملة. ولضمان الأسواق والحصول على المواد الخام كان لابد من استعمار البلدان الآسيوية والأفريقية. ولكن أتستطيع دوقية البندقية مثلاً أن تحتل الهند. وهكذا توحدت الدوقيات وتألفت الدول، فهذه ألمانيا وهذه إنكلترا، وهكذا ظهرت القوميات.. فهذا ألماني وهذا إنكليزي.

هذا هو التفسير الشيوعي - المبسط بالطبع - للقومية ونشوئها، فهي إذن - وأعني القومية - مجرد حيلة برجوازية للحصول على الأيدي العاملة والمواد الخام والأسواق للحصول على الربح.

إن من يقرأ تاريخ الأممية الثانية يجد أنها وجهت - قبيل الحرب العالمية الأولى - نداء إلى العمال بألاّ ينخدعوا بنداءات البرجوازيين فيسيروا إلى الحرب ليقتل العامل الفرنسي أخاه العامل الألماني. وقد فشلت الأممية الثانية في مهمتها طبعاً حين انقلب بعض أقطابها أنفسهم

ـ دعاة الحرب ـ وقوميين، ربما متآمرين أيضاً.

ومن هنا كانت مناداة الشيوعيين: نحن أخوان اليهود. طبيعية من وجهة النظر هذه بالإضافة إلى سيطرة الشيوعيين على ماكنة الحزب.

كان فهد في بداية الأمر ـ متجبجباً ـ من اليهود متخوفاً منهم، متشككاً بهم. فلم يستطيعوا النفوذ إلى الحزب الشيوعي العراقي. وألف اليهود العراقيون بإيعاز من الصهيونية العالمية طبعاً فيما بينهم وبالاشتراك مع بعض العراقيين من غير اليهود حزباً شيوعياً وراحوا يصدرون جريدتهم السرية ـ وحدة النضال ـ وكان مما يسوء فهد ورفاقه وجود حزبين شيوعيين في البلد. ودارت مفاوضات بين الحزبين الشيوعيين للاندماج والتوحد.

وكان حزب فهد هو الأكبر والأقدم. فكان طبيعياً أن يندمج جماعة ـ وحدة النضال ـ فيه. واشترط فهد على قادة وحدة النضال ـ اليهود ـ في الأكثر عدا اثنين أو ثلاثة أن يدخلوا إلى الحزب الشيوعي العراقي كمجرد أعضاء بسطاء فقط. ولم تكن غاية اليهود من تأليفهم حزبهم الشيوعي هذا سوى الدخول إلى الحزب الشيوعي العراقي والسيطرة عليه فيما بعد، فقبلوا بما عرضه فهد عليهم. وعد الرفيق الخالد فهد قبولهم مكسباً حزبياً عظيماً وانتصاراً رائعاً. فأصبحت ترى خلية شيوعية منظمها عبد تمر مثلاً، وهو نقابي قدير لا أكثر، وتضم ساسون دلال عضواً بسيطاً فيها. وكان ساسون دلال ممن درسوا الماركسية وتضلعوا فيها في الحلقات الماركسية في التنظيم الصهيوني. لم تكن لتخفى على الصهاينة إمكانية استغلال الشيوعية والأحزاب الشيوعية وخاصة في الوطن العربي لمآربهم الخاصة. فأعدوا نخبة من شبابهم لذلك ودرسوهم الشيوعية حتى أصبحوا أساتذة فيها.

وكان عبد تمر يقف مشدوهاً وهو يرى إلى معلومات الرفيق

ساسون وثقافته الماركسية الواسعة وإلى جهله هو.

تلك هي بداية الغزو الصهيوني للحزب الشيوعي العراقي.

وما لبث اليهود أن اتبعوا الأساليب التي يتقنونها ويملكون كل مقوماتها: من أموال ومغريات وخمور. وسرعان ما نجحوا في مهمتهم فألفوا العصبة الصهيونية التي قبل أعضاؤها بعد حلها أعضاء في الحزب الشيوعي العراقي دون ترشيح من أحد وتزكية كما جاء في إفادة يعقوب مير مصري نفسه.

إن حكومة العهد البائد لم تكن معتدية علي حين فصلتني من العمل. فقد استطعت بعد فصلي بأشهر قليلة أن أجد لي عملاً في شركة نفط البصرة كنت أتقاضى منه مثل الراتب الذي كنت أتقاضاه من الحكومة. ثم ما لبثتُ أن عينت مستخدماً في دائرة حكومية.

أما الآن، فقد فصلت بناء على تقرير كاذب رفعه ضدي شيوعي يسيطر على شؤون الدائرة رغم أن مديرية الأمن برأتني بعد التحقيق من التهم التي أسندها هذا التقرير إليّ.

وأصبح الاشتغال في شركات النفط لا يتم إلاّ عن طريق مديرية شؤون النفط. وهي لا توافق إلاّ بعد استحصاله على موافقة وزير النفط الآن ووزير الاقتصاد سابقاً. ووزير الاقتصاد رفض الموافقة على طلبي بالموافقة على اشتغالي في شركة النفط. لماذا؟ لأنني موظف مفصول.



الحلقة السابعة عشرة

العدد ١٤٦٨

التاريخ ١٧/٩/١٩٥٩

في هذه الزحمة من الذكريات المريرة عما عشته سنوات ثماني في تجربتي الشيوعية المريرة، كدت أنسى حادثة، ما كنت أحسبها مهمة في حينها. لكنها الآن تظهر لعين خيالي تحت ضوء جديد، حافلة بالمغازي والعبر. كنت أعرف أن الشيوعية ملحدة منذ اللحظة الأولى التي ربطت فيها مصيري إلى عجلة تلك العربة السوداء التي يجرها الحصان الشيوعي الأعمى، في سيره المرسوم. ولكن هذه الحادثة أكدت لي ذلك بصورة أكثر.

ففي الصيف ـ العطلة الصيفية ـ من عام ١٩٤٨ أوقفت. وقضيت في موقف السراي قرابة الشهرين، نقلت بعدهما إلى الموقف العام، فكنت كالطالع من دركات الجحيم إلى رفارف الجنة.

وكان وقت الغروب، حين يولي يوم من أيام التوقيف دون نتيجة، دون إطلاق سراح أو زيارة من أهل أو صديق. كان وقت الغروب من أشجى الأوقات. فالشمس الغاربة تلقى ظلالاً من أرجوانها الدموي الشاجب على جدران السجن، وأعباء من الهم على النفس، يشعر

المرء بحنين قوي إلى عوالم مجهولة، إلى مرافئ تزحمها الأشرعة البيض التي تسيل عليها من الغروب حمرة خفيفة، وإلى مدن مضيئة وأناس ودودين محبين.

وفي ذات غروب، رأيت الموقوفين يتحلقون حول عملاق غريب الخلقة، ضخم الهامة كث شعر الرأس واللحية، كأنهم العصافير تحتشد حول لقلق. كانت قامته الشامخة تبدو مرتفعة عن رؤوس المحيطين به، من بعيد. كان واجماً، كأنه يعيش في عالم غريب.

كان موقوفاً جديداً جيء به اليوم من أحد المراكز، ولكنه لم يكن ككل الموقوفين، إنه روسي هرب من روسيا بعد سنوات قليلة من ثورتها الاشتراكية، وقد عاش في إيران طوال هذه السنوات حتى وصل إلى العراق. وها هو ذا يلقى القبض عليه لدخوله الأراضي العراقية دون جواز سفر. ذلك ما علمناه فيما بعد.

وكان بين نزلاء الموقف شيخ أقطاعي متهم بجريمة قتل. وحين رأى الشيخ هذا العملاق الروسي، وجهه علينا ـ نحن الموقوفين الشيوعيين ـ قائلاً: إنك روسي، فاذهب إلى أولئك الشيوعيين فإنهم جماعة الروس.

وأقبل الروسي علينا حاملاً تحت إبطه حصيرة بالية تسكنها من القمل والبق ـ الذي يسميه العوام تخته كلس ـ أسراب. وأويناه، ثم قدمنا له ما تيسر من طعام. وبعد ساعتين قضاهما وهو يلتهم الصمون والجبن والتمن والتمر والبطيخ والكباب وسواها من ألوان الطعام المجموعة من هنا وهناك. اتكأ على وسادته ومدد رجليه وبان على جسمه ارتخاء الراحة الطويلة.

وسألناه: لم هرب من بلاده. من الجنة الشيوعية التي لا يمكن أن

يهرب منها إلاّ جاسوس أو مجنون. وأجاب الروسي بلهجة عربية محطمة: كنت أعمل حنطة ـ فعرفنا أنه كان فلاحاً ـ صارت الثورة. تغير كل شي، هناك لا يوجد ـ الله كريم ـ ولا يوجد شيخ. جاءوا إليّ فقلت لهم إنني متعب وأريد أن أستريح، فقالوا: تشتغل، تأكل، لا تشتغل تموت. وجدوا لي عملاً مريحاً في معمل لصنع الخيوط، ولكني هربت رغم ذاك.

وأعدنا عليه السؤال: ولماذا هربت؟ فأطرق وتجعد وجهه كما لو كان يتعرض لألم فظيع: رايتهم يقتلون الناس، رايتهم بعيني هذه. وفي الليل كانت أصوات الاطلاقات تتردد بين الحين والحين معلنة عن ضحايا جدد.

وضاقت صدورنا من تملصه من الإجابة فكررنا عليه السؤال عن السبب الذي جعله يهرب من جنة الله على أرضه، فأجابنا بسؤال: وأنتم لماذا تهربون من بغداد؟ لقد كان يحسبنا يهوداً حاولنا الفرار إلى إسرائيل فألقي القبض علينا. وحين أنبأناه بأننا مسلمون، وأن من بيننا بعض المسيحيين وليس فينا يهودي واحد، اطمأن ولان وجهه، ثم مد يده تحت وسادته وأخرج فرعين من فروع شجرة ما مشدودين بحبل، على هيئة صليب. ولوح لنا بالصليب وقال: هربت من أجل هذا. وفهمنا ما عناه. لقد فر خوفاً على دينه. وتغامزنا عليه، وهمس أحدنا للآخر بأن قال بصوت عال فمحدثنا لا يفهم العربية تماماً، أحمق، وهل الدين خبز يؤكل أو ثوب يلبس أو بيت يسكن فيه، لتهرب من أجله؟ وماذا تريد من الحياة أكثر من طعامك وملبسك وسكناك؟ وقد هيأت الثورة كل هذا لك.. يابليد. وهتف أحدنا وهو منكت ناجح: خوفاً على صمونة الدين أن تؤكل.

عجيب أمر هؤلاء الشيوعيين. الطعام واللباس والسكنى. ذلك هو كل ما يشغل أذهانهم، عفواً يجب أن نضيف الجنس إليه. إذن، فما الفرق بين الحيوان والإنسان، وكلاهما يأكل ويشرب؟ إنهم يجيبونك بأن للإنسان فنوناً تخصب حياته من شعر وموسيقى ورسم ونحت وتمثيل وغناء...

ولكن المرء يسائل نفسه: أي شعر أي موسيقى وأي غناء؟

شعر عن الخبز والكساء، وموسيقى عن إضراب العمال في معمل فورد للسيارات مطالبين بزيادة أجورهم عشرين دولاراً في اليوم، وغناء عن مجزرة كركوك والدور المشرف الذي لعبته القوى الوطنية حتى ما يسميه الشيوعيون نضالاً أو كفاحاً، لا يستهدف سوى الخبز والكساء.

مسكينة هي البشرية. تظن نفسها ارتقت خلال العصور. وأي ارتقاء والشيوعية مبدأ يدين به ربع سكان العالم؟

أي فرق بين البابليين القدماء الذين عاشوا قبل المسيح بآلاف السنين وبين الشيوعيين الذين يعيشون في القرن العشرين؟

لقد عبد البابليون آلهتهم من ايلو وتموز وعشتار، في سبيل المطالب المادية لحياتهم اليومية. كانوا يقدمون القرابين إلى الآلهة ويتزلفون إليها لتنعم عليهم بالمطر الغزير والحصاد الوفير والجداء والعجول. ثم ارتقت البشرية وظهر فيها الأنبياء أمثال المسيح ومحمد، وحاول الأنبياء أن يرفعوها، أن يعطوا الخلود هذه الأمنية العزيزة على الأنسان، لروح الأنسان فحدثته كتب السماء عن خلود الروح وعن البعث وعن العالم الآخر، ثم جاء الفلاسفة وبالطبع كان هناك فلاسفة أيضاً حتى قبل ظهور الأنبياء فحدثوه بمثل هذا الحديث، حتى إذا ظهر اليهودي التائه، كارل ماركس أرجع البشرية القهقرى إلى عصورها

الأولى فأصبح الخبز والكساء والجنس كل ما يشغل أذهان مقتنعي فلسفته اليهودية الملحدة وحياتهم.

لقد سألت إحدى المجلات، المؤرخ البريطاني الكبير توينبي عما إذا كان قد عرف شيئاً عن الشيوعية أو قرأ عنها. فأجاب أنه قرأ عنها، ولكن ليس في كتب ماركس وانجلز ولينين، وإنما في التوراة، كتاب اليهود المقدس.

والحق أن توينبي مصيب فيما قال. فلو نظرنا إلى الكومويونات الإسرائيلية لوجدناها قرى يطبق فيها نظام هو توأم للنظام الشيوعي. فمن أين أخذ اليهود ذلك النظام؟

لقد وجدوه في توراتهم. كما أن أبا الشيوعية نفسه، كارل ماركس، اليهودي الذي تظاهر ـ كذباً ورياء ـ بتغيير دينه اليهودي، واعتناق المسيحية.

إن التاريخ العربي مليء بأسماء اليهود الذين تظاهروا كذباً باعتناق الإسلام، حتى إذا اطمأن لهم المسلمون عاثوا بالدين وتعاليم النبي الكريم وأقواله ما شاء لهم العبث.

وليست قصة كعب الأحبار اليهودي الذي تظاهر باعتناق الإسلام، وما زوره على النبي العربي الكريم من أحاديث وما لعب من أدوار قذرة في سياسة الدولة الإسلامية، ببعيدة عنا.

إننا حين نسمي الشيوعيين المحليين (أخوان اليهود) فإنما نعلي من قدرهم. فهم ليسوا أخواناً لليهود، كلا، لم يرتفعوا إلى هذه المنزلة، وإنما هم خدم اليهود وعملاؤهم وجواسيسهم المجانيون والمأجورون أحياناً، وعتلاتهم المسخرة.

لقد استطاعت اليهودية العالمية بما لها من نفوذ واسع أن تؤلب العالم كله على هتلر، عدوهم اللدود. وحتى الاتحاد السوفيتي استطاعت أن تحوله من حليف لألمانيا الهتلرية إلى عدو لدود لها. حتى وقف الكاتب السوفياتي اليهودي ايليا أهرنبرغ يقول: يجب أن نبيد هؤلاء الألمان، ونذبح أطفالهم ونشرب دماءهم.

إنه الحقد اليهودي الخسيس يتكلم، وإلاّ، فما ذنب الشعب الألماني إذا كان هتلر مجرماً سفاحاً؟ ألم يكن الشعب الألماني نفسه ضحية لجنون هتلر.

وكاد نجم اليهود في الاتحاد السوفياتي يأفل حين اكتشفت الجرائم البشعة التي قام بها جماعة من الأطباء اليهود في الاتحاد السوفيتي. فقد ثبت أنهم هم الذين قتلوا الكاتب الروسي الشهير مكسيم غوركي وسواه من الشخصيات الشيوعية البارزة. ولكن اليهود هناك نجحوا في رد الاعتبار إليهم وإعادة ثقة الناس بهم. فطوحوا بـ بيريا. وكانت التهم التي أدين بها، تهمة تقول أنه لفق تهماً باطلة ضد الأطباء اليهود.

كان الرفاق اليهود يحدثوننا إبان الحرب الفلسطينية بما كانت محطة إسرائيل تذيعه من أن الحرب الفلسطينية إنما هي حرب بين التقدمية اليهودية وبين الإقطاعية العربية الرجعية. وكان أولئك الحساقلة (نسبة إلى حسقيل) يمنوننا بأن إسرائيل ستصبح ملاذاً للأحرار وهم يعنون الشيوعيين المضطهدين في كل البلاد العربية، بل في الشرق الأوسط كله.

إن الشيوعيين على رغم الشعار الذي يرفعونه من قول كارل ماركس (الأنسان أثمن رأسمال في العالم) هم أعدى أعداء الأنسان. إنهم يسحقونه سحقاً... يسحقون روحه ويجردونه من كل حق في

التعبير عن أفكاره وعواطفه. إنهم حين يدعون بفناء الأنسان النهائي الذي لا بعث بعده وبأن الحديث عن الروح والجنة والجحيم، إنما هو حديث برجوازي سخيف، يقللون من قيمة الأنسان ويحرمونه من الخلود الذي بشرته الأديان جميعاً به. إنهم يجعلونه مساوياً للذبابة أو النملة وأية حشرة حقيرة تموت دون بعث أو معاد. إنهم يسحقون الفرد بحجة المحافظة على مصلحة المجموع، ولكن، مم يتألف المجموع؟ أليس مؤلفاً من أفراد. فإذا حطمنا كل فرد، أفلا يعني ذلك أن المجموع يصبح مؤلفاً من وحدات محطمة وأنه يصبح بالنتيجة محطماً. وماذا ناله المجموع من خيرات الجنة الشيوعية؟ الخبز الأسود؟ أم الملابس الرثة؟ أم الثلاجة التي يجب أن ينتظر ستة أشهر قبل أن يأتيه الدور ويصبح له الحق في شرائها؟

لقد سيطرت النظرة المادية بالمفهوم العامي لهذه الكلمة على أفكار الرفاق العراقيين الشرفاء، فرأيت بعض كبارهم يشترون العمارات التي تكلف كل عمارة منها ستين ألف دينار، ورأيت بعضهم يتزوجون زيجات يدعون إلى الاحتفال بها خمسمائة صديق إلى مربع الامباسي.

تلك هي الشيوعية وهؤلاء هم الشيوعيون، فحمداً لله الذي أنقذني من هذا الضلال الذي كنت أتخبط فيه حين كنتُ شيوعيّاً من الشيوعيين.



الحلقة الثامنة عشرة

العدد ١٤٦٩

التاريخ ١٨/٩/١٩٥٩

مما يسعدني حقاً أن تتاح لي فرصة التحدث عن الشعر بعد أن نسف الكابوس الأحمر الذي ساد العراق منذ قيام الثورة تقريباً حتى دفع سيادة الزعيم الأوحد الفوضويين وأساليبهم، كل أسس الشعر ومواضيعه. ولم يرتفع خلال هذه الفترة الطويلة.. حتى صوت واحد من تلك الأصوات العذبة الرخيمة التي رفعت رأس الشعر العراقي عالياً في كل أنحاء الوطن العربي. أين هي الشاعرة العربية العظيمة الآنسة نازك الملائكة؟ وأين هو صوت الشاعر المبدع الأستاذ علي الحلي؟ أبدلا من قصائده المتأججة بالنار عن الجزائر وعن ثورة الشعب العربي في كل مكان، صرنا نقرأ عشرين قصيدة من برلين و٥١ قصيدة وسواهما من الدواوين الحمراء السخيفة؟ كما أنني ـ أنا نفسي ـ لم أكتب خلال هذه الفترة سوى قصيدة واحدة عن البطلة العربية جميلة بوحيرد وقد ضاعت النسخة الوحيدة منها، مع ما ضاع من قصائد ومقالات أثناء هجوم الرفاق (الشرفاء جداً) على إدارة جريدة الحرية.

لقد أتضح لي الآن سبب احتضار الشعر بل موته في البلدان التي تحكمها الأحزاب الشيوعية. إن الشيوعية والشعر ضدان لا يمكن أن يجتمعا بأية حال من الأحوال. ولقد أتاحت لي مجلة الوادي فرصة للحديث عن الشعر، فقد نشرت في إحدى أعدادها الأخيرة هذه الفقرات:

كتب الأستاذ الشاعر بدر شاكر السياب تحت عنوان ـ الشعراء الشيوعيين ـ وهي فقرة مما ينشره متسلسلاً في إحدى الجرائد تحت عنوان ـ كنتُ شيوعيّاً ـ وقد جاء فيها هذا الرأي الغريب: لقد قرأت مثلاً، شعر الكثيرين من الشعراء الشيوعيين من ناظم حكمت وبابلو نيرورا وأراغون وماو تسي تونغ والشاعر السوفياتي سيمونوف فوجدته سخيفاً، بل وجدت الكثير منه لا يستحق حتى أن يسمى شعراً. ولكنني كشيوعي وكعضو في الحزب، كنت ملزماً بالدفاع عن هؤلاء الشعراء والادعاء بأنهم أعظم شعراء العالم وأن شاعراً سخيفاً كناظم حكمت هو أعظم من الشاعر الإنكليزي العبقري ت. س. أليوت أو إيديث ستويل، فإيديث ستويل شاعرة دينية. أما ت. س. أليوت فهو شاعر الموت والإقطاع والاستعمار العالمي. ولكني كنت بيني وبين نفسي معجباً بأليوت وإيديث ستويل غاية الإعجاب، بل إنني كنت معجباً حتى بالشاعر الألماني العظيم رلكة الذي يتخذه نقاد الأدب الشيوعيون مثالاً على الشاعر الرجعي المتشائم يعبر عن آمال طبقة زائلة وهي الطبقة الإقطاعية في حالة هذا الشاعر، فلا يملك أن يتشاءم بل ويتمنى الموت. ولكن من يستطيع القول بأن رلكة أعظم شاعرية وأكثر إنسانية وتقدمية من سيمونوف أكبر شاعر سوفياتي معاصر؟

لقد نشرت وريقة حمراء قبل مدة قصيرة ترجمت من شاعر صيني

يتحدث فيها عن: البيادر سوف تتوسع فتصبح كالتلال، والمخازن ستمتلئ بالقمح، وسوف أستيقظ في الصباح الباكر، فأقود البقرة إلى الحقل. . إلى آخر هذا ـ الخلط ـ الذي نهين الشعر والشعراء إذ نحن سميناه شعراً. ولكن الشيوعيين يعتبرونه شعراً عظيماً.

هذا ما كتبه الشاعر بدر شاكر السياب هو أمر يدعو إلى العجب العجاب، خاصة إذا ما صدر من شاعر كتب قبل أسبوعين في نفس هذه السلسلة من المقالات التي يدبجها بأنه أشعر من معروف الرصافي. ولسنا بصدد المقارنة بين شاعرية الرصافي والسياب، ولكننا أوردنا ادعاءه هذا لنذلل على أنه شاعر كبير بمنظار نفسه، وهو شاعر لا ينكر شاعريته حتى المناوئون له من خصومه، وهذا هو نفس ما يدعو إلى العجب من رأيه هذا. فهل كانت ثمة قوة في الأرض بإمكانها أن ترغم الشاعر معروف الرصافي أن يقلل من منزلة المتنبي الشعرية لأن المتنبي مداحاً للأمراء والملوك بخلاف الرصافي الذي كان يأنف من مثل هذا المدح الرخيص أو ترغمه على أن ينكر شاعرية شوقي لأن شوقي هذا ولد بباب اسماعيلا والرصافي ولد بدار أبيه؟

يقول السياب: ولكنني كشيوعي وكعضو في الحزب الشيوعي كنت ملزماً بالدفاع عن هؤلاء الشعراء السخفاء. فهل يعقل أن حزباً يحترم نفسه يرغم شاعراً من أعضائه على الانحراف في تفكيره خاصة إذا كانت منزلة هذا الشاعر لا تقل عن منزلة معروف الرصافي وأكثر شاعرية منه كما قال عن نفسه. ثم إن في الأحزاب الشيوعية الآن شعراء لا يؤمنون بالشعر الحر ولم يعالجوا نظمه ولم يتحمسوا للشعراء الشيوعيين لمجرد أنهم شيوعيون فهل طردهم الحزب من عضويته أم وجه إليهم إنذاراً.

الغريب من أمر أخينا السياب أنه يريد أن يتلافى خطيئة بزعمه فيقع بخطأة أخرى لا تقل عن سابقتها وهو زعمه الآن بأن ناظم حكمت وماو تسي تونغ وبابلو نيرودا من السخفاء: كان الأجدر بشاعر كالسياب أن يعلن بأنه لا تروق له طريقتهم في النظم أو صورهم من بين الأخيلة أم أنهم سخفاء فسامحك الله يا سياب على أحكامك الأدبية حين كنتُ شيوعياً أسخف أم أحكامك الجديدة بعد أن صرت مناوئاً للشيوعية وللشعراء الشيوعيين.

تتساءل المجلة: فهل يعقل أن حزباً يحترم نفسه، يرغم شاعراً من أعضائه على الانحراف في تفكيره؟

وأرد فأقول: ولكن هل يحترم الحزب الشيوعي نفسه؟

لقد دلت الأحداث كلها على عكس ذلك. فالحزب الذي ينشر في جريدته العلنية ـ اتحاد الشعب ـ مقالات يشجع فيها الفوضوية والإجرام وقتل المواطنين الأبرياء، ويسمى إجرام قطاع الطرق (القصابين) ومحاكمتهم الشعبية في عين زالة وسواها، وعياً للواجب الوطني، ثم ينشر بعد ذلك، في بيانه الموسع، أن أمثال هذه الحوادث كانت اندفاعات فردية خاطئة... إن حزباً كهذا لا يمكن أن يحترم نفسه ولا الجماهير التي يدعي أنه يمثل أوسعها.

إن علة الحزب الشيوعي العراقي منذ تأسيسه حتى الآن والسبب في كل المعارك التي حدثت داخل قيادته، والانشقاقات والانحرافات التي طرأت عليه، هي أنه لا يؤمن بالشعب العراقي... وإن تباكى عليه وادعى بأنه يمثل مصالحه ويدافع عنها.

لقد كان الحزب ومازال يحلم بأن الشيوعية ستتحقق في العراق لا عن طريق كفاح الشعب العراقي ذاته ولكن عن طريق الجيش الأحمر

(العظيمي) الذي سيجتاحه. . . وحينذاك ينصب سكرتير الحزب الشيوعي رئيساً للوزراء، وأعضاء لجنته المركزية وزراء.

هذا هو سبب المنازعات التي حدثت بين فهد وبين عشرات من أعضاء لجنته المركزية كداود الصايغ مثلاً من أجل الاستيلاء على سكرتارية الحزب. لقد استغل أحد أعضاء اللجنة الشيوعية للحزب الشيوعي العراقي، سفر فهد إلى موسكو فاستولى على مطبعة الحزب السرية لنفسه، وأصدر منشوراً يتهم فيه فهد بالخيانة. وهكذا إن هذا يدل على الرغبة التي تحرق قلوب القادة الشيوعيين، في أن يكون كل واحد منهم سكرتيراً للحزب. حتى إذا جاء الجيش الأحمر المظفر كان هو ذلك الرفيق الزعيم في حزبه، رئيساً للجمهورية العراقية الشعبية.

ولو كان الحزب الشيوعي العراقي يؤمن بالشعب العراقي حقاً لما سحق مشاعره ومعتقداته وآماله سحقاً، وراح يتعاون مع اليهودية العالمية في سبيل طرد العرب الفلسطينيين من بلادهم وإعطائها لليهود. . ليكون موقفه مماثلاً لموقف موسكو. تتناسى ـ الوادي ـ كما يبدو، كيف ينظر الشيوعيون إلى الأدب، إنهم يعتبرونه محتوى بالدرجة الأولى وربما بالدرجة الوحيدة. أما الشكل، أما الأسلوب، أما الاخيلة، أما الصياغة، فتلك خرافات برجوازية سخيفة. إن كل فكرة ليست ماركسية لينينية ستالينية، فهي فكرة خاطئة، وكل من عبر عنها فهو خاطئ.

أو ما رأيت ذلك اللغو السخيف الذي تنشره الصحيفة المناضلة ـ اتحاد الشعب ـ مترجماً عن الشعر الصيني المعاصر؟ لو لم تعتبر الجريدة ذلك اللغو شعراً. . وشعراً جيداً. . لما كلفت نفسها عناء نشره على القرّاء العرب الذين عرف تاريخهم القديم شعراء عباقرة

كأبي تمام والمتنبي والشريف الرضي، وعرف حاضرهم أيضاً شعراء عباقرة كأحمد شوقي وعمر أبي ريشة ونزار قباني ونازك الملائكة وأدونيس ويوسف الخال وسليمان العيسى وبدوي الجبل وسواهم وسواهم.

إن أعظم شاعر معاصر هو دون منازع الشاعر الإنكليزي ت. س. أليوت ولكنه شاعر رجعي يعبر عن آمال الطبقة الرأسمالية الزائلة على حد تعبير الشيوعيين. إنه يعبر عن أفكار دينية وفلسفة مثالية.. فهو يعبر إذن عن أفكار رجعية خاطئة، فشعره إذن خطأ في خطأ.. وإذن.. فهو ليس شاعراً جيداً. كلا.. بل إنه ليس شاعراً على الإطلاق، بل إن الشيوعيين تمادوا في غيهم فوصفوه بأنه ـ نظّام غير مجيد في نظمه.

لقد نشرت مجلة ـ سوسياتي آند سايتس ـ الأمريكية الشيوعية مقالاً عن أليوت، جاءت فيه هذه الآراء التي أشرت إليها، فكيف سارت المجلة المناضلة في نقدها.

أخذت آراء أليوت النقدية، وهو ناقد كبير بالإضافة إلى كونه شاعراً كبيراً، ثم راحت تظهر التناقض بين هذه الآراء، ثم تطبق بعض آرائه هو نفسه، في الشعراء الآخرين على القصائد الأليوتية نفسها... فكانت النتيجة المدهشة أنه ليس شاعراً، إن أليوت يكتب مثلاً مقالاً عن شللي فيمتدح الفورة العاطفية في شعره، ثم يكتب مقالاً آخر عن شاعر معاصر فيعيب عليه غلية العاطفة على شعره. إن هذا تناقض في نظر المجلة الشيوعية التي تعتنق فلسفة توصيها بـ ـ ألاّ تنظر إلى الأشياء في معزل عن ظروفها ـ. إنها لا تعلم أن ما كان يعتبر من محاسن الشعر في الفترة الرومانتيكية أصبح يعتبر من مساوئه في العصر

الحاضر. وإن غلبة العاطفة على الشعر التي كانت من خصائص كبار الشعراء الرومانتيكيين أصبحت الآن من عيوب الشعر.

كان بودي أن أترجم للقارئ نماذج من الشعر الشيوعي، من شعر كبار الشعراء الشيوعيين ليحكم بنفسه إن كان ذلك الشعر سخيفاً أم لم يكن. وقد فتشت مكتبتي التي كانت عامرة ذات يوم بمختلف الكتب الشيوعية من أدبية وسواها.. فلم أعثر فيها إلاّ على ديوان ـ أصدقاء وأعداء ـ للشاعر السوفياتي المعاصر كونستانتين سيمونوف وإلاّ على كتاب اسمه ـ تسع عشرة قصيدة لماو تسي تونغ ـ وسأترجم نماذج من شعر هذين الشاعرين الشيوعيين الكبيرين في عدد قادم من أعداد (الحرية).

إن ديوان سيمونوف هذا مطبوع في دار اللغات الأجنبية للنشر في موسكو عام ١٩٥١. أما ديوان ماو تسي تونغ فمنشور في دار اللغات الأجنبية للنشر في بكين. فليس هناك من مجال للرفاق الشرفاء جداً لأن يدعوا بأن ـ الاستعماريين الأمريكان والإنكليز ـ هم الذين حرفوا تلك القصائد الشيوعية العظيمة حين ترجموها إلى اللغة الإنكليزية. هذا وسأحاول أن أترجم هذه القصائد بأجمل أسلوب أستطيعه.

إن سيمونوف هذا، كما جاء في مقدمة ديوانه، قد نال جائزة ستالين مرات عديدة، وقد نالها عام ١٩٤٨ على ديوانه ـ أصدقاء وأعداء ـ. إن الشاعر مولود عام ١٩١٥، فهو إذن ليس حديث السن.. فبماذا يحتج الرفاق إذا كانت قصائده سخيفة.

وينبغي لي أن أقول بهذه المناسبة، أن أعظم شاعر معاصر في الاتحاد السوفياتي هو باسترناك، مؤلف ـ الدكتور زيفاغو ـ ولكنه غير معترف به كشاعر عظيم رسمياً، لأن قصائده ليست عن الكفاح وإنما

عن الأزهار والبلابل والبحيرات، ولأنه من ناحية أخرى جاسوس حقير وعميل للرأسماليين الأمريكان دعاة الحرب. بسبب ما جاء في روايته ـ الدكتور زيفاغو ـ من تبيان لسأمه وضجره رغم أنه يعيش في الجنة الشيوعية.



الحلقة التاسعة عشرة

العدد ١٤٧٠
التاريخ ٢٠/أيلول/١٩٥٩

حدثتك أمس، أيها القارئ العزيز عن كونستانتين سيمونوف الذي يعتبر من وجهة النظر الرسمية أي الحزبية ـ أعظم شاعر سوفيتي معاصر ـ وأنبأتك أن ديوانه ـ أصدقاء وأعداء ـ قد نال جائزة ستالين عام ١٩٤٨. وسأترجم لك اليوم إحدى قصائد هذا الشاعر السوفيتي العظيم!! لتحكم بنفسك على ما سبق أن قلته عن نظر الشيوعيين إلى الشعر. لقد فتحت ديوانه هذا كيفما اتفق، فبرزت أمام عيني الصفحة التاسعة والعشرون وفيها قصيدة بعنوان ـ المتوحشون ـ وإليك ترجمتها، وقد تعمدت أن أترجمها بأجمل أسلوب ممكن:

ليس هناك من وحدة أعظم

من

الأطلسي الشاسع الذي هو

أعمق من أن يُسبر غوره

حين تزأر الأمواج المتلاطمة،

كالمدافع،

دون انقطاع بينما المحيط

يهيج

وتأتي أصوات الغرباء

من البار، في ضوضاء جشاء

وكما لو كنت في ساحة

سجن صخرية

أجول على سطوح السفينة

وحيداً

لمدة سبعة أيام، ويداي

مقبوضتان بشدة

وأنا أتبع هذا النظام المتعب

وأوربا تمتد من سطح السفينة

إلى عنبرها

هذه ليست أوربا (ماكيس)

ولاهي تلك التي دافعت

عن الحرية في ميدان قتال

وآثرت أن تموت، على أن

تستسلم

أما هذه التي على سطح السفينة

فقد فضلت أن تبقى لمدة

سنوات سبع

في الولايات المتحدة الأمريكية
لتدير آلة موسيقية في
الطريق،
ولتلمع أحذية النخبة،
ولتنحي وتذل، وتستجدي
عطفهم
وتكون كلبهم الحارس
وعبدهم
إنه عام ١٩٤٦، وأنا في
سفرتي إلى بلدي
لم يطلق قاتل مأجور في روما
حتى الآن، طلقته الحانقة
تمشياً، كما هو معروف جيداً
الآن،
مع مشروع مارشال (أم إنها خطة!)
التي لم يذع أمرها آنذاك
رغم أنها قد تفتحت
مازال (سكاست) وراء القضبان
وإن جولس موخ الاشتراكي
يفكر
في الحياة الخاصة، ولكن

فكره يستأتى

لدى القنبلة المسيلة للدموع

وقذيفة المدفع

إنه لوقت مبكر جداً أن تكون

مدركاً

للاضطراب الذي يتزايد

ولا أفكر بشيء بينما أتطلع

إلى المسافرين المتمددين أمام

عيني

وبأن ذلك الشيخ الشاحب

المتدثر بلحاف محرق الحافة

سيعود بعد الآن بأشهر

قليلة

إلى حلمه القديم،

ويحصل على منصب وزير

ويبيع فرنسا الجميلة، ثانية

وإن ذلك الشاب الحليق،

المسافر إلى تورين

وحقائبه إلى جانبه على أرض

السفينة،

من يربح أكاليل جلاد

كما فعل قبل بضع سنين

أو أن ذلك الرجل، القاصد

أثينا

وقد خرج بكلبه ليستنشق

بعض الهواء

قد يذبح الآلاف هناك

يذبحهم تماماً

دون أن تختلج له ولا عضلة

وأن ذلك الذي عند الدفة...

ولكن هذا يكفي

إننا مازلنا في عام ١٩٤٦

والسفينة تشق طريقها

خلال الأمواج

في رحلتها نحو الوطن

ولاشي أكثر. ولماذا تكترث

بهذا

حين يلتقي ثلاثة رجال على

ظهر السفينة:

يوناني من انعطافة وراء سطح

السفينة،

ورجل يتصبب عرقاً، صفيق

الوجه،

وساقط أخضر الوجه في

كرسي

ليس هناك من حال أشد

وحدة

في البر أو البحر من هذا:

أن تكون بين المتوحشين

هذه هي قصيدة الشاعر السوفيتي المناضل الأستاذ كونستانتين سيمونوف. إن أي طفل في الصف السادس الابتدائي يستطيع أن يكتب موضوعاً إنشائياً عن رحلة له في البحر.. خيراً من هذه القصيدة كما تسمى ظلماً وعدواناً. ولكنك كشيوعي مجبر على الإعجاب بها واعتبارها تحفة من التحف.

ماذا؟ أنت غير معجب بها؟ وبم تعجب إذن؟ بقصيدة الشاعر الرجعي الاستعماري أليوت ـ الأرض الخراب ـ؟ لقد عبر الشاعر في قصيدته تلك عن كل يأس المستعمرين وتشاؤمهم، وهو يرى نظامهم يسير نحو الزوال وإلى انتصارات الاشتراكية في كل مكان.

إن إعجابك بها يدل على وجود رواسب برجوازية أو بتي برجوازية على العقل، في ذهنك هذا هو منطق الرفاق الشرفاء.

وينبغي أن أسارع فأقول، إن هذه القصيدة التي اختارتها المصادفة ليست من القصائد الرديئة في هذا الديون الأحمر. بل لعلها واحدة من أجود قصائده، ولو شئت أن أستشهد برداءة قصائد هذا الشاعر السوفيتي الكبير، لوجب علي أن أترجم الديوان كله.

وإليك الآن جزءاً من المقدمة التي كتبها سكورينو لهذا الديوان: إن سيمونوف شيوعي شاعر، وهو يدرك أن ليس هناك من شيء يسمى بـ الأدب غير الحزبي وأن الأدب الذي يتخذ لنفسه قناعاً من عدم الحزبية هو برجوازي إلى الصميم. إن شعره ككل ما خطه قلمه شيوعي بصورة عميقة وإن عروس شعره فعاله وليست متأملة.

إن شعر سيمونوف تملأه أفكار بطل الحقبة الجديدة، الشيوعي البطل المناضل في سبيل السلام الدائم وفي سبيل سعادة البشر.

ألم تقرأ منذ الثورة حتى الآن ما ينشره الشيوعيون من نظم رديء يسمونه شعراً على صفحات مجلاتهم وجرائدهم، أما قرأت لشاعرهم الأكبر عبد الوهاب البياتي قصيدة نشرها في مجلة الآداب البيروتية يقول فيها:

فالله في مدينتي يبيعه اليهود،

الله في مدينتي قواد

لن أستغل هذا السطر فأقول إنه دليل على إلحاد الشيوعيين وكفرهم. إن البياتي لا يعني كفراً فيما قاله ولعله لا يملك الشجاعة الكافية لذلك، ولكن ما حيلة الرجل وهو (مصلخ ـ عاري) من البلاغة غير متمكن من اللغة العربية، والأسلوب العربي المتين، رغم شهادة الليسانس في الأدب العربي من دار المعلمين العالية التي يحملها. إنه ينوي في قصيدته هذه مهاجمة أدعياء الدين وكيف أصبح الدين وسيلة لربح المال (والله في مدينتي يبيعه اليهود) وأن القوادين والسماسرة أيضاً يستغلون الدين لمآربهم، ويختفون وراء ستارته. ولكنه لم يستطع أن يعبر عن مقصده كما ينبغي أو ما قرأت أيضاً بيته البليغ! الذي يقول فيه:

ومحطم الأغلال يهوى ساخراً

والقيد يحطمه العبيد بصخرة

أرأيت حسن اختيار القافية الثابتة في مثل هذا الوزن؟ ثم تعال وانظر إلى هاتين الصورتين الرائعتين اللتين رسمهما: محطم الأغلال يهوى على أغلاله يحطمها - يهوى فعل مضارع من أهوى، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة سخرية واحتقار. بينما العبيد الآلاف منهم بل الملايين يرفعون بأيديهم صخرة هائلة ويدقون بها على القيد حتى يتحطم. هذا هو الشعر وإلاّ فلا.

هنيئاً للشيوعيين شعراؤهم وأدباؤهم، هنيئاً لهم يهودهم الفلاسفة أو المرتشون أو الذين عملوا مخبرين في التحقيقات الجنائية براتب لا يتجاوز الستة دنانير.

ملاحظة:

بعد أن راجعت ديوان أباريق مهشمة لعبد الوهاب البياتي، تبين أنني قد ركبت صدر بيت ما على عجز بيت آخر نسياناً مني. وإن النص الحقيقي للبيت الذي أردت الاستشهاد به هو:

ومحطم الأغلال يهوى ساخراً

عبر الزمان على الجذوع ببلطة

إنه أجمل كما لا يخفى، خاصة وأن البلطة أكثر ثورية من الصخرة. وإن عبر الزمان هذه قد مدت الصورة بالحياة: نعم، هكذا يجب أن يكون الشعر وعين الحسود فيها عود.

* * *

الحلقة العشرون

العدد ١٤٧١

التاريخ ١٩٥٩/٩/٢١

أثارت كلمة الأخ ـ منجل ـ التي تحدثت فيها عن الرفيق المناضل ـ أبي سعيد ـ الذي كان فيما مضى عضواً في حزب الشعب، ثم أصبح بعد إعدام فهد قطباً من أقطاب حزب فهد. أقول أثارت كلمة الأخ منجل تلك أسراب ذكريات كانت تلهج في نفسي، كنت أحسبها أسراب حمام فإذا هي أسراب جراد. لقد ذكرتني بحادث في موقف الكرخ، كنت سآتي على ذكره حتماً، في هذا الموضع من حديثي بالذات. لأن زمنه وتاريخه هما الآن في هذا الموضع. إن ذكرى تلك الحادث تملأ نفسي اليوم بالمرارة وأنا أتلفت فإذا بـ الانتهازيين كما كنا نسميهم من حزب الشعب وإذا بأقطابه وأبي سعيد يقودون حزب فهد، فهد الذي ظل حتى الرمق الأخير من حياته يحاربهم دون هوادة.

حدثتك عن الفترة التي قضيتها مبشراً بالشيوعية لا مدرساً للغة الإنكليزية في ثانوية الرمادي. وأواصل حديثي اليوم فأقول إن سلطات العهد البائد كانت تخشى من حدوث ما يعكر الأمن. إذا أوفت ذكرى الوثبة في ٢٧/كانون الثاني.. وكان التلاميذ والطلاب هم الذين

تخشى تلك السلطات الرجعية شرهم وتخاف أن يقوموا بتظاهراتهم أو إضراباتهم على الأقل حين تحل ذكرى الوثبة، فقدمت موعد العطلة الربيعية عطلة نصف السنة لتحل ذكرى ٢٧/ كانون الثاني والتلاميذ والطلاب متفرقون هنا وهناك.

وقررت أن أسافر إلى بلدتي في البصرة في هذه العطلة، وهكذا كان. وسمعت الناس في محطة القطار يتهامسون كلما مررت بهم بأن وزارة المعارف قد فصلتني من وظيفتي كمدرس لديها. وكنت أعتقد أن ما قالوه لم يكن غير تكهنات فلو أنني فصلت حقاً لبلغت بقرار الفصل.

وكان أول نبأ تلقيته لدى وصولي قريتي في أبي الخصيب، أن الشرطة جاءت إلى دار أبي باحثة عني وأوصاني أبي بأن أحتاط للأمر لأن رجال الشرطة قد يعيدون الكرة، خاصة إذا سمعوا بنبأ مجيء إلى البيت. وفي اليوم التالي وكان يوماً مطيراً، كنت قد عدت لتوي إلى الدار حافي القدمين موحلهما وكنت أهم بغسل قدمي، حين طرق رجال الشرطة بابنا، وهكذا سرت معهم موقوفاً.

وبعد يوم قضيته في أحد مواقف البصرة نقلت إلى بغداد واستقر بي المقام هناك في موقف الكرخ. وكان مزدحماً بالرفاق وبمنتسبي حزب الشعب وحزب البارتي الكردي. رغم أني قضيت حوالي الأشهر الثلاثة في هذا الموقف فلم يمر بي سوى القليل من الأحداث المهمة.

في ذات اليوم رأيت الرفاق الموقوفين وقد سادهم الوجوم فصمتت أغانيهم وأناشيدهم وانقطعت نكاتهم وألعابهم. وحين سألت عن سر ذلك، أنبأوني بأن الرفاقِ الخالدين فهد وحسين الشبيبي وزكي بسيم ولم يذكروا الرفيق الصهيوني يهودا صديق لأنه كان قد خان، سيشنقون صباح الغد.

واعتصرت نفسي لعل دمعة ـ دمعة واحدة ـ تنحدر من عيني حزناً على الرفاق الثلاثة العظماء فلم تنزل دمعة ولا جزء من دمعة. وتذكرت الياذه فرجيل وهو يتحدث فيها عن أنيس وجماعته وقد اختطفت هولة من هول البحر بعض رفاقهم وبعد أن هبط أنيس وجماعته الساحل وأكلوا وشربوا واستراحوا من تعبهم تذكروا رفاقهم الميتين فبكوهم. هذا هو الصدق في الشعر. فإن الأنسان لا يستطيع أن يبكي مادام في محنة، مادامت حياته، كيانه، وجوده مهددة.. إن البكاء آنذاك نوع من أنواع الترف لا يستطيعه الشخص الممتحن. ولقد كنت من توقيفي في محنة. فلم أستطع أن أبكي الرفاق الخالدين ولكن استعصاء الدموع لم يكن مبعثه مجرد عجزي عن التمتع بترف البكاء، وإنما كان مبعثه كذلك، أمل ـ أمل ظل مخفياً في أعماق نفسي ـ بأن الجماهير الكادحة الغاضبة، لن تترك قوادها للجلاد. وأنها ستهاجم السجن ـ في أطواء هذه الليلة حتى الفجر ـ فتخلص فهد وزمرته من حبال المشانق.

هكذا كان الحزب الشيوعي يعلمنا، أن نظل مؤمنين بالجماهير حتى اللحظة الأخيرة ولكن حزبنا نفسه مع الأسف لا يؤمن بهذه الجماهير كما ينبغي. إنه يتحدث عن الشعب ونضاله وعيناه عبر الحدود ترقب اندفاع جحافل الجيش الأحمر لتحرير العراق وتنصيب سكرتير الحزب الشيوعي رئيساً للجمهورية وأعضاء اللجنة المركزية وزراء.

إن أعضاء الحزب الشيوعي العراقي مازالوا حتى في هذه الظروف بعد أن وجه المنقذ الأكبر اللواء عبد الكريم قاسم صفعته الرائعة إلى وجوه الفوضويين الصفيقة، وانفضت الجماهير عن حزب ـ أوسع

الجماهير ـ وتوالت الانسحابات من الحزب الشيوعي وأبنائه من شبيبة ديمقراطية ورابطة دفاع عن حقوق المرأة يأملون في انبعاث المجد الشيوعي.

إن شقيق زوجتي ـ وهو من أبطال ما بعد ١٤/تموز ورفيق مناضل هددنا في أيام مِحنة الشيوعيين قائلاً: انتظروا... ، انتظروا بعد خمسة أيام فقط ستملأ جثث القوميين شوارع بغداد. لقد كان يحلم بنجاح المخطط الشيوعي الشهير، مخطط القتل والسحل والإحراق...

في صمت الموقف ووجومه ارتفعت أصوات غناء هازج وتصفيق ورقص. ما الخبر؟ هل حطم الشعب العراقي أبواب السجن الكبير؟ أم انتصرت قوى السلام في العالم على معسكر الاستعمار؟ كلا.. إنهم منتسبوا حزب الشعب الموقوفون في الغرفة المجاورة يحتفلون بإعدام فهد عدوهم اللدود. كانت صفاقة منهم ما بعدها صفاقة.

فسبحان مغير الأحوال. لقد أصبح قادة حزب الشعب الانتهازيون الجواسيس العملاء، كما كنا نسميهم نحن الشيوعيين آنذاك ـ هم قادة حزب الرفيق الخالد فهد الذي مازال الحزب الشيوعي العراقي يعتز به فصورته ـ مكبرة ـ معلقة في إدارة جريدة اتحاد الشعب، كما إنها كانت مطبوعة على وصولات التبرع التي كان الحزب الشيوعي يقوم بحملة واسعة لجمعها في نفس الوقت الذي كانت تقوم فيه حملة معونة الشتاء.

ومن الحوادث التي تبدو لي الآن مهمة، تلك المحاضرات التي كان الأستاذان (ج) و(أبو إبراهيم) يلقيانها علينا. وكان الأستاذ (ج) آنذاك من أعضاء حزب الشعب ولكنه كان من الطيبين فيهم.

كانت لدى الأستاذ (ج) بعض الكتب اليسارية، أتذكر منها (تربية سلامة موسى)، وكان يقرأ لنا فصولاً من تلك الكتب ويعلق عليها. وكانت تعليقاته مليئة بالتحامل على القرآن الكريم والدين الحنيف والنبي العظيم والعرب وتاريخهم. وكان الأستاذ أبو إبراهيم لا يعرف من التاريخ العربي غير الحجاج وإلى جانب هذا التنكر الصريح للقومية العربية، كنا نرى أعضاء حزب البارتي الكردي معتزين بقوميتهم مؤمنين بها متمسكين.

لقد كان هناك مجال لعذر الشيوعيين على كرههم للقومية العربية واحتقارهم لها آنذاك، يوم أن كان الخائن نوري السعيد من المتشدقين بالقومية، وكان البيت الهاشمي ركنها الأساسي. أما بعد أن أثبتت القومية العربية أنها القوة الوحيدة التي تستطيع أن تحارب بها الصهيونية والاستعمار وتنتصر، بعد أن اندحرت دولتان من الدول الأربع الكبرى وفي أعقابهما إسرائيل، أمام جبروت القومية العربية الخالدة وهي تهتف (الله أكبر.. الله أكبر). فأي عذر للشيوعيين الشعوبيين خدم اليهود وعملاء القياصرة الجدد إذا هم ناصبونا العداء. لقد نبحوا بها - رياءاً وكذباً وانتهازاً للمكاسب - بعض الوقت، ثم انكشفت حقيقتهم الآن. فإذا هم أشد عداوة لها حتى من اليهود.

بالأمس، كنت أسير في شارع أبي نواس مساء، حين صادفني رفيقان من الرفاق الشرفاء جداً وقد عرفاني. قال أحدهما وهو يخاطب زميله بصوت عال يقصد منه إسماعي: صاير قومي.. أنعل أبوك لابو أبو القومية. ياللحقارة، إن الأنسان الذي يسب قوميته ويعاديها من أجل وعد بأن دخله سيزداد مائة فلس في اليوم، لهو إنسان حقير، وعبد أجير، لا يستحق العيش على أديم وطنه الذي يخونه جهاراً من

أجل لقمة فوق ما يأكل، ومتر من القماش فوق ما يلبس، وكأس من العرق أو البيرة فوق ما يشرب.

وياليت هذه الوعود الحلوة التي يطلقها الشيوعيون ويعلقونها على صدورهم كما يعلقون حمامات السلام المعدنية، تصدق... وبهذه المناسبة، ما بال الشيوعيين الذين كانوا في وقت معين يحتكرون حب الزعيم والإخلاص للجمهورية لأنفسهم وحدهم.. يوم كان الواحد منهم يلبس رباطاً فيه صورة الزعيم يعلق على جانب سترته الأيمن إطاراً معدنياً فيه صورة الزعيم وعلى جانبها الأيسر قطعة من القماش فيها صورة الزعيم.. ما بالهم اليوم لا يحملون أية صورة من صوره في صدورهم؟ لماذا؟ لأنه أعلن لشعبه وللعالم أجمع بأنه لا يؤمن بغير الشعبية النبيلة، وبأنه عدو للفوضويين وسيسحق رأس كل فوضوي؟



الحلقة الحادية والعشرون

العدد ١٤٧٣
التاريخ ٢٣/٩/١٩٥٩

خرجت من الموقف، بعد صدور أمر وزاري بفصلي من مهنة التعليم، فاتجهت إلى قريتي في أبي الخصيب. وكانت الانتكاسة العظيمة التي عاناها الحزب الشيوعي بشنق كبار قادته، والضربة الفاتكة التي وجهها إليه مالك سيف، قد امتد ظلهما إلى قريتي أيضاً. فأُلقي القبض على عمي عبد المجيد الذي كان معتمد الحزب الشيوعي في أبي الخصيب ثم حكم عليه بالسجن لمدة سنوات خمس. وما لبثت إلاّ قليلاً حتى حان موعد مثولي أمام المجلس العرفي في بغداد، وقد حكم عليّ بالربط بكفالة شخص ضامن بمبلغ خمسة آلاف دينار، وكان الكفيل أبي الذي لم يكن مجموع ما يملك من أرض يتجاوز الخمسة آلاف دينار.

وحين عدت إلى القرية، وجدت أن أخي الأصغر مصطفى هو الذي قد تولى المسؤولية الحزبية بدلاً من عمي السجين. وكان طالباً في الصف الرابع الثانوي الذي ما تعداه في دراسته، فلم يكن ليأتي إلى القرية إلاّ مرة واحدة كل أسبوع حاملاً إلينا المناشير والبيانات الحزبية والكتب الماركسية.

وعلى هذا فقد كنت أنا المنظم الحقيقي للفلاحين الحزبيين. وكان همنا في هذه الفترة العصيبة في تاريخ حزبنا العتيد أن نحتفظ بأعضاء حزبنا ومؤيديه من الفلاحين لئلاً يفلتوا من قبضتنا الحمراء نتيجة خوف أو يأس. وصرت أجزل لهم الوعود حتى أنني بمعاونة بعض الحزبيين الآخرين من (الأفندية) رسمنا خريطة لبساتين القرية ووزعنا تلك البساتين على الفلاحين، فقد أعطى البستان المسمى (خريبة) مثلاً العائد إلى محمد سعيد العبد الواحد إلى العضو الحزبي حمد الذي يشتغل فلاحاً في ذلك البستان. ورحنا نحمل الخرائط العتيدة معنا أينما ذهبنا، فنكشفها أمام الفلاحين لنزيدهم إيماناً بأننا جادون في وعودنا لهم بأننا سنوزع الأرض عليهم، وكانت رؤيتهم للخريطة كافية لإقناعهم بصدق عزمنا. إنهم أناس ذوو عقلية بسيطة، سذّج، يصدقون بالحرف المكتوب، ويؤمنون به كما لو كان قرآناً منزلاً. ولأضرب لك ـ أيها القارئ العزيز ـ مثلاً على ذلك، بهذه الحادثة:

في عام ١٩٤٦، كانت تصدر في السودان مجلة شيوعية اسمها (أم درمان) وكان منظمنا الحزبي آنذاك أحمد علوان التميمي يزودنا بأعداد هذه المجلة. وجاء لنا ذات مرة بعدد من أم درمان رسم على غلافه يدان سوداوان ـ يدا سوداني طبعاً ـ وهما تحطمان الأغلال. ورأى حمد تلك المجلة والصورة التي على غلافها، فأخذ انطباعه الخاص عنهما، ولكنه كتم الأمر في نفسه، فما علمنا منه شيئاً حتى إذا عقدنا مجلس الشراب ذات ليلة وسكر حمد أخرج ما في نفسه فقال: ألم أكن معكم شيوعياً على الخير والشر؟ ألم أمضي على عرائضكم كلها؟ فلماذا لم تنشروا إمضائي في المجلة، ونشرتم إمضاء السيد درويش؟ وكان السيد درويش هذا الذي تحدث حمد عنه زنجياً من عمال القرية استطعنا أن نضمه إلى صفوفنا.

وكان حمد يظن الكفين السوداوين المرسومتين بالحجم الطبيعي على غلاف المجلة كفي السيد درويش أو بصمة إبهامه، وهو لا يدري بأن بصمة الإبهام تعني التوقيع بالإبهام وحده وليس بالكف كلها أو إمضاءه كما يسميه.

والحق أن من عادة الشيوعيين حتى الآن أن يكونوا في أوقات اندحارهم أكثر سخاءاً في بذل الوعود وأشد قسوة على خصومهم.

أما رأيت إلى الأعمال العنيفة البشعة التي ارتكبوها من سحل وقتل وإحراق ونهب في الوقت الذي بدأت فيه القومية العربية تنتعش وترفع رأسها، وفي الوقت الذي بدأ المد الشيوعي الأحمر ينحسر قليلاً. إنهم وهم الماركسيون لم يدركوا ما جاء في فلسفتهم المادية الديالكتيكية من أن هناك أشياء تبدو ثابتة بينما هي في الحقيقة سائرة إلى الزوال. لقد كان مجدهم الأحمر يبدو ثابتاً بينما هو في الحقيقة آخذ في الزوال. إن المنتصر الواثق من نفسه لا يكون إلاّ متسامحاً غفوراً رحيماً، أما المندحر فإنه يتحول إلى وحش رهيب ينكل بخصوصه ويزهق أرواحهم ويرتكب شتى أنواع الجرائم.

إن الجرائم التي ارتكبها النازيون أثناء اندحارهم تفوق في بشاعتها واتساع نطاقها جرائمهم التي ارتكبوها ولواء النصر يخفق فوق رؤوسهم.

وفي ذات يوم أنبأنا أخي وهو معتمد الحزب الشيوعي بأنه ذاهب هذا المساء إلى موقف السيارات في مقر القضاء في أبي الخصيب ليجلب من هناك رفيقاً آتياً من مدينة البصرة، وأن الحزب ينوي إرسال هذا الرفيق المهم إلى إيران ليجلب مطبعة من هناك. وهيأنا فراشاً للضيف الكريم في البستان، وما أظلم الليل ومضت منه ساعة أو ساعتان حتى وافانا حاملاً على رأسه شنطة من الصفيح.

وفي صباح اليوم التالي رحت أنا بصورة خاصة أتجاذب أطراف الحديث مع الرفيق العظيم. واستطعت أن أعرف من فلتات لسانه أن اسمه حسين علي وأنه من أهالي النجف وأنه عضو في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي وأنه يحمل معه سبعمائة دينار، وهو مبلغ ضخم، وضخم جداً، في ذلك الوقت الذي كانت فيه الحركة الشيوعية منهارة، وبعض العناوين والرسائل والنشرات الحزبية.

وأنبأته بأننا سنبذل جهدنا لإيصاله سالماً إلى إيران. ولكن على المرء أن يحسب حساب كل احتمال. وإن هناك احتمالاً بأنه قد يُلقى القبض عليه. ولهذا فإنه من المستحسن إذا كان يحمل معه عناوين أناس في العراق وأسماءهم أن يخفي الأوراق التي فيها تلك الأسماء والعناوين في أي مكان شاء من هذا البستان الواسع، ليأخذها متى عاد. . أما إذا كان يأتمنني عليها فإني مستعد للاحتفاظ بها له وتسليمها إليه لدى عودته. ولكنه أصر كاذباً كما ظهر بعد ذلك على أنه لا يحمل معه أي عنوان. وعلمته ثلاث طرق لإخفاء الرسائل الحزبية التي تكون صغيرة الحجم عادة في قفل شنطته بعد أن يخرج محتوياتها أو أن يلفها حول ثدى قلمه الحبر (طلمبته)، ولكنه أصر على أنه لا يحمل سوى السبعمائة دينار. وأوصيناه بألاّ يعطي للشرطة إذا اعترضوا سبيله أكثر من مائة فلس أو ربع دينار على الأكثر. فابتسم الرفيق حسين وقال: طبعاً، إنها فلوس الشعب وأنا أحرص عليها كما أحرص على حياتي.

وأقنعنا حلاق القرية، وهو إيراني الأصل ومن منتسبي حزبنا الشيوعي، بأن يأخذ هذا الرفيق العظيم إلى إيران. وسافر الرفيق والحلاق وبقينا ننتظر مدة يوم كامل، وفي اليوم التالي سمعنا أن الشرطة قد ألقت القبض على الرفيق حسين والحلاق.

لقد استوقفت شرطة الحدود الزورق الذي يقل رفيقنا. وأنزلوا ركابه إلى البر. واصفرّ وجه رفيقنا البطل وارتجف وتملكه رعب شديد: فمد يده وأخرج ورقة نقدية من فئة العشرة دنانير وسلمها للشرطي. وشك الشرطي في أمره، ولكن ليس كشيوعي في مهمة خطيرة وإنما كيهودي هارب من العراق. إن المبلغ الذي كان يتوقعه الشرطي هو مائة فلس، كما جربت ذلك بنفسي مراراً، أو ربع دينار في أحسن الأحوال. أما أن يعطي عشرة دنانير، فذاك يعني أن وراء الأكمة ما وراءها. وحاول الشرطي أن يستغل الموقف ليحصل على مزيدٍ من الرشوة، فقال أنه لا يقبل بذلك، وأنه يجب أن يفتش حسين. وخاف حسين على الرسائل الحزبية والعناوين.. فأخرجها هي ورزمة من مناشير الحزب الشيوعي العراقي، من كمه ورمى بها إلى النهر، وهنا تغير الموقف، فنزل الشرطي وراء الأوراق وقرأ المناشير، فعرف أنه أمام شيوعي عراقي، فلم يقبل المال، وقال أنه لن يخلي سبيل الرفيق حسين ولو أعطاه مائة دينار.

وسيق حسين والحلاق إلى الشعبة الخاصة، ثم إلى التحقيقات الجنائية... وهناك اعترف حسب الأصول، اعترف على محل اختفاء سكرتير الحزب الشيوعي آنذاك، حميد عثمان، واعترف على أخي، باعتباره الوسيط الذي كان يدبر أمر تسلله إلى إيران.

وهكذا انكشفت صفحة أخرى من صفحات البطولة الشيوعية في العراق.

* * *

الحلقة الثانية والعشرون

العدد ١٤٧٤

التاريخ ١٩٥٩/٩/٢٤

بعد البطولة الشيوعية المعروفة التي أبداها الرفيق حسين علي النجفي عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي والحكم على أخي الذي كان مسؤول الحزب في أبي الخصيب، بالسجن، برز الرفيق لتفينوف إلى الميدان، إذ لم يكن هناك من أحد سواه. فقد كنت أنا مربوطاً بكفالة بينما عمي وأخي في السجن، في الوقت الذي لاذ فيه رفيق آخر من رفاقنا المتهمين بأذيال الفرار.

والحق أني شعرت بالحزن العميق وبالرثاء لنفسي وللقرية وأبنائها وللحزب الشيوعي حين اختير لتفينوف معتمداً للحزب الشيوعي العراقي في أبي الخصيب وظللت أردد بيني وبين نفسي:

لقد هزلت حتى بدا من هزالها

كلاها، وحتى استامها كل مفلس

لقد راحت أخبار الحزب السرية التي يعرفها لتفينوف تتسرب إلى كل من يشاء أو لا يشاء، عن طريق طفل لتفينوف البالغ من العمر سبع سنوات وعن طريق زوجة لتفينوف.

ولم ألبث في القرية إلاّ قليلاً، إذ سرعان ما وجدت لي عملاً في شركة نفط البصرة فانتقلت إلى المدينة. وسرعان ما اهتدى الحزب إلى مكاني الجديد وصادني. ففي ذات يوم ذهبت إلى مخزن من مخازن الشركة في عمل فاستوقفني أحد الكتاب وناولني - وقد ارتجفت يده واصفرّ وجهه - عدداً من أعداد القاعدة وبعض المنشورات الحزبية. وحين لاحظت خوفه الشديد، أرشدته إلى طريقة يسلم بها المنشورات الحزبية إليّ وهو آمن. أن يضع المنشور في علبة سجاير فارغة ثم يعطيني إياها ولو أمام الناس. ولكنه كان من الجبن بحيث كان الخوف والارتباك والاضطراب تسيطر عليه حتى وهو يسلم إليّ علبة سجاير بريئة؟! لا تثير شكاً.

أذكر مرة، أنه قال لي وهو يناولني المنشورات - مخبؤة في علبة لسجاير لوكس: هذه سجاير تركية ممتازة، صدرت يوم ١٥ بالشهر، وفي عدد خاص. أرأيت أجبن من هذا المخلوق وأغبى؟! ولكني سمعت أنه أصبح بطلاً من الأبطال الشجعان بعد ثورة ١٤/تموز، وأنه شارك في عمليات السحل والعدوان التي قام بها الشيوعيون في البصرة.

لقد كثر علينا يا أخي الجبناء الذين أصبحوا أبطالاً وشجعانا بعد ١٤/تموز والجواسيس الذين أصبحوا مناضلين، والمرتشون الذين أصبحوا رفاقاً شرفاء والانتهازيون الذين أصبحوا من قادة حزب فهد.

كان الرفيق سلام عادل هو مسؤول اللجنة المحلية في البصرة آنذاك وقد سخر لخدمته أحد الرفاق التافهين الذي أصبح بعد ١٤/تموز وبقدرة قادر بطلاً من الأبطال يتجول في أنحاء العراق بصفة ممثلاً للحزب الشيوعي. وأرسل هذا الرفيق إلى الشيوعيين من عمال شركة

نفط البصرة ليبلغهم أن الحزب يريد منهم أن يقوموا بإضراب وإن افتعلوا أسبابه افتعالاً.

وافتعل الشيوعيون أسباباً تافهة للإضراب، وجروا وراءهم بقية العمال. إن فوضوية الشيوعيين التي تبدت لنا وكأنها شيء جيد، بعد أعمالهم الرهيبة التي قاموا بها في كافة أنحاء العراق، من تقديم الإخباريات الكاذبة على المواطنين الأبرياء الذين لا يماشون حزب الرفاق، ومن حوادث الاعتداء على حياة المواطنين المؤمنين بقوميتهم ودينهم وسحلهم وإحراق بيوتهم وتقتيل أطفالهم ونسائهم وابتزاز الأموال من التجار وأصحاب الفنادق وجمع التبرعات بالقوة للحزب (العظيمي)، إلى آخر ما رأيناه أثناء الكابوس الأحمر الرهيب الذي سمم حياة العراقيين وقلب أفراحهم أتراحاً.

ولكنها يا أخي صفة من صفات الشيوعيين موجودة فيهم منذ البداية، غير أن الكبت والكبح اللذين كانوا يتعرضون لهما كانت تخنق تلك الصفة في أعماقهم.

كنا نحن الكتاب في شركة نفط البصرة متوجهين إلى عملنا ذات صباح، فرأينا على الطريق حشوداً من العمال والناس الآخرين والسيارات والشرطة. وسألنا عن حقيقة الأمر فعلمنا أن العمال المضربين قد ساءهم أن الكتاب لم يشاركوهم في الإضراب، وأنهم تعرضوا لسيارة كانت تقل أحد الكتاب فقلبوها وانهالوا على الكاتب الجريح ضرباً وركلاً. ورأينا من الحكمة أن نعود إلى بيوتنا سالمين، وأن نشارك في الإضراب مكرهين. وهكذا بدأ إضراب الكتاب لا عن رغبة منهم فيه وإنما اتقاءاً لشر الرفاق.

وبلغنا ـ ولا أدري ممن صدر الأمر ـ بأن على الكتاب أن يجتمعوا

عصراً في حديقة أم البروم في الساعة الفلانية. واجتمعنا، ورأيت من جو الاجتماع الذي حضره عدد من قادة العمال، أن الحزب الشيوعي راغب في هذا الإضراب، فاندفعت بعاطفتي الشيوعية ورحت أخطب في الكتاب وأحثهم على الإضراب. واستجاب الكتاب لندائي فقرروا الإضراب منذ الغد. واختيرت لجنة للإشراف على إضراب الكتاب كنت أحد أعضائها.

ودام إضراب العمال مدة طويلة، وأدخله الشيوعيون في مداخل شتى، حتى أنه اصطبغ بصبغة طائفية معينة، وجمعت التبرعات الضخمة للعمل على هذا الأساس.

وساءت حال العمال غاية السوء وبلغ العوز والحاجة إلى المال أقصاهما. وفي ذات مساء وكان العمال مجتمعين أمام درج بناية ما - أظنها مقر إحدى النقابات - يفكرون في جوع أطفالهم وفي (دوخة) رؤوسهم لأنهم لم يدخنوا ولا سيجارة واحدة منذ يومين، صعد عامل أحد المطاعم إلى حيث اجتمع قادة العمال - من الشيوعيين المناضلين - حاملاً بيده صينية ملئة بـ (الدجاج على التمن) وبعلب السجاير الإنكليزية (كريفن اي). وطارت ألباب العمال، وهم يرون إلى هذا البذخ يبذخه الرفاق بينما هم - هذه المئات من العمال - لا يملكون حتى ثمن رغيف واحد وسيجارة واحدة، وعلقوا على - الدجاج والسجاير الإنكليزية - تعليقات مريرة تملؤها الدموع.

وكان يترأس إضراب العمال رفيق شيوعي لا أريد أن أذكر اسمه لئلاً يقيم الدعوى عليّ، مطالباً بتعويضه عن شرفه المطعون. ولنرمز إليه بـ (الرفيق رقم ١). وفي ذات ليلة من ليالي الإضراب الخطيرة حين كلت أقدامنا وبحت أصواتنا - نحن ممثلي الكتاب - من الجري

من دار المستمر تيسو مدير الشركة إلى متصرفية البصرة، ومن المتصرفية إلى المكينة ـ كما تسمى منطقة المخازن لشركة نفط البصرة ـ لمقابلة المستر بكث رئيس شعبة المخازن، ومن المستر بكث إلى المحامي الفلاني. . في ذات ليلة شاهدنا ـ أنا وبعض ممثلي الكتاب المضربين ـ الرفيق رقم ١، وقد تضعضع من السكر وداخ وهو يستوقف سيارة من سيارات الأجرة ويقول للسائق وهو يترنح على الرصيف، يقول للسائق بلسان متلجلج ثقيل من أثر الخمرة: للمنزول! والمنزول هو المبغى العام في البصرة.

ألمثل هذا الغرض جُمعت التبرعات؟ لكي يسكر بها الرفيق رقم ١، وربما لتلبس بها زوجته جوارب النايلون وينفقها على البغايا؟ هذا هو النضال؟

وأنبأنا السواق من عمال الشركة الذين يتقاضى أقلهم راتباً أربعين ديناراً في الشهر، أنهم سيعودون إلى العمل في صباح الغد. فماذا سنفعل؟ إذا عاد السواق، فإن عودتهم ستكون مقدمة لفشل الإضراب. وقرزنا نحن ممثلي الكتاب أنْ نحتال على المسؤولين في الشركة حتى نقنعهم بضرورة الاستجابة لبعض مطالب العمال على الأقل قبل أن يفشل هذا الإضراب في صباح الغد، دون أن ينال العمال منه شيئاً. واتصلنا بالمسؤولين في الشركة وأنبأناهم بأن العمال ينوون القيام بأعمال عنيفة وربما عمدوا إلى إحراق مخازن الشركة وخزانات نفطها، وأن من مصلحة الشركة أن تستجيب لما يطلبون. وبعد أخذ ورد وجدل طويل عنيف، وافق المسؤولون في الشركة على الاستجابة لكل مطالب العمال التي أضربوا من أجلها، إلاّ أن مطلباً واحداً لم يكن من جملة تلك المطالب في الأصل، هو أن تحتسب أيام الإضراب وكأنها

أيام عمل وتدفع للعمال أجورهم عنها. ورأينا أن استجابة الشركة لمطالب العمال كلها هو نصر عظيم للعمال المضربين.

ورحنا نبشر العمال بهذه النتيجة ولكننا فوجئنا بالرفيق رقم ١، يعربد علينا ويثور ويتهمنا بالخيانة والمساومة.

واحتدم النقاش بيننا وبينه حتى تطرقنا إلى الحديث عن مصلحة العمال، وهنا ثار الرفيق رقم ١، واعتلى تختاً من تخوت المقهى وصاح في لهجة خطابية وهو يمد من قامته في الفضاء: حقوق العمال ومصلحة العمال؟ ومن يدافع عنها سوانا؟ إننا مستعدون إلى الصعود إلى المشانق في سبيل مصالح العمال. وقد صعدنا إليها فعلاً.

ما هذه البطولة أيها الرفيق؟ أتدري ما كانت نتيجة هذا الرفيق المناضل؟ لقد اعتقلته الشرطة، وبعد الضربة الأولى اعترف بكل شيء. لقد أصدر الحزب الشيوعي العراقي ذات مرة بياناً يشرح فيه أسباب الاعترافات، إن (المعترفين) كلهم من الطبقة (البتي برجوازية) إنهم من الأفندية الذين اضطروا إلى الانتساب إلى حزبنا الشيوعي لعدم وجود حزب ثاني يمثلهم. فماذا يقول الحزب العميل في اعتراف الرفيق رقم ١، وهو عامل من الكادحين وليس أفندياً؟



الحلقة الثالثة والعشرون

العدد ١٤٧٦

التاريخ ١٩٥٩/٩/٢٧

تطرقت في كتاباتي السابقة أكثر من مرة إلى رواية الكاتب الإنكليزي الشهير جورج أورويل التي سماها (١٩٨٤). ولعل القارئ قد تساءل عن تلك الرواية ما تكون. وهاأنذا أزوده بفكرة بسيطة بعد أن أكون قد انتهيت من سرد ذكرياتي الشيوعية المريرة، ولكنني استعرت هذه الرواية من صديق وأنا أنوي إعادتها إليه عن قريب. ونظراً لاحتياجي إلى أن تكون هذه الرواية في متناول يدي وأنا أتحدث عنها لأرجع إليها كلما نسيت اسماً من الأسماء أو تاريخاً من التواريخ، لذا قررت أن اكتب عنها الآن.

تعتبر هذه الرواية الرائعة من أعنف الكتب التي فضحت الشيوعية والشيوعيين. ولكن المؤلف لا يذكر لك حتى كلمة واحدة تدل على أنه يقصد الشيوعيين. ولكنك تشعر بأنهم المعنيون، بعد قراءتك الصفحات القليلة الأولى منها.

وقد شعر الشيوعيون أنفسهم بأنها عنهم فراحوا يهاجمونها ويهاجمون مؤلفها الذي أطلقوا عليه شتائمهم التقليدية من عميل الاستعمار، عميل الدولار، جاسوس، حقير...

قرأت هذه الرواية حين كان مد الإرهاب الشيوعي في العراق قد بلغ حده الأقصى. فعجبت كيف استطاع المؤلف أن يصور بهذه الدقة والروعة أحوال بلد يحكمه الشيوعيون وهو في بلد لا تجد الشيوعية فيه تربة خصبة رغم ديمقراطية النظام التي ضمنت الحرية للجميع بما في ذلك حزب المحافظين وأنصاره والحزب الشيوعي وأنصاره.

ولكن بعض الإنكليز والأمريكيين الذين تحدثت معهم في هذا الموضوع احتجوا بأن الأمر لا يعني بأن المؤلف خارق في قوة خياله، إن الأمر أبسط من هذا. فكل امرئ عاش في أوربا الشيوعية ولو لمدة أسبوع واحد يفهم عن وضع البلد المبتلى بالشيوعية مثل ما يفهم جورج أورويل.

نحن الآن عام ١٩٨٤ وقد اقتسمت العالم كله دول شيوعية ثلاث: روسيا والصين والولايات المتحدة التي ابتلعت الإمبراطورية البريطانية، ويسمي المؤلف تلك الدول بالترتيب أوراسيا وإيستاسيا، ولا يسمى الولايات المتحدة، وتجرى حوادث الرواية في الجزر البريطانية في لندن بالذات.

إنه يوم بارد من أيام نيسان والساعة هي الواحدة ظهراً وقد عاد بطل الرواية ونستون سمث إلى شقته. إن حيطان العمارة كلها ـ حتى حيطان مراحيضها ـ مغطاة بصور ضخمة لـ (الأخ الأكبر)، زعيم الحزب ورئيس الدولة بالنتيجة. وقد كتب تحت كل صورة بحروف ضخمة: الأخ الأكبر يراقبكم. إنه أسبوع الحقد. وهناك صوت يقرأ قائمة تفصل إنتاج الحديد. إنه ينبعث من التلسكرين وهو جهاز يشبه التلفزيون يذيع الأوامر والتوجيهات والبيانات ويعزف الموسيقى الحربية، غير أنه في الوقت ذاته قادر على التقاط كل كلمة أو حركة

أو تعبير في الوجه يصدر عن المواطن ونقلها إلى الدوائر المسؤولة عن مراقبة الناس والتجسس عليهم، (بوليس الفكر). إنك لا تستطيع أن تطفئ التلسكرين وإن كنت تستطيع إخفات صوته قليلاً. ولا تخلو دار ولا بناية من هذا الجهاز الجاسوس.

وكان ونستون هذا موظفاً في وزارة الحقيقة. إن عمل هذه الوزارة هو مسخ الحقائق وتزوير التاريخ، ثم تقديم المعلومات الخاطئة إلى الشعب وفق مصلحة الحزب ومشيئته. والعمل الذي يقوم به ونستون بالذات عمل غريب في بابه.

هناك بعض القادة والوزراء والمسؤولين الذين كانوا يقومون في وقت من الأوقات بأعمال جليلة. وكانت الجرائد طبعاً تتحدث عن تلك الأعمال وتكيل لهم المديح. ويبدو أننا نبالغ حين نقول الجرائد. ليس هناك سوى جريدة واحدة هي جريدة التايمس. ثم غضب الأخ الأكبر على أولئك الرجال لسبب من الأسباب. إذن فلابد من إظهارهم خونة مارقين فاسدين منذ البداية. وحينذاك تعمد وزارة الحقيقة إلى النسخة الوحيدة التي تحتفظ بها من جريدة التايمس التي صدرت يوم كان أولئك الرجال أبطالاً فتعدمها ثم تؤلف نسخة جديدة تظهر أعداء الأخ الأكبر بالمظهر الذي يليق بأعدائه وتطبع ثم تحفظ. وعلى هذه النسخ يعتمد المؤرخون وبموجبها يكتب التاريخ، إنها تحمل رقم العدد المتلف نفسه وتاريخه نفسه.

وفي أحيان أخرى قد يتنبأ الأخ الأكبر أو الحزب بأن الإنتاج الزراعي سيكون وفيراً هذا العام، ثم تظهر النتيجة عكس ذلك، ولكن كيف يخطئ الحزب أو الأخ الأكبر؟ إذن، فلابد من إعدام ذلك العدد من التايمس الذي نشر فيه ذلك التنبؤ، وطبع عدد آخر يحمل نفس

التاريخ ينشر فيه تنبؤ متناقض للأولى: إن الإنتاج الزراعي سيكون رديئاً هذا العام.

إن شعارات الحزب الثلاثة هي: الحرب سلام، الحرية عبودية، الجهل قوة. وعلى أساس هذه الشعارات تسير الحياة.

ومن وزارات ذلك العهد وزارة الحب التي عملها مكافحة الحب والجنس. إن الحب والجنس لا الزواج الرسمي، محرمان على الشعب كله باستثناء أعضاء اللجنة المركزية للحزب، فكل شيء مباح لهم. في هذه الناحية وحدها يختلف الوضع الذي تتحدث عنه الرواية، عن الوضع لدى الرفاق العراقيين: فرفاقنا العراقيون مجندون للجنس والحب، وحرية الحب وكل أنواع الفساد الأخلاقي. إن المراهق في بلادنا حيث يشتهي حتى أناث الحيوانات من حمر ونقر ونعاج مستعد لأن يبيع ألف آله لو كان هناك غير آله واحد في سبيل أنثى توفر له الحب. فكيف لا يصبح شيوعياً والحزب الشيوعي يهيء له ما شاء من رفيقات أفسدتهن الشيوعية وتعاليمها التي تنص على أن كل الفضائل التي نعرفها خرافات وخدع برجوازية أو أقطاعية حقيرة؟

وفلسفة الشيوعيين البريطانيين وكل الشيوعيين عام ١٩٨٤ في ذلك هي: إنك حين تقوم بنشاط جنسي تصرف طاقة. الأولى بك أن تصرف هذه الطاقة في التظاهر والهتاف بحياة الحزب وأخيه الأكبر.

وفي الصفحة التاسعة من الكتاب نكتشف أن بطلنا متآمر، قذر.. إنه يكتب مذكراته الخاصة. وتلك جريمة لا يغتفرها بوليس الفكر، أياً كان نوع المذكرات التي تكتبها حتى لو كانت في تمجيد الأخ الأكبر. إن كتابتك مذكراتك تعني أنك تشعر بـ فرديتك، وهنا الخطر كل الخطر إنك لست شيئاً وحدك، إنك ذرة في هذا الكيان الضخم،

الحزب والدولة ولا كيان لك دونهما. لقد عثر في مخزن ما على دفتر لكتابة المذكرات وتلك معجزة لعمر الحق. فدفاتر المذكرات سلعة لا تباع فليس هناك من يستعملها.

ولنر الآن ما كتبه ونستون في دفتر مذكراته في الرابع من نيسان عام ١٩٨٤، فإنه يكشف لنا عن أخلاق رأينا شبيهاً لباقي أخلاق الفوضويين العراقيين العملاء حين راحوا يتلذذون بالتمثيل بجثث الأطفال في كركوك، وببقر بطون الحوامل وانتزاع الأجنة وسحقها بالحذاء وبدق مسمار، نعم هذا ما حدثني به صديق موصلي شاهد الحادث بعينه، في رحم عذراء قومية بعد أن شدوها إلى ساق شجرة وتركوها هناك - أي مسيح مدمى جديد - حتى ماتت.

ذهبت في الليلة الماضية إلى السينما. كلها أفلام حربية. فلم جيد جداً عن سفينة مليئة باللاجئين قصفت في مكان ما في الأبيض المتوسط. لقد سر المشاهدون كثيراً بمنظر رجل ضخم سمين يحاول أن يسبح لينجو من طائرة هيلوكوبتر تلاحقه. كنت تراه في البداية يصرخ ويلهث وهو في الماء كفرس البحر، ثم رأيته خلال نظارتي مدفعي الهليوكوبتر، ثم أصبح مليئاً بالخروق، واصطبغ البحر حوله بالحمرة، ثم غطس فجأة كما لو أن الماء قد نفذ إلى داخله من تلك الخروق. وهتف الجمهور وهو يضحك حين غرق الرجل. ثم ظهرت طوافة نجاة مليئة بالأطفال تحوم فوقها طائرة هيلوكوبتر، وكانت هناك امرأة عارية تجلس في مقدمة الزورق وبين يديها صبي صغير في الثالثة من عمره، وهو يصرخ من الرعب ويخفي رأسه بين ثدييها، كما لو كان يريد اختراق جسمها ليختبئ فيه، والمرأة تطوقه بذراعيها وتهدئه رغم أنها كانت مزرقة الوجه من أثر الخوف، وهي تحجبه طوال

الوقت كما لو كانت تظن أن ذراعيها ستحميانه من الرصاص. ثم ألقت الهيلوكوبتر قنبلة زنتها عشرون كيلوغراماً بينهم وكان وميض مرعب وتحطم الزورق نثاراً، ثم كانت هناك لقطة مدهشة تمثل يد طفل مقطوعة وهي ترتفع إلى الأعلى عالياً، عالياً، وارتفع تصفيق مدو من المقاعد الحزبية، ولكن امرأة في قسم البغايا من الصالة أثارت ضجة على حين غرة وهي تصرخ أنه كان عليهم ألاّ يعرضوا ذلك على الأطفال. ليس من الصواب عرضه على الأطفال حتى أخرجها البوليسَ من الصالة، وبينما كان ونستون يكتب هذه المذكرات كانت ذكرى حدث آخر تملأ فكره، حدث هو الذي ساقه إلى البيت وجعله يعتزم كتابه مذكراته.

كانت الساعة الحادية عشرة تقريباً في قسم السجلات حيث يعمل ونستون. وكانوا يأخذون الكراسي من أماكنها ويرجعونها في وسط القاعة أمام التلسكرين استعداداً لرؤية برنامج حقد لمدة دقيقتين. واتخذ ونستون مكانه في الصف الأوسط. ودخل الغرفة شخصان يعرفهما بالوجه ولكنه لم يكلمها قط. وكان إحداهما فتاة طالما مر بها في ممرات الدائرة. لم يكن يعرف اسمها ولكنه كان يعرف أنها تعمل في قسم القصص والروايات، ولعلها تتولى عملاً ميكانيكياً، فطالما رآها ملوثة اليدين والملابس بالدهن، عملاً ميكانيكياً على الآلات الكاتبة للروايات. كانت نحيفة الوجه، تبدو جريئة، رياضية الحركات في حوالي السابعة والعشرين من عمرها.

* * *

الحلقة الرابعة والعشرون

العدد ١٤٧٨

التاريخ ١٩٥٩/٩/٢٩

حدثتك يوم الأحد الماضي أيها القارئ أن بطل روايتنا ونستون سمث كان يجلس في جملة الجالسين أمام التلسكرين ليشاهد برنامج حقد لمدة دقيقتين حين دخل القاعة شخصان أحدهما فتاة يبدو أنها كانت تعمل ميكانيكية في قسم القصص والروايات. وكانت تلف على خصرها حزاماً وردي اللون وهو رمز للعصبة المناوئة للجنس. لقد نظرت إليه ـ بينما كانا يجتازان ممراً من ممرات بناية الوزارة ذات مرة ـ نظرة جانبية سريعة اخترقت قلبه وملأته بالرعب الأسود. لقد خطرت في باله فكرة بأنها قد تكون جاسوسة من جواسيس بوليس الفكر.

أما الآخر فكان رجلاً اسمه أوبرين وهو عضو من أعضاء الحزب الداخلي أو اللجنة المركزية للحزب وكان يحتل منصباً مهماً، وساد صمت على الجلوس وهم يرون إلى الرداء الأسود الذي يدل على أن مرتديه من الحزب الداخلي.

لقد كانت لديه طريقة خاصة في إعادة تسوية نظارتيه على أنفه بطريقة تجرد رائية من كل سلاح وهي طريقة مهذبة للغاية. لقد سبق

لونستون أن شاهد أوبرين عشرات المرات في مدى سنوات عديدة. وكان يحس بانجذاب شديد إليه. كان هناك أمل يملأ قلبه، في أن إيمان أوبرين الحزبي لم يكن كاملاً. كان هناك شيء ما في وجهه يوحي بذلك. لقد كان يبدو شخصاً تستطيع التحدث إليه، إذا استطعت أن تخدع التلسكرين بطريقة ما وتنفرد به. ولم يحاول ونستون أن يتحقق من صحة هذا الأمل. واتخذ أوبرين لنفسه مقعداً في نفس الصف الذي جلس ونستون فيه لا يفصله عنه سوى كرسيين. وتبدأ برنامج الحقد في التلسكرين.

وحسب العادة، برز وجه عمانوئيل غولدشتاين عدو الشعب الذي كان ذات يوم من قواد الحزب البارزين، كان من مستوى الأخ الأكبر ذاته ثم قام بفعاليات معادية للثورة وحكم عليه بالموت ثم استطاع بطريقة غامضة أن يهرب ويختفي. لقد كان برنامج الحقد يختلف من يوم إلى يوم ولكن غولدشتاين كان الشخص الرئيسي في كل برنامج من برامج الحقد. لقد كان الخائن الأكبر وأول من لوث نقاء الحزب، إن كل الجرائم التي ارتكبت فيما بعد ضد الحزب، كل الخيانات وأعمال التخريب والإشاعات المغرضة والانحرافات، نشأت مباشرة من تعاليمه. لقد كان مايزال على قيد الحياة، يقوم بمؤامراته. ربما كان في مكان ما وراء البحر، تحت حماية أسياده الأجانب. ربما كان في مخبأ ما في إنكلترا نفسها. كان وجهه ـ كما يظهر على الشاشة ـ شبيهاً بوجه الخروف، وكان صوته أيضاً شبيهاً بصوت الخروف.

لقد كان غولدشتاين يقوم بهجومه المسموم المألوف على شعارات الحزب ومبادئه، لقد كان هجوماً مبالغاً فيه، ويتناول نقاطاً ويحتوي على اتهامات يستطيع حتى الطفل أن يدرك زيفها. كان يهين الأخ

الأكبر ويشجب دكتاتورية الحزب ويطالب بعقد سلام عاجل مع أوراشيا، كان ينادي بإطلاق حرية الكلام وحرية الصحافة، وحرية الاجتماع وحرية التفكير، لقد كان يصرخ بانفعال هستيري أن الثورة قد خينت. وخوفاً من أن ينخدع أحد بأقوال غولدشتاين، كنت ترى في الشاشة وراء رأسه طوابير من جيش أوراشيا تسير صفاً وراء صف.

وقبل أن تمضي ثلاثون ثانية من هذا البرنامج ارتفعت هنا وهناك من صفوف المشاهدين صرخات حنق وغيظ. ورغم الحملات العنيفة التي تشن على غولدشتاين وآرائه ـ ألف مرة كل يوم ـ من المنصات والتلسكرين وفي الصحف والكتب فإنها لم تقلل من قوته شيئاً.

فلم يمر يوم إلاّ ويكتشف بوليس الفكر عدداً من الجواسيس والمخربين العاملين رهن إشارته. لقد كان قائد جيش وهمي كبير، ورئيس شبكة سرية من المؤامرات الهادفة إلى قلب نظام الدولة. وكان المفروض أن اسم هذه الحركة هو الإخاء. وهناك إشاعات هامة عن كتاب رهيب من تأليف غولدشتاين. إنه كتاب دون عنوان، وكان الناس يسمونه (الكتاب).

وفي الدقيقة الثانية من البرنامج وصل الحقد إلى الجنون. فراح الناس يتثاوبون في أماكنهم ويصرخون بأعلى صوتهم. وبدأت الفتاة ذات الحزام الوردي، وهي جالسة وراء ونستون، تصرخ محنقة: أيها الخنزير! أيها الخنزير! أيها الخنزير! والتقطت قاموساً ضخماً وقذفت به على الشاشة، ووجد ونستون نفسه يصرخ مع الصارخين ويضرب عقبيه بعنف على كرسيه.

لم يكن هناك من يستطيع ألاّ يتأثر ببرنامج الحقد ويندمج فيه. كان ذهول من الخوف وحب الانتقام ورغبة في القتل والتعذيب وفي

تحطيم الوجوه بمطرقة، يسير بين الناس كلهم كتيار الكهرباء، ومع ذلك فإن الحنق والغضب اللذين يحسّهما المرء يمكن تحويلهما من موضوع إلى موضوع. وهكذا فإن حقد ونستون في لحظة من اللحظات لم يكن موجهاً ضد غولدشتاين وإنما ضد الأخ الأكبر والحزب وبوليس الفكر. وفي مثل هذه اللحظات كان قلبه يتجه إلى هذا الشبح المستوحد الرهيب على الشاشة الحارس الوحيد للحقيقة والعقل في عالم من الأكاذيب. ومع ذلك ففي اللحظة التالية يتحول كرهه للأخ الأكبر إلى عبادة. ونجح ونستون في تحويل حقده من الوجه الذي على الشاشة إلى الفتاة ذات الحزام الوردي الجالسة خلفه. ولمعت في ذهنه صور حية جميلة. إنه سيجلدها حتى الموت بهراوة من المطاط. إنه سيربطها وهي عارية إلى عمود ورميها بالسهام حتى يملأ جسمها، إنه سيغتصبها ثم يقطع جيدها في لحظة النشوة الكبرى. وأدرك لماذا يكرهها، لأنها شابة وجميلة ودون جنس. لأنه كان يود أن يرقد معها ولكنه لا يستطيع.

وبلغ الحقد ذروته وتحول صوت غولدشتاين إلى ثغاء خروف حقيقي. ثم ظهر وجه الأخ الأكبر على الشاشة فراح الناس يهتفون أ. أ. أ. أ الأخ الأكبر، مرة بعد مرة. وشارك ونستون بقية الناس في هتافهم. فلم يكن مفر من ذلك، فأن تكبح مشاعرك وتسيطر على تعبير وجهك وأن تفعل ما يفعل بقية الناس، ذلك رد فعل غريزي.

ونهض أوبرين وخلع نظارتيه ومسحهما وكان على وشك أن يعيدهما ـ بتلك الحركة الخاصة ـ إلى موضعهما حين التقت عيناه بعيني ونستون، لجزء من الثانية. وعرف ونستون بأن أوبرين كان يفكر بنفس ما يفكر هو به. لقد مرت بينهما رسالة لا يمكن الإخطاء فيها، وبدا كما لو أن أوبرين كان يقول له بعينيه.

ونهض ونستون ونظر إلى ورقة كانت أمامه فاكتشف أنه كان يكتب بينما كان يتفرج على التلسكرين. لقد سار قلمه من تلقاء نفسه على ورق وكتب بحروف كبيرة:

يسقط الأخ الأكبر

يسقط الأخ الأكبر

يسقط الأخ الأكبر

حتى ملأ نصف الورقة.

وحين كان في غرفته في البيت والباب موصداً سمع طرقاً عليه. لقد كانت المسز بارسون زوجة جار له. قالت له: أيها الرفيق لقد سمعتك وأنت تدخل البيت. هل تظن أن في وسعك أن تأتي وتنظر إلى بالوعة مطبخنا. إنها مسدودة.

كانت المسز بارسون في الثلاثين من عمرها ولكنها تبدو أكبر من ذلك كثيراً. وكان ونستون قد أصلح البالوعة وغسل يديه حين سمع صوتاً يصرخ به: ارفع يديك. لقد كان صبياً في حوالي التاسعة يمسك بيده مسدساً مما يلعب به الأطفال، بينما كانت أخته التي تصغره بعامين تقوم بنفس الحركة، بقطعة من الخشب. وكانا الأخ وأخته ـ يلبسان بنطلونين قصيرين أزرقين وقميصين رماديين ومنديلين أحمرين، وهو لباس الجواسيس وهي منظمة من منظمات الحزب. وصاح الصبي: إنك خائن، إنك مجرم فكري. إنك من جواسيس غولدشتاين. سأطلق النار عليك، سأرسلك إلى مناجم الملح.

وقالت أمهما: إنهما يشعران بالخيبة لأنهما لم يستطيعا الذهاب لمشاهدة الشنق.

وناغت الطفلة: أريد أن أرى الشنق، أريد أن أرى الشنق.

وفي بيته جلس ونستون يستذكر حلماً رآه قبل سنوات، قبل سبع سنوات تقريباً. حلم أنه كان يمشي في غرفة شديدة الظلام، وسمع شخصاً كان يجلس إلى إحدى جانبيه يقول وهو يمر به: سنلتقي في المكان الذي لا ظلام فيه. ولكنه سار دون أن يتوقف. وأدرك فيما بعد أن الصوت الذي سمعه في حلمه كان صوت أوبرين. ثم سمع بياناً من التلسكرين بأنه ابتداءاً من الأسبوع القادم ستخفض الحصة المخصصة لكل فرد من الشوكولاتة من ثلاثين غراماً إلى عشرين.

وتناول دفتر مذكراته ليكتب. وتساءل في نفسه: لمن يكتب؟ للمستقبل أم للماضي، أم لعصر قد لا يوجد إلاّ في الخيال. وأمامه عقاباً على كتابة هذه المذكرات، يكمن لا الموت وإنما الإفناء. سيزيلون اسمه من كل سجل يوجد فيه وسيمحى كل أثر من آثاره، وكأنه لم يعش ذات يوم، وكتب في دفتر المذكرات: إلى المستقبل أو إلى الماضي، إلى زمن فيه الفكر حر حين يختلف الناس أحدهم عن الآخر ولا يعيش مستوحداً إلى زمن السلوك الرسمي، من زمن الاستيحاد، من زمن الأخ الأكبر، من زمن التفكير المزدوج ـ تحايا.



الحلقة الخامسة والعشرون

العدد ١٤٨٠

التاريخ ١/تشرين الأول/١٩٥٩

قبل أن استمر في تقديم المزيد من الخطوط العامة للرواية الرائعة (١٩٨٤) التي دفع بها جورج أورويل الشيوعيين وماديتهم الآلية وليست مادية فويرباخ وحدها هي المادية الآلية، واحتقارهم للفرد بصورة خاصة وبالتالي للمجموع الذي يتألف من ملايين الأفراد، أود أن أنبه إلى ظاهرة خطيرة ما أظن كثيراً من الناس تنبهوا لها.

إن الشيوعيين العراقيين يناضلون دون هوادة لإيقاف هذه الحملة الفكرية العنيفة التي توجه إليهم في الصحف ومن على منابر المساجد أيام الجمع ومن منبر الإمام الخالصي ومن كل مكان يريدون إيقافها بأية صورة ممكنة. التجأوا إلى القضاء، فما أجداهم ذلك. وراح الرفيق الهمام أبو سعيد أو أبو نادية إن شئت يطعن الناس ذات اليمين وذات الشمال بقلمه المشحوذ فهاجم الصحف كلها ـ الحرية والأهالي والثورة والفجر الجديد وسواها إلاّ صحف الرفاق، ووصف كل عدو للشيوعية يكون عميلاً أو معميلاً على حد تعبيره للاستعمار. وراح الشيوعيون يضربون الأمثلة على المآل الذي آل إليه كل عدو

للشيوعية، وبأن الذين يرفعون شعار معاداة الشيوعية يلتقون مع الاستعمار، مع مكارثي ونوري السعيد. نعم، إننا نلتقي مع الاستعمار في عدائنا للشيوعية ولكن ماذا في ذلك؟ أيصح أن نكفر بالله وننكر وجوده لأن المستعمرين من مكارثي وماك آرثر وتشرشل يؤمنون به؟ أجيبونا أيها الرفاق، إن روسيا السوفياتية ملحدة لا تؤمن بالله بينما الإنكليز الاستعماريون يؤمنون به وربما أيدتنا روسيا الشيوعية في بعض قضايانا لا حباً بسواد عيوننا وإنما خدمة لمصالحها التي تصيب نفعاً جديداً كلما لحقت بالاستعمار خسارة. فهل يترتب على هذا أن نكفر بالله لأن أصدقاءنا ورفاقنا الكبار يكفرون به ويعتبرونه مجرد خدعة برجوازية بل إقطاعية كبيرة ولأن أعداءنا المستعمرين يؤمنون به.

فليشهد الرفاق وليقولوا ما شاءوا: لقد قطعت عهداً على نفسي بألاّ أكف عن محاربة الشيوعية حتى الرمق الأخير. وليقل من شاء بأن هذه أفكار مكارثية. إن مكارثي أشرف ألف مرة من كثير من الذين يعتبرهم الشيوعيون قادة كباراً ومفكرين عظماء أشرف من الرفيق عدس والرفيق يهودا صديق والرفيق ساسون دلال والرفيق يوسف هرون زلخة والرفيق يوسف زلوف، إلى آخر هذه القائمة الكبيرة من الرفاق اليهود الذين لو أردت أن اعدد أسماءهم لملأت كل صفحات الجريدة.

ومرة أخرى أرفع صوتي فأنادي: يا أعداء الشيوعية اتحدوا. لقد أدى الشيوعيون لهذا البلد خدمة من حيث لا يشعرون ولا يريدون. فإن عداء أغلبية الشعب لهم قد ألفت بين قلوب الناس ووحدت كلمتهم وجعلتهم يتناسون ما قد يكون بينهم من فروق. إن المسيحي المؤمن بالله يشعر بأنه أخو المسلم المؤمن بالله وأن عليهما أن يوحدا الكلمة لمحاربة الكفر الشيوعي والإلحاد الماركسي.

بعد هذه المقدمة نعود إلى روايتنا، وكنا قد تركنا بطلنا ونستون سمث وهو يكتب في دفتر مذكراته تلك الرسالة المريرة المؤلمة إلى الأجيال المقبلة.

وبدأ ونستون يحلم بأمه. لابد أنه كان في العاشرة أو الحادية عشرة حين اختفت أمه، وتذكر أباه بغموض أشد. لابد أنهما قد شنقا كلاهما في حملات التطهير الكبرى الأولى في الخمسينات.

وكان يحلم في حلمه، ولا يدري كيف أن حياة أمه وحياة أخته الطفلة قد ضحيتا في سبيل حياته هو. إن الشيء الذي حير ونستون الآن وأذهله هو أن موت أمه قبل الثلاثين عاماً تقريباً كان تراجيدياً ومحزناً بطريقة لم تعد ممكنة، فإن التراجيدية تعود إلى الزمن القديم، إلى وقت كانت ماتزال فيه للإنسان حياة خاصة وخصوصيات وحب وصداقة، وحين كان أفراد العائلة يساند أحدهم الآخر ويقفون متكاتفين دون أن يعرفوا السبب.

وأقطع الآن حديثي عن هذه الرواية. فقد ذكرني حلم ونستون بأمه وأخته الطفلة بجريمة من الجرائم الكثيرة التي ارتكبها الرفاق الشرفاء - الشرفاء جداً أو الطيبون كما يسميهم شعراؤهم - في كركوك. فمن البيوت التي هاجمها الشيوعيون بيت كان يضم زوجاً وزوجته وأطفالهما الخمسة. وقتل العملاء الأب والأم وأربعة من الأطفال ونهبوا البيت ولم يبق من تلك العائلة الكبيرة التي كانت هانئة - ولو بمجرد تآلفها - ذات يوم سوى طفل رضيع ينام في سريره دون أن يعرف أنه أصبح يتيماً. إن الأم التي كان يناغيها فتهب إليه حتى من أعماق نومها فتغطيه عن بُرد وتلقمه ثديها وتهدهده حتى ينام، لن تسير إليه بعد الآن. هذا الطفل المسكين الذي لم يكن يعرف أمراً من أمور

هذا العالم الواسع المعقد ولا سراً من أسراره، لا يعرف ماركس ولا لينين ولا الشيوعية ولا الصراع الطبقي ولا التمييز العنصري الذي حمل الفوضويون شعاره فراحوا يغرون فئة من أبناء الشعب العراقي بفئة أخرى من أبنائه مثيرين العنعنات العنصرية والطائفية، هذا الطفل البريء الذي لم يخبره أحد قبل ولادته ـ هل تريد أن تكون تركمانياً أم عربياً أم كردياً؟ أو هل تريد أن تكون من الطبقة الكادحة المناضلة أم من الطبقة الإقطاعية المجرمة؟ هذا الحمامة ـ ويبدو أنه ليس من حمامات السلام ـ هذا الحمل الوديع والبذرة التي تحمل في أعماقها ما لا يحصى من الاحتمالات والإمكانيات، لم ينج من شرور الشيوعيين، فهو أيضاً متآمر وعميل من عملاء الاستعمار. لقد قطعوا إحدى يديه ثم جاءوا إليه بثدي أمه المقطوع وهو يقطر دماً فألقموه إياه. يا للبن الذي يتدفق إلى عالم الأحياء من عالم الموتى. يا للموت الذي يطعم الأحياء، يا للثأر الذي ربته اليد الآثمة المجرمة في نفس هذا الرضيع، حين يكبر فيرى الأطفال يلعبون يمسكون هذه اللعبة أو تلك بيدين اثنتين إلاّ هو. فمن الذي سيشتري لعبة؟ أبوه أم أمه؟ وإذا أمسكها فلن يمسكها إلاّ بيد واحدة. هل يتصور الشيوعيون أن هذا الطفل سينشأ محباً لهم جزاء هذا الجميل الذي أسدوه إليه عاطفاً عليهم مؤيداً للحزب العميل ومطلبه (العظيمي)؟

إن الحزب الذي لم تخجل الجريدة التي كانت تنطق بلسانه ـ جريدة الأساس ـ إبان الحرب الفلسطينية من الادعاء بأن الصهيونية ـ نعم الصهيونية وليس اليهودية أو سواها من الستائر التي يتستر بها الشيوعيون على الصهيونية، حركة تقدمية، غير مستبعد عليه أن يمجد القتلة والمجرمين ويعتبرهم أبطالاً شعبيين. لقد أخذ الحزب الشيوعي

مؤخراً وهو تقليد قديم من تقاليده، ومما ورثه عن الرفيق الخالد فهو يحتضن بعض الأشقياء المجرمين من قتلة ولصوص وقطاع طريق، ويربيهم تربية ماركسية ليكونوا بعد ذلك حراساً أمناء لهذا الزعيم من زعماء الحزب الشيوعي أو ذاك ومنفذين للجرائم الشيوعية من قتل وسحل وإحراق.



الحلقة السادسة والعشرون

العدد ١٤٨١

التاريخ ٢٠/تشرين الأول/١٩٥٩

تركنا ونستون يحلم وهو راقد دون نوم في فراشه، وقطع أحلامه عليه صفير حاد من التلسكرين يعلن أن وقت العمل قد أزف، فانتزع نفسه من الفراش وهو عريان. إنه لا يستطيع أن يشتري بيجاما. فالعضو الحزبي يحصل على ثلاثة آلاف كوبون للملابس في السنة بينما تكلف البيجاما وحدها ستمائة كوبون.

وارتدى ونستون ملابسه وهو يفكر في هذه الحياة الجحيم التي يحياها في هذه المتاهة من التفكير المزدوج، أن تعرف وألاّ تعرف، أن تكون مدركاً بالحقيقة الكاملة بينما أنت تروي أكاذيب حسنة البناء.

أن تحمل في الوقت ذاته فكرتين متناقضتين وأنت تعلم بأنهما متناقضتان ومع ذلك تعتقد بهما كلتيهما، أن تستعمل المنطق ضد المنطق، أن تخترق كل المقاييس الأخلاقية بينما تدعي بأنك حامل مشعلها، أن تعتقد بأن الديمقراطية مستحيلة وأن الحزب هو حامي الديمقراطية وراعيها، أن تنسى ما تستلزم الضرورة نسيانه ثم تعيده إلى الذاكرة من جديد حين تدعو الحاجة إليه، ثم سرعان ما تنساه من

جديد، أن تطبق نفس التسلسل على التسلسل نفسه، هذا كله مستحيل! وحتى إذا أردت أن تفهم معنى تعبير التفكير المزدوج عليك أن تستعمل تفكيراً مزدوجاً.

ألم نشهد هذه الأشياء كلها ـ أيها القارئ العزيز ـ في عراقنا الحبيب أيام الكابوس الأحمر؟ ألم يكن أنصار السلام يذبحون الأطفال دفاعاً عن السلام؟ ألم يكن الشيوعيون الذين يسمون أنفسهم ديمقراطيين يسحلون ويقتلون كل من ليس شيوعياً، حفاظاً على الديمقراطية كما يزعمون؟ لقد كانت هذه الحرية التي أفاضتها الثورة المجيدة على الشعب من أهم مكاسب ثورة تموز. أفلم يحرم الشيوعيون كل أبناء الشعب الآخرين من الحرية بدعوى المحافظة على مكاسب ثورة ١٤/تموز. أليس هذا هو التفكير المزدوج؟ أن تتحدث عن الحب والإخاء بين الناس في العالم كله بينما أنت تحقد حتى على أهلك ـ إذا خالفوك في الرأي ـ وجيرانك وأبناء بلدك، وتعتدي على أموالهم وأرواحهم؟ هذا ما حدث في العراق، في بغداد والبصرة والموصل وكركوك والهندية وسواها عام ١٩٥٨ و١٩٥٩ وليس في لندن عام ١٩٨٤.

وفكر ونستون، في أن الماضي لم يُغير فحسب وإنما حُطم تحطيماً، فكيف تستطيع أن تثبت حقاً أوضح حقيقة حين لا تملك مستمسكاً ولا سجلاً خارج ذاكرتك؟ وحاول أن يتذكر في أي عام سمع بـ الأخ الأكبر يذكر لأول مرة. لابد أن يكون ذلك في حوالي ١٩٦٠، ولكن من المستحيل أن يتأكد المرء.

ولكن هذا ما فعله الشيوعيون العراقيون بالضبط حتى قبل أن

يصبحوا هم حكامنا، وحتى قبل أن يتحقق مطلبهم (العظيمي) باشتراك الحزب الشيوعي بالحكم. أما رأيتهم يتحدثون عن ثورة ١٩٢٠ وكأنهم هم القائمون بها؟ والوثبة؟ إنهم هم الذين خلقوها كما يزعمون.

ومع أن الحزب الشيوعي العراقي، كان الحزب الوحيد الذي لم يكن على صلة بثورة تموز أو علم بها قبل حدوثها، فقد تبنى الثورة بعد وقوعها وكأن حسين الراضي البهبهاني هو بطل تموز وليس الزعيم عبد الكريم، أما قرأت منذ أيام أن المجلس العرفي حكم على أحد الرفاق الشرفاء جداً بالحبس لأنه قال: لولا فهد لما قامت ثورة ١٤/ تموز.

غير بعيد عليهم حين يستولون على الحكم - لاسمح الله - أن يزعمون بأن فهد أو أباه على الأقل هو الذي عبأ الجماهير فقامت بثورة ١٩٢٠، وهو الذي وجه، فهو ميت، وإلاّ لقالوا قاد الجماهير نحو ثورة الرابع عشر من تموز.

ألم تكتب الـ ديلي ووركر، لسان الحزب الشيوعي البريطاني مقالاً تهاجم فيه شكسبير لأنه عبر عن أفكار الطبقة الإقطاعية ولم يلتزم جانب الطبقات الكادحة أو الطبقة العاملة؟ ثم، ألم يهاجم واحد من أدباءهم هنا في العراق في مقال كتبه في عام ١٩٥١، على ما أتذكر، الشاعر العربي الكبير المتنبي لأنه كان داعية حرب وعميلاً للإستعمار، ولأنه لم يوقع على نداء استوكهولم للسلام، بينما وقع عليه حصانة بحافره؟ واستشهد ببيت المتنبي الذي يقول فيه:

يقول بشعب بوان حصاني أمن هذا يسار إلى الطعان؟

ولقد رأيت أحد الشيوعيين العراقيين وهو يدل علينا بـ أثر تاريخي مهم يملكه. فماذا كان ذلك الأثر العظيم؟ كان بطاقة طبعت على أحد وجهيها صورة تمثل الرفيق الخالد فهد وهو يرتدي ملابس الكشافة ويقف عند أطلال بعلبك. وعلى وجهها الثاني كتبت هذه الكلمات:

يوسف سلمان يوسف، وهو ينوي القيام بجولة في

بلدان الخليج الفارسي والبلدان العربية، يبعث إليكم

بتحياته ويرجو أن ينال مساعدتكم.

إنها إذن دعوة لـ (كدية) أو بالأحرى دعوة لإعطاء الكدية وبذل الإحسان والمساعدة لهذا السائح العربي، ولعله يفضل أن نصفه بالسائح العراقي فقط فهو، في الحق من أعداء العروبة الألداء.

لقد أصبح الشيوعيون يفتخرون بقائدهم في كل أدوار حياته منذ أن كان صبياً في تلكيف ثم شاباً في الناصرية ثم سائحاً وتلميذاً مطروداً في الحزب اللاديني، ثم عامل ثلج في الناصرية، ثم بائعاً للقهوة في دكان أخيه في البصرة، ثم سكرتيراً للحزب الشيوعي.. وغير بعيد أن يأتي ذلك اليوم الذي يسجل فيه الشيوعيون تاريخ قائدهم بعد أن يسيطروا على الحكم وتنتهي مهمتهم النضالية فيزعمون أنه كان ماركسياً في تفكيره منذ أن كان سائحاً يتجول هنا وهناك لا للاستجداء وإنما لدراسة الأحوال الاجتماعية ويستشهدون على ذلك بمقالاته التي كان يسجل فيها انطباعاته عن الأقطار التي يزورها وينشرها في مجلة الناس البغدادية.

سأحاول إذن أن أحصل منذ الآن على الوثائق التي تثبت أن عضواً

من الأعضاء الحاليين في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي، كان وكيلاً من وكلاء التحقيقات الجنائية، في العهد البائد. فقد يتحقق للشيوعيين ـ لاسمح الله ـ حلمهم الذي يملأ أذهانهم وتصبح السلطة المطلقة بأيديهم، وحينذاك يتوجه ذلك الرفيق الوكيل إلى دائرة التحقيقات الجنائية أو مديرية الأمن ـ كما تسمى الآن ـ يحوطه حرس خاص من المجرمين الذي ثقفهم الحزب العميل بالماركسية ليتلف كل مستمسك يثبت أنه كان وكيلاً في التحقيقات الجنائية، يتقاضى راتباً تافهاً هو ستة دنانير، هي الراتب الاسمي طبعاً عدا ما يضاف إليها من مخصصات غلاء المعيشة، فيكون مجموع أكثر من العشرين ديناراً بقليل.

والآن نعود إلى سرد قصة الرواية التي حدثناك عنها.

كان التلسكرين يذيع أوامر رياضية، واحد.. اثنين، واحد.. اثنين، إنحن إنهض. ثم صاح صوت من التلسكرين: سمث ـ ٧٩ ـ ٦ سمث. نعم، أنت. إنحن أكثر من فضلك. إن في وسعك أن تفعل خيراً من ذلك. إلى الأسفل أكثر إنك تحاول. هذا أحسن أيها الرفيق.

وغرق جسم ونستون سمث فجأة بالعرق. ولكن وجهة ظل هادئاً دون تعبير تماماً، لا تظهر امتعاضاً بالمرة، لا تظهر استياء، إن رمشة واحدة من العينين قد تفضحك.

هكذا يعيش الناس في البلدان الشيوعية وتحت ظل دكتاتورية البروليتاريا التي تبشر بها الأحزاب الشيوعية كلها، وفي خوف دائم، وفي شك دائم. الأب لا يأتمن ابنه، ومع ذلك ليت الشيوعية حققت للناس تلك الجنة التي تبشر بها: الأكل للجوعان والخام للعريان. كأن

لا فرق بين الأنسان والحيوان، فإذا أطعمت الأنسان وأشربته ماء وكسوته بقطعة من القماش، فقد أعطيته كل ما يحتاج إليه. وماذا يحتاج الأنسان إلى أكثر من ذلك.

ولكن، حتى هذا لا يناله الفرد في الحكم الشيوعي، صحيح أن هناك أناساً منعمين في البلدان الشيوعية، ولكن هناك أناساً منعمين حتى في البلدان الرأسمالية بل كان أناس منعمون حتى في عهد المجرم نوري السعيد، ولكنهم أقلية. لقد استعضنا في ظل الإرهاب الشيوعي عن طغيان الـ (بك) و(الشيخ) بطغيان الرفيق والرفيقة!



الحلقة السابعة والعشرون

العدد ١٤٨٤

التاريخ ٦/ تشرين الأول/ ١٩٥٩

عرضت عليك في مقالي الأخير أجزاء من راوية أورويل الرائعة (١٩٨٤)، ورأيت معي أوجه الشبه الشديد بين ما يتخيل المؤلف حدوثه تحت ظل النظام الشيوعي عام ١٩٨٤ وبين ما حدث فعلاً أيام الكابوس الأحمر في العراق. وإن المرء ليدهش من هذا التشابه العجيب كيف استطاع أورويل أن يتخيل هذا؟

إن الأمر في غاية البساطة. لقد تخيل أسوأ ما يمكن أن يحدث من تحطيم للقيم والمقاييس والضمائر والذمم والأخلاق، ومن موت الحقيقة وانتصار الكذب، ومن تفشي الجاسوسية التي أصبحت تعتبر واجباً وطنياً ومن حلول الحقد محل الحب، ومن التنكر للماضي وما فيه من حسنات. تماماً كما يفعل الشيوعيون عندنا وكأن ماضينا هو العهد البائد وحده وليس ثورة العشرين، وليس أيام المأمون والرشيد وليس تحرير العراق من الحكم الفارسي وليس قيام النبي العربي، اليتيم الفقير، محمد بن عبدالله الذي حطمت دعوته الكريمة قلاع الظلم والطغيان واقتلعت إمبراطوريات عظيمة من أساسها. ومع ذلك،

فإن خيال المؤلف وإن تصور أسوأ ما يمكن حدوثه لم يستطع أن يصل إلى الدرك الذي انحط إليه الرفاق الشرفاء جداً في العراق. ورغم أنه يعرض علينا في أحد فصول كتابه صورة عن تعذيب السجناء والمعتقلين السياسيين فإن هول ما رواه الدكتور شاكر مصطفى سليم في كتابه القيم يجعل ما رواه أورويل نوعاً من الفاكهة أو الحلوى بالقياس إلى أكلة دسمة ثقيلة.

كيف يستطيع أورويل أن يتصور أن إنساناً أو نصف إنسان أو حتى حيواناً يبيح لنفسه أن يقتل أم طفل وأباه، ثم يقطع يد طفل النائم في مهده ويلقمه ثدي أمه المقطوع؟ هذا ما فعله الرفاق الشرفاء أنصار السلم والديمقراطية في كركوك الجريح. وكيف يستطيع أن يتصور أن رجلاً ـ وهو ابن امرأة وأخ لامرأة ـ تطاوعه نفسه أن يصلب فتاة عذراء على وتد من الخشب ويدق مسماراً في جسمها؟ ولكن هذا ما اقترفه أبناء حزب فهد في الموصل، كان الأحرى بهذا المؤلف الإنكليزي أن يعيش في العراق في فترة الكابوس الأحمر فيرى بأم عينيه السحل والقتل والتمثيل بالجثث وسواها من ألوان الإجرام الشيوعي ثم يعود إلى بلاده فيكتب روايته من جديد.

كان ونستون في مكتبه يزاول عمله، في تزييف التاريخ وخنق الحقائق وخلق الأكاذيب حين تلقى رسالة من الفرع المهيمن في دائرته تقول: إن الأمر اليومي للأخ الأكبر المنشور في التايمس ليوم ٣/ كانون الأول/ ١٩٨٣ غير مرض للغاية وفيه إشارات إلى أشخاص غير موجودين. أعد كتابته كاملاً وقدم المسودة إلى السلطات العليا قبل طبعها.

وأعاد ونستون قراءة هذا الأمر اليومي. لقد كان ذلك الأمر اليومي

مكرساً بصورة رئيسية لمدح أعمال منظمة تسمى (ف. ف. س. س) تمون بحارة القلاع الطافية بالسجائر وسواها من الكماليات وقد خص الرفيق الأكبر رفيقاً يسمى ويذرس بالثناء، وهو عضو بارز من أعضاء اللجنة المركزية للحزب ومنحه وساماً.

وبعد ثلاثة أشهر حلت هذه المنظمة على حين غرة دون أن تبين أسباب ذلك. وفي وسع المرء أن يفترض أن ويذرس وخلطاءه أصبحوا مغضوباً عليهم الآن، ولكن شيئاً لم يذكر عن ذلك لا في الصحف ولا في التلسكرين. ولكن المرء أن يتوقع هذا مادام المذنبون السياسيون لا يقدمون إلى المحاكمة ولا يمتثلون أمام الجمهور. إن عمليات التطهير الكبرى التي تشمل الآلاف من الناس مع المواكب العلنية من مجرمي الفكر والخائنين الذين كانوا يعترفون اعترافاً كاملاً بجرائمهم، ثم يعدمون بعد ذلك، لم تكن لتحدث إلاّ مرة واحدة في كل عامين. إن الشيء المألوف هو أن الناس الذين يرتكبون ما يزعج الحزب كانوا يختفون ولا يسمع أحد بهم أو عنهم مرة أخرى. وليس للمرء أدنى مفتاح يرشده إلى ما حل بهم. وفي بعض الحالات قد لا يكونوا أمواتاً. ربما كان حوالي الثلاثين من الأشخاص الذين يعرفهم ونستون شخصياً عدا والديه قد اختفوا مرة بعد مرة.

وتساءل ونستون في نفسه عن السبب الذي جعل ويذرس مغضوباً عليه. ربما كان الرفيق الأكبر آخذاً في التخلص من رفاقه وراح ونستون يفكر كيف سيصوغ خطاب الرفيق الأكبر بعد أن يحذف الإشارة إلى ويذرس منه؟ وقفزت إلى ذهنه فجأة صورة رفيق اسمه الرفيق أوغليفي وقد مات مؤخراً في المعركة في ظروف بطولية. صحيح أنه لم يكن هناك شخص اسمه الرفيق أوغليفي، ولكن بضعه

أسطر مطبوعة وصورتين فوتوغرافيتين زائفتين سوف تثبت وجوده على حين غرة. إن خطاب الرفيق الأكبر مكرساً لتمجيد هذا الرفيق أوغليفي وراح ونستون يملي:

حين كان ونستون في الثالثة من عمره رفض جميع اللعب إلاّ طبلاً ومدفعاً رشاشاً مما يلعب به الأطفال وطائرة هيلوكوبتر نموذجية. وفي سن السادسة انضم إلى منظمة الجواسيس، وفي التاسعة كان قائد فيصل، وفي الحادية عشرة وشى بعمه لدى بوليس الفكر بعد أن اختلس السماع إلى محادثة أظهرته بمظهر من له ميول إجرامية بحق الحزب. وفي السابعة عشرة أصبح منظم منطقة للعصبة المناوئة للجنس، وفي الثامنة عشرة اخترع نموذجاً من القنابل اليدوية تبنته وزارة السلام. وقد قتلت تلك القنبلة لدى تجربتها واحداً وثلاثين أسيراً أوراسياً.

وفي غرفة الطعام الملحقة بالدائرة وحين كان ونستون يحمل صينية ويأخذ مكانه في صف المنتظرين، سمع من ورائه صوتاً يصيح: هذا هو الرجل الذي كنت أبحث عنه، والتفت فرأى سيم، إنه أحد أصدقائه.

كلا. إن كلمة صديق ليست الكلمة المناسبة. فأنت تعيش في زمن ليس لك فيه أصدقاء وإنما رفاق. ولكن صحبة بعض الرفاق أروح من صحبة سواهم. وكان سيم من هذا النفر. وقال سيم: أردت أن أسالك عما إذا كانت لديك موسى للحلاقة.

فأجاب ونستون: .. لقد بحثت في كل مكان دون جدوى. إنها لم تعد موجودة، كان الناس جميعاً يسألون بعضهم عما إذا كانت لديهم أمواس للحلاقة. لقد كانت هناك مجاعة في أمواس الحلاقة خلال

الشهرين الماضيين في كل لحظة، كانت هناك سلعة ضرورية تعجز مخازن الحزب وحوانيته عن تزويدك بها. فحيناً تكون الأزرار وحيناً صوف الحياكة وحيناً أربطة الأحذية.

أفلم يحدث شيء كهذا في العراق، نعم في العراق، مع أن الشيوعيين ليسوا في الحكم. كلنا نتذكر حين خلت الأسواق من سجاير تركية، لأن الرفاق أرادوا أن يناضل عمال السجاير بدلاً من أن يعملوا. لقد صرت في تلك الفترة أدخن السجاير الإنكليزية الغالية، رغم أنني كنت مفصولاً دون عمل.

لقد عمد الشيوعيون إلى خدعة ظنوها تجوز علينا. لقد انخفض الإنتاج في كل معمل ومؤسسة نتيجة لانصراف الرفاق الشرفاء من العمال إلى النضال، مظاهرات، ومشيات ومهرجانات، واجتماعات، وتوزيع مناشير، وجمع تبرعات، وجمع تواقيع، فماذا يفعل الشيوعيون لخدع الشعب وجعله يعتقد بأن نسبة الإنتاج قد زادت؟

ذهبوا إلى عمال الشالجية وأوصوهم بأن يشتغلوا بجد وإخلاص لمدة أسبوع واحد وأطاع العمال الوصية واشتغلوا بكل أخلاص وحرص لمدة أسبوع. وسجل الشيوعيون الأرقام وقاموا بالإحصائيات اللازمة، فظهر أن نسبة الإنتاج قد زادت خلال ذلك الأسبوع.

وفي اليوم التالي نشرت صحف الرفاق بحروف بارزة: ازدياد نسبة الإنتاج في معامل الشالجية. وانتهى الأسبوع وعاد العمال المناضلون إلى ما كانوا عليه. هكذا يزوّر التاريخ، ويخدع الشعب، بفضل المناضلين الشرفاء. لقد تفشى الكذب والخداع بينهم وتسرب في دمائهم، حتى أخذوا يخدعون أنفسهم.

إن الحركة الشيوعية في العالم كله مصابة بجزر في مدها الآن.

ولكن الرفاق العراقيين يأبون الاعتراف بهذه الحقيقة. فتراهم في ذلك الوقت بالذات يقومون بالمجازر والاعتداءات وينكلون بخصومهم، إن التنكيل بالقوميين في الوقت الذي ارتفع فيه مد الحركة القومية في العراق لن يؤثر عليهم في شيء. إنه يضر بالشيوعيين لو يعلمون. فهو يكدس حقداً عليهم في نفوس الشعب، حتى يبلغ ذلك التكدس حد الانفجار ويومها يخلصنا الله من كل أثر للشيوعيين.



الحلقة الثامنة والعشرون

العدد ١٤٨٥

التاريخ ٧/تشرين أول/١٩٥٩

في مستهل هذا المقال أود أن أزف إلى الرفاق الشرفاء بشرى قد تسرهم. إن السلطات العراقية المسؤولة في البصرة قد ألقت القبض على عشرين إيرانياً من أعضاء حزب تودة، بينما كانوا يحالوا التسلسل إلى العراق عند التنومة. أنا لا ألوم الشيوعيين الإيرانيين إذا فرحوا وهم يرون رفاقهم الشيوعيين العراقيين يصولون ويجولون ويخرجون في مظاهرات ضخمة، ويقيمون المجازر في أي مكان شاءوا، ويسحلون بالحبال كل عدو للشيوعية، ويلفقون الإخباريات الكاذبة ضد الموطنين الأبرياء.

فلقد فرحنا نحن الشيوعيين العراقيين حين صدور نجم الحزب العميل، حزب تودا في إيران، لقد فرحنا حين أطلق الرفيق بيمان النار على شرطي إيراني، وفرحنا حين قطعت رجل ذلك الشرطي المصابة ثم ألقاها المضمد وهو رفيق شريف أيضاً إلى الكلاب. بل لقد تسللنا إليهم لنساهم في النضال.

أوليست الشيوعية أممية؟

إذن فعليك أن تكافح الرجعيين حيثما كانوا، في إيران أو في العراق أو في إسرائيل، وإن تعاون الرفاق الشرفاء حيثما كانوا في إيران أو في العراق أو في إسرائيل، ولكن رفاقنا الإيرانيين قد أخطأوا في توقيت تسللهم إلى العراق. كان ينبغي عليهم أن يتسللوا إليه حين كان المد الشيوعي في ذروته وليس الآن حين أجزر النهر الشيوعي حتى بان الطين في قاعه. ولكن.. ما أدرانا؟ لعلهم جاءوا يعينون رفاقهم العراقيين وهم يتخبطون في محنتهم.

نعود الآن إلى روايتنا، فنحاول أن نكمل تلخيصها في هذا المقال:

راح ونستون يتحدث مع رفيقه سيم عن الطبعة الحادية عشرة من قاموس (الكلام الجديد) الذي يراد له أن يحل محل اللغة الإنكليزية القديمة (لغة ما قبل ١٩٨٤) الرجعية. كان شوشر وشكسبير وملتون وبايرون، هؤلاء الشعراء العظام قد ترجموا إلى (الكلام الجديد) وأعدمت كل نسخة من دواوينهم المطبوعة باللغة الرجعية.

وخضت أعماق ونستون نظرة طويلة جاءته من فتاة تجلس إلى المائدة المجاورة. والتفت ونستون ليراها. إنها هي، الفتاة ذات الحزام الوردي، كان يخشى أن تكون من أفراد بوليس الفكر. ولكن، ربما لم تكن كذلك، وسأله رفيق آخر هو بارسون كان معه على المائدة: أأخبرتك عما فعل ولداي حين أشعلا النار في تنورة العجوز التي في السوق، لأنهما رأياها تلف قطعة من اللحم المقلي في ورقة فيها صورة الأخ الأكبر؟ لقد تسللا وراءها وأشعلوا النار فيها، بوساطة علبة ثقاب. إنهم يدربونهما جيداً في (الجواسيس) هذه الأيام.

كان ونستون يتجول، وقد اعتصر روحه السأم، ذات ليلة حين قادته قدماه إلى حانوت بيع الأسقاط الذي اشترى منه دفتر المذكرات.

وتملكه رعب شديد. لقد كان عملاً أحمق منه أن يشتري دفتر المذكرات، وكان قد أقسم بألاّ يقترب من هذا الحانوت مرة أخرى. وبشعور، في أنه وهو داخل الحانوت أكثر أمناً منه في خارجه، دخل متظاهراً ـ فيما إذا سُئل ـ بأنه جاء يبحث عن شفرات حلاقة.

وعرفه صاحب الدكان الذي كان في حوالي الستين من عمره وسأله عما إذا كان يستطيع أن يقدم له أية خدمة. ولكن ونستون أخبره بأنه لم يجيء عن قصد. وقال صاحب المخزن: بيني وبينك إن تجارة التحف والأثريات أوشكت أن تنتهي. وأبرز الرجل لـ ونستون تحفة ما، هي كتلة كبيرة من الزجاج على شكل نصف كرة تقريباً، وفي لبها كان شيء أحمر ربما كان وردة أو نباتاً بحرياً. وقال ونستون إنها جميلة، فأجاب البائع: إنها جميلة ولكن ليس هناك من يقول كذلك اليوم.

وراح الرجلان يتحدثان عن التحف القديمة وعن بحث الأنسان عن الجمال بالإضافة إلى النفع في كل حاجة، في الكتب والأثاث. ثم تحدث إلى ونستون عن غرفة لديه تحوي أثاثاً قديماً جميلاً. إنها فوق السطح. وتفرجا عليها، ولاحظ ونستون بصوت مسموع، ليس فيها تلسكرين. فقال الرجل: لم يكن لدي واحد من تلك الأشياء مطلقاً.

وفي ذات يوم في ممر في مبنى الوزارة أبصر ونستون بالفتاة ذات الحزام الوردي مقبلة نحوه. وحين اقتربت لاحظ أن ذراعها مربوطة بضماد. وحين أصبحت على مدى خطوات منه زلقت وهوت على الأرض وهي تصرخ من ألم وأنهضها ونستون من عثرتها. وبينما كان يساعدها على النهوض أحس بها تدس ورقة مطوية في يده. وحين ذهبت وفتح الورقة كان مكتوباً فيها أحبك. ولكن كيف يتصل بالفتاة ويدبر موعداً؟ تلك هي المشكلة التي ملأت ذهنه.

وحانت له الفرصة حين رآها في المطعم الملحق بالدائرة جالسة وحدها إلى مائدة وجلس إلى جانبها. وكان هذا اللقاء فاتحة لسلسلة من اللقاءات في الغابات والأحراش، لقد عرف الآن أن اسمها جوليا. لا رقيب فيها ولا تلسكرين. وسألها لماذا أحبته؟ فقالت: إنني ماهرة في معرفة الأشخاص الذين لا ينتمون. حالما رأيتك عرفت أنك ضدهم.

وفاتح ونستون صاحب حانوت الأقساط في أن يؤجر له الغرفة العلوية فوافق. والتقى ونستون وجوليا، ورقدا معاً في السرير القائم في تلك الغرفة وكانت تجيء له بقهوة حقيقية مما لا يستطيع الحصول عليه إلاّ أعضاء اللجنة المركزية للحزب. لقد اشترتها من أحد الخدم. وعدته بأنها ستحاول الحصول على ثوب امرأة حقيقي لترتديه بدلاً من البنطلون اللعين الذي ترتديه.

وفي ذات يوم جاءه أوبرين وتحدث إليه عن مقال كتبه ونستون. لقد استعمل ونستون في مقاله كلمتين أصبحتا باطلتين الآن. وسأله عما إذا كان قد رأى الطبعة العاشرة من قاموس (الكلام الجديد). وأعطى أوبرين لونستون عنوانه، وطلب إليه أن يزوره في البيت ليعطيه نسخة من القاموس. إنها ذريعة للاتصال بي. هكذا فكر ونستون. وزاره هو وجوليا. وفي بيت ونستون استطاع أوبرين أن يشرب الشراب. . الشراب الذي أصبح شيئاً منقرضاً أو شبه منقرض.

وسال أوبرين عن غولدشتاين. وهل هو موجود؟ فأجابه أوبرين بالإيجاب. ثم سأله عما يشاع عن المنظمة المناهضة للنظام والتي تسمى (الأخوان) وبدأ أوبرين يوجه إلى ونستون أسئلته: أأنتما مستعدان للتضحية بحياتيكما؟ أأنتما مستعدان لارتكاب القتل؟ أأنتما

مستعدان للقيام بأعمال تخريب قد تسبب موت المئات من الأبرياء؟ أأنتما مستعدان لأن تخونا وطنكما لدى الدول الأجنبية؟ أأنتما مستعدان لأن تخدعا وتزيفا وتبتزا، وأن تفسخا عقول الأطفال، وأن توزعا المخدرات وأن تشجعا البغاء وأن تنشرا الأمراض المعدية، وأن تقوما بكل ما من شانه أن يثبط همة الحزب ويضعف قوته. فأجابا بـ نعم.

وسألهما: مثلاً، قد تقتضي مصلحتنا أن نقذف حامض السلفريك في وجه طفل أأنتما مستعدان للقيام بذلك؟ نعم. ثم سألهما: أأنتما الاثنان مستعدان لأن تفترقا وألاّ يرى أحدكما الآخر أبداً. وصرخت جوليا ـ كلا. وكذلك قال ونستون.

وفي ذات يوم كان العاشقان يرقدان في سريرهما في الغرفة المستأجرة. وفجأة نهضا ووقفا لدى النافذة. كانت هناك في الساحة المجاورة، امرأة تغسل الثياب وتغني. وراح ونستون يصغي إليها ويفكر بحبهما ومستقبله. سيصيدهما بوليس الفكر ذات يوم. وعندئذ ينتهي أمرهما. لن يستطيعا النجاة من بوليس الفكر إلى الأبد.

وقال في نفسه، نحن أموات وإن كنا نبدو أحياء الآن، محكوم علينا بالموت سلفاً. وقال بصوت عال: نحن الأموات. فسمع صوتاً يقول ـ أنتما الأموات. إنه التلسكرين، لقد كان مخبوءاً في الغرفة خلف إحدى الصور. وصاح بهما الصوت الحديدي من التلسكرين ـ أمكثا حيث أنتما لا تتحركا حتى تؤمرا. ووقفا هنالك ينتظران. وتحطم زجاج الصورة التي أُخفي التلسكرين خلفها، وبرز التلسكرين، وصاح صوته: نحن نستطيع أن نراكما الآن. قفا لي وسط الغرفة اشبكا أيديكما خلف رأسيكما. قفا ظهراً إلى ظهر.

وسمعا وقع أقدام على الدرج وامتلأت الغرفة برجال يلبسون أردية

الحزب السوداء. لقد اتضحت لونستون الأمور الآن. إن صاحب المخزن الذي خدعه بالحديث عن الأشياء الجميلة، وباع له دفتر المذكرات وأجر الغرفة، ما هو إلاّ عميل من عملاء بوليس الفكر.

وسيق ونستون إلى ناحية وجوليا إلى ناحية أخرى. وهناك في الموقف لقى من صنوف التعذيب الجسمي والنفسي ما لو أردت الحديث عنه لاضطررت إلى ترجمة فصول كاملة من الكتاب. ولكن.. من الذي كان يعذبه؟ انه أوبرين؟ نعم أوبرين نفسه.

إن أوبرين هو الآخر وكيل من وكلاء بوليس الفكر وقد استطاع أن يخدعه، أن يصطاده. وتنتهي الرواية لا بموت ونستون وإنما بموت روحه. لقد سحقت مقاومته للحزب ودكتاتوريته سحقاً. فأصبح في نهاية الأمر آلة من هذه الملايين من الآلات الصماء التي يوجهها الحزب كيفما شاء. وأصبح يحب الرفيق الأكبر.



الحلقة التاسعة والعشرون

العدد ١٤٨٦

التاريخ ٨/تشرين الأول/١٩٥٩

في هذه الأثناء زار البصرة الرفيق أبو سعيد موفداً من دائرته في مهمة رسمية. وبحث عني حتى وجدني. وفي ذات ليلة وعلى مائدة أثقلتها زجاجات العرق راح الرفيق أبو سعيد وهو اليوم رفيق كبير يحدثني عن حركة أنصار السلام وحاجتها إلى جهودي وجهود أمثالي، وحضني على ترك البصرة والاستقرار في بغداد للمساهمة في هذه الحركة العظيمة.

وكان الحزب الشيوعي العراقي قد أصدر منشوراً حث فيه المواطنين على اختلاف عقائدهم وأديانهم وقومياتهم ومبادئهم السياسية على التوقيع على نداء السلام الصادر من مؤتمر أنصار السلام في استوكهولم. وكان المفروض أن حركة السلام حركة حرة لا علاقة لها بأي حزب كان، وخاصة بالأحزاب الشيوعية. وكان مجلس السلام العالمي قد اختار ثلاث شخصيات عراقية غير شيوعية وإن كانت يسارية، أعضاء في اللجنة الوطنية للدفاع عن السلام، وكان أحد هؤلاء الثلاثة يضع الخطوط الأولى من ندائه ويحاول جمع تواقيع

الشخصيات البارزة في ميادين الدين والأدب والسياسة على نداء السلام حين أصدر الحزب الشيوعي نداءه العتيد.

قال هذا الشخص، وهو يعاقب الشيوعيين بعد ذلك متحدثاً عن هذا المنشور الشيوعي: كنت ذاهباً إلى الأستاذ (ف. أ) أحدثه عن حركة السلام وأدعوه إلى المساهمة فيها والتوقيع معي على النداء الذي كنا سنوجهه إلى الشعب العراقي. وأنا أؤكد له أن حركة السلام لا علاقة لها ـ أية علاقة ـ بالحزب الشيوعي. كل ذلك ومنشور الحزب الشيوعي الداعي إلى السلام في جيبي. وأنا أدعوا الله ألاّ يكون قد رآه.

لقد نجح أنصار السلام في سوريا مثلاً في جمع تواقيع عدد من الشخصيات البارزة البعيدة كل البعد عن الشيوعية، على نداء السلام لـ معروف الدواليبي مثلاً. أما في العراق فقد قطع الحزب الشيوعي العراقي بتصرفه الحكيم هذا الطريق على كل نصير للسلام فاقتصرت حركة السلام على تأييد أعضاء الحزب الشيوعي ومؤيديه لها.

لقد تناقشنا في هذا الموضوع، أنا وجماعة من السجناء الشيوعيين الذين كانوا ينزلون في مستشفى الأمراض الصدرية، ووجهت لومي إلى الحزب الشيوعي الذي كنت عضواً فيه آنذاك على موقفه هذا فأجابني الرفاق: كان لابد له من ذلك، إذ إن عليه أن يسجل دوره التاريخي.

يسجل دوره التاريخي!! يقوم بأعمال ينتج عنها ضرب الحركة الوطنية والمصالح الوطنية من أجل أن يكتب في الكتاب الذي سيصدر عن تاريخ الحزب الشيوعي العراقي بعد عشرين عاماً مثلاً أن الحزب الشيوعي العراقي قد قام بدوره التاريخي فكان أول من رفع شعار

السلام وتبنى هذه الحركة. كأن الأوامر لم تصدر من موسكو إلى الأحزاب الشيوعية في العالم كله بأن ترفع شعار السلام وتتبنى حركة أنصار السلام.

لقد (لوص) الشيوعيون العراقيون في حركة أنصار السلام (تلويصاً) ما عليه من مزيد. حتى أن أحد الرفاق الكبار قال ذات مرة: إن حركة أنصار السلام وسيلة لنشر الاشتراكية في العالم.

عاد الرفيق أبو سعيد إلى بغداد ولم ألبث إلاّ أياماً قليلة في البصرة ثم حصلت على إجازة من شركة نفط البصرة وسافرت إلى بغداد. وكنت متردداً في مسألة البقاء في بغداد. أأترك عملي في البصرة لأعيش في بغداد عاطلاً وأنا لا أملك فلساً ولا ديناراً؟ ولكن الرفيق أبا سعيد كان يلح عليّ في البقاء حتى انقضى أحد إجازتي وأنا مازلت في بغداد. وبعد يومين جاء الرفيق أبو سعيد في الفندق واخذ أمتعتي واصطحبني معه إلى البيت. وهكذا نمت تلك الليلة على وسادة غريبة وأكلت زاد الغرباء.

لقد عملت في حركة أنصار السلام عملاً مرهقاً، مؤلماً! كنت أقضي الساعات جالساً في أيام القيظ في مقهى حسن عجمي وأنا استنسخ على الكاربون آلاف الأسماء من أسماء الموقعين على نداء السلام حتى إذا فرغت من ذلك قمت راكضاً من إدارة جريدة إلى إدارة جريدة أخرى موزعاً عليها نسخاً من تلك العرائض لتنشرها.

اشتغلت بعد ذلك مترجماً في جريدة الاتحاد للأستاذ ناجي العبيدي. وكان صاحبها إنساناً طيباً وسليم النية استطعنا نحن الشيوعيين أن نخدعه ونسيّر جريدته كما نشاء.

كان ملتقط الأخبار الخارجية مثلاً يلتقط نشرة الأخبار من إذاعة

موسكو. وكنت أنا أترجم المقالات من المجلات السوفياتية أو أحرف المقالات التي أترجمها عن الصحف الأمريكية الإنكليزية حتى تصبح وكأنها منقولة من صحيفة شيوعية.

ولم يكن هذا يكفيني. كنت في بعض الأحيان أعمد إلى مجلة الطريق اللبنانية الشيوعية فأنقل منها المقالات التي ترجمتها هي في الأصل عن إيليا اهرنبورغ وقسطنطين سيمولوف وسواهما من الكتاب السوفيات. ولكن ضميري لم يكن ليؤنبني على هذا الغش. كان نضالاً في سبيل السلم والديمقراطية والطبقة الكادحة.

إن الشيوعي يؤمن بشعار قد يتراءى للناس أنه يؤمن به، ولكن الشيوعي هو منفذ هذا الشعار المكافيلي اليوم وصاحبه: الغاية تبرر الواسطة.

إن أعداء الشيوعية قد يفسرون هذا الشعار تفسير آخر فيقولون إذا كنت لا تستحي فافعل ما شئت، والشيوعي لا يستحي.

لقد تملكني العجب الشديد حين رفع الشيوعيون شعار السلام لأول مرة. كيف ينادون بالسلام وهم يعلمون أن غاياتهم لن تتحقق ما لم تسقها الدماء؟ بل إن الحزب الشيوعي العراقي كان يحلم وأظنه مايزال خاصة بعد أن انتكس وخاب أمله، في أن تقوم الجماهير في العراق بالثورة البروليتارية ضد الحكومة البرجوازية الوطنية!! بأنه سيصل إلى الحكم عن طريق حرب عالمية تنشب. فحينذاك فقط يستطيع الجيش الأحمر أن يكتسح تركيا أو إيران ويهبط وادي الرافدين من أجل تحريره ويومها يصبح سكرتير الحزب الشيوعي العراقي رئيساً للجمهورية العراقية الشعبية أو رئيساً للوزراء على الأقل. ويصبح أعضاء اللجنة المركزية وزراء بما فيهم الرفيق الشريف جداً الذي كان وكيلاً من وكلاء التحقيقات الجنائية في العهد البائد من عام ١٩٥٠،

وكان يرسل تقاريره ويستلم راتبه وهو ستة دنانير لا أكثر بواسطة الشيوعي الذي أصلح نفسه (ف. ب) أحد أعضاء اللجنة المركزية الثالثة للحزب الشيوعي العراقي يستلم ويسلم في إحدى العمارات إذ كان له مكتب فيها.

كيف يرفع الشيوعيون ـ في آسيا على الأقل ـ شعار السلام وهم الذين صفقوا طويلاً للرفيق ماو تسي تونغ، حين قال في خطاب ألقاه بعد انتصاره على شيان كاي شك وخضوع الصين للحكم الشيوعي: إن الجيش الصيني لن يضع السلاح حتى تتحرر شعوب آسيا جميعاً؟ أم أن الصين يجوز لها ما لا يجوز لسواها لأنها ليست عضواً في الأمم المتحدة؟ يحق لها أن تغري الكوريين الشماليين بالهجوم على كوريا الجنوبية ثم تدعمهم بآلاف المتطوعين؟

يحق لها أن تهاجم الناس في أراض هندية صرفة وتحتل تلك الأراضي ثم ترفع صوتها بالصراخ زاعمة بأن الهند قد اعتدت عليها؟

أسمع أقوال أئمة الشيوعيين بل أنبيائهم لتدرك جيداً ما إذا كان في الإمكان أن تجتمع الشيوعية والسلام. قال اليهودي كارل ماركس في خطبة له ألقاها على الهيئة المركزية للحزب الشيوعي سنة ١٨٥٣: عليكم أن تقتحموا خمس عشرة سنة أو عشرين أو خمسين من الحروب الأهلية والحروب بين الأمم لا لتغيروا الأوضاع فقط بل لتؤهلوا أنفسكم لحكم العالم أيضاً.

وقال لينين اليهودي أيضاً: قلّلو من الكلام والضجيج وهيئوا قواتكم. إن الحرب الثورية آتية وليس بيننا نحن الشيوعيين أي خلاف حول هذا الموضوع. وقال أيضاً: يجب أن يكون ديدننا العمل لتسليح البروليتاريا ونزع السلاح عن البرجوازيين وإضعافهم ليتسنى لنا أن نقهرهم ونرثهم. وقال أيضاً: يجب أن نتهيأ لخوض الحرب، إذ لا

يمكن تجنبها، فهي آتية ولسوف تأتي. وقال: حين نطوح بالبرجوازيين ونقهرهم قهراً تاماً ونستحوذ على مخلفاتهم في العالم كله وليس في بلد واحد فحسب، عندئذ فقط تصبح الحروب مستحيلة الوقوع.

ومن مقررات المؤتمر العالمي السادس للشيوعية الدولية عام ١٩٢٨: إنه لمن المستحيل القضاء على الرأسمالية بدون استعمال القوة وبدون الانتفاضات المسلحة والحروب ضد البرجوازية.

وقال ستالين: لا تنشأ الدكتاتورية العمالية عن التطور السلمي للمجتمع البرجوازي أو الديمقراطية البرجوازية والجيش البرجوازي والإدارة المدنية البرجوازية والبوليس.

ويقول لينين وهو قول يؤكد التعايش السلمي حقاً: إننا نعيش ليس فقط في دولة بل في مجموعة دول ووجود الجمهورية السوفياتية جنباً إلى جنب مع الدول الرأسمالية أمر لا يعتقد، فإحداهما يجب أن تنتصر في النهاية. وقبل أن تجيء هذه النهاية، لن يكون مفر من سلسلة من المصادمات المخيفة بين الجمهورية السوفياتية والدول البرجوازية.

ولعل لدعوة السلام الشيوعية ما يبررها في قول لينين: ليس من الروح الثورية بل من الحماقة أن تشن الحرب على أعدائنا في الوقت الذي نحن فيه أضعف منهم. وإن لمن الجريمة أن نوافق على محاربة عدونا في الوقت الذي يكون النجاح مضموناً له وليس لنا.

وهو القائل أيضاً: يجب علينا أن نستخدم أية حيلة أو خدعة أو مراوغه أو مكر أو وسيلة غير مشروعة أو حاجبة للحقيقة.

ما هي أهداف الشيوعيين من حركة السلام إذن؟ هذا ما سأوضحه في حلقة قادمة.

الحلقة الثلاثون

العدد ١٤٩٩

التاريخ ٢٣/ تشرين الأول/ ١٩٥٩

السلام عندهم

إن الشيوعيين يزعمون بأن دعوتهم للسلام لا تتناقض مع أقوال ماركس ولينين وستالين التي نقلناها في الحلقة السابقة. إنها دعوة للسلام العالمي وليس للسلام بشكل مطلق. إن الحرب الطبقية لا تتوقف تحت ظل السلام بل إن تلك الحرب وجه من وجوه هذا السلام الشيوعي العالمي. بل لعل حركة السلام لم توضع إلاّ رعاية للحرب الطبقية وتشجيعاً لها كيلا تعيقها حرب عالمية ثالثة.

إن نضال أنصار السلام في البلدان الرأسمالية هو الحيلولة دون تسلح تلك البلدان وإرغامها على سحب قواعدها في أراضيها وفيما وراء البحار. أما نضالهم في البلدان المبتلاة بالاستعمار أو في البلدان التي تحكمها حكومات معادية للشيوعية فهو منع تلك البلدان من الدخول في أي حلف أو اتفاق عسكري مع البلدان الرأسمالية ومحاولة طرد الاستعمار وجيوشه وإزالة القواعد العسكرية التي يقيمها العالم الغربي.

إن المناداة بالسلام لا تعني أن كوريا الشمالية الشيوعية لا يحق لها أن تهاجم كوريا الجنوبية وتحاول احتلالها، ولا يعني أن الصين الشيوعية لا حق لها في مهاجمة فرموزا ومحاولة إخضاعها للحكم الشيوعي ولا حق لها في العدوان على الهند واغتصاب قسم من أراضيها.

إن الهدف الذي يرمي إليه الشيوعيون من حركة السلام هذه هو ابتلاع المعسكر الغربي لا دفعة واحدة حيث قد يبتلعهم ذلك المعسكر وإنما ابتلاعه جزءاً بعد جزء، تخرج كوريا الجنوبية من المعسكر غير الشيوعي وتخضع للمعسكر الشيوعي ثم تتبعها غواتيمالا وكوبا وسيلان وإيران وبرلين وربما العراق، وحينذاك وبعد أن يكون الخصم وهو العالم الغربي قد ضعف فلا مانع من شن الحرب عليه ودحره.

وقد جاء في الكتاب السري الذي أصدره الكومنترن الشيوعي، أن الدعاية للسلم وعدم التسلح هي أحسن تهيئة للتضامن المسلح.

وقد جاء من بين القرارات التي اتخذها المؤتمر العالمي السادس للشيوعية الدولية: إن العمل ضد التسلح في الدول غير الشيوعية يختلف اختلافاً كلياً عن العمل من أجل السلام فإن العمل لعدم التسلح هو الجزء المتمم للكفاح العام ضد النظام الرأسمالي كما وأنه مرتبط ارتباطاً تاماً بالدفاع عن الدول الاشتراكية.

وقد يبدو في هذا القول بعض التناقض، فكيف تختلف الدعوة إلى عدم التسلح في الدول غير الشيوعية عن العمل من أجل السلام؟ في حين أن كفاح أنصار السلام في البلدان غير الشيوعية وخاصة الرأسمالية يتخذ شكل دعوة إلى عدم التسلح؟

ليتذكر القارئ أن هذا الكلام موجه إلى الشيوعيين وليس إلى

الجماهير بصورة عامة. إن الشيوعي يجب عليه ألاّ يؤمن بالسلام وإن رفع عقيرته في المناداة به.

ألم يقل ستالين في رسالته التي أرسلها إلى مكسيم غوركي عام ١٩٣٠: نحن لسنا ضد كل حرب، نحن ضد الحرب الاستعمارية، الحرب المضادة للثورة. إننا بجانب كل حرب تحررية مضادة للاستعمار، حرب ثورية شعبية. إن حرباً كهذه لا تكون خالية من الأهوال وسفك الدماء، بل تنشأ بها وعليها؟

لقد عجب أبناء شعبنا الكريم حين رأوا أنصار السلام في كركوك خاصة وفي سواها من الأماكن يقتلون رقاب الأطفال الصغار في سبيل المحافظة على السلام ويسحلون الناس الأبرياء بالحبال في سبيل المحافظة على السلام ويسرقون ويذبحون ويحرقون ويتجسسون ويقدمون الوشايات الباطلة والإخباريات الكاذبة ضد المواطنين، في سبيل المحافظة على السلام.

وتسألوا: كيف تتفق الدعوة إلى السلام والسحل بالحبال؟ كيف تتفق الدعوة إلى السلام وقتل الأطفال؟ ولكن إن تلك الأعمال هي من مستلزمات النضال من أجل السلام الشيوعي.

كما أن حركة السلام كانت في بلد مثل العراق، كانت حكومته البائدة الخائنة تكافح الوطنيين جميعاً باسم مكافحة الشيوعية. وقد أتاحت للحزب الشيوعي العراقي السري، فرصة العمل بصورة علنية أو شبه علنية. وقد كان الرفاق الكبار - المعلمون والموجهون - في الكرملين هم أول من فطن إلى ذلك، فهذا الرفيق سوسلوف السكرتير الخاص لـ ستالين وسكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، يقول في خطاب ألقاه في اجتماع للكومنفورم عام ١٩٥٠: إن على الشيوعية

العاملة في أوربا الغربية استغلال الربح الكبير الذي يعود به إغراء الملايين من الناس بالتوقيع على نداء استوكهولم للسلام، إن عشرين بالمائة أو خمسة وعشرين بالمائة من هؤلاء الموقعين على النداء إذا ما بذلنا قليلاً من الجهد. وما أخطر شأن أمثال هؤلاء وهم يؤلفون لحركتنا الشيوعية عناصر نافعة. وإذا لم يتيسر انضمامهم إلينا مباشرة فلا أقل من استخدام أصواتهم الانتخابية التي يمنحونها لمن يهتم بأمرها وسلامتهم ومعيشتهم، أي للشيوعيين.

ولما كان لهؤلاء الذين سينتخبون أعضاء للمجالس في الحياة العامة فإننا نناشد أعضاء الأحزاب الشيوعية أن يسعوا جاهدين إلى توجيه كل تصويت في الانتخابات نحو تحريم السلاح الذري لاستغلال هؤلاء وبالتالي لابد لحركة السلم من النفاذ إلى هيئات العمال ونقاباتهم ونقابات الفلاحين الذين لما يتم الاتصال بهم بعد وعلينا إقناع مشوهي الحرب وضحاياها بأهمية السلم الذي لا ريب في أنهم من طلابه ودعاته، والسبيل إلى ذلك هو أن نكثر من تأليف الأحزاب والهيئات المحلية والسيطرة عليها بحيث لا ندعها تعمل منفردة بل تحت الرقابة والإرشاد الحزبي الشيوعي.

وطبيعي أن نصائح الرفيق سوسلوف هذه لم تكن موجهة إلى الأحزاب الشيوعية في أوربا الغربية وحدها وإنما إلى جميع الأحزاب الشيوعية في العالم غير الشيوعي كله. وقد استفاد الرفاق الشرفاء في العراق من هذه النصائح وطبقوها وكسبوا النجاحات فيها، وإن كانت نجاحات تافهة لافتقار حزب الرفاق إلى القيادة الحازمة الحكيمة.

الحلقة الحادية والثلاثون

العدد ١٥٠٠

التاريخ ٢٥/تشرين الأول/١٩٥٩

شعاراتهم الجماهيرية

تساءل بعض الأصدقاء والمعارف عن سبب انقطاعي طوال هذه المدة عن الكتابة ثم عودتي إليها على حين غرة هذين اليومين. ومن حقهم أن يسألوا ومن واجبي أن أجيب بعد الجريمة الآثمة، جريمة الاعتداء على حياة زعيم الشعب، ارتأيت وارتأى معي المسؤولون عن جريدة الحرية، أن الواجب الوطني يدعونا إلى أن نتحاشى إثارة أية حزازة أو مشاحنة بين صفوف الشعب، وأن نسعى جهد الإمكان إلى جعل العلاقات بين صفوف الشعب، وأن نسعى جهد الإمكان إلى جعل العلاقات بين مختلف الكتل والفئات علاقات هادئة ليس فيها اتهام من فئة لأخرى ولا سب ولا هجوم. ولكن الرفاق الشرفاء وجدوا فيما حدث وفي صمت الحرية عنهم فرصتهم التي يجب ألاّ يفوتوها فراحوا على عهدهم يفترون ويدسون.. بل ويتهمون ويهددون.

لم يفسر الرفاق وهم المنطوون على نفوس يربأ الوحش أن تكون له والمعتنقون مبدأ يقوم في أساسه وجوهره على الحقد والحسد..

فلان عنده وأنا ليس عندي، فلآخذ ما عنده، صمتي عن سرد ذكرياتي الشيوعية تفسيراً حسناً. بل إن خيالهم الذي سممته أبخرة الفودكا، صور لهم قصة عجيبة، هي أنني لذت بأذيال الفرار، حتى إذا سأل سائل عن سبب هربي أجابوه: إنهم بدأوا يفرون خشية أن يفضهم التحقيق.

وأمام أكاذيب كهذه ومفتريات قذرة لا يسعني إلاّ أن أواصل كتابتي ماداموا يريدون ذلك. والحق أن كتاباتي تخدم الشيوعية كما قال أحد الموظفين الكبار وهو إنسان ديمقراطي، كان شيوعياً ذات يوم ثم رأى ما رأى من الأخلاق الشيوعية، لست أدري ما يقصده هذا المسؤول حين قال أن كتاباتي تخدمهم، أيقصد أنني تحدثت عن أنسهم وطربهم النضالي مما يدفع المراهقين إلى صفوفهم ليصيبوا شيئاً من ذلك؟ إن كان هذا هو ما يقصد فليذهب أولئك المراهقون إليهم. وإن الوطن والقومية العربية ليسا بحاجة إلى شباب يتنكرون لوطنهم ومصلحته فمصلحة الكرملين هي العليا لدى الشيوعيين ولقوميتهم ولدينهم ولكل ما هو نبيل ورفيع.

وتوسط لي بعض الرفاق لدى مدير الأموال المستوردة العام وكان يسارياً بأن يعينني في دائرته دون أن يطالبني بشهادة حسن السلوك. وهكذا كان وأصبح البيت الذي استأجرته أنا وشقيقي وكراً من أوكار حركة السلام الشيوعية نجتمع فيه ونتباحث ونتناقش ونقرأ المناشير. غير أنني لاحظت أن أحاديث أحدنا وهو طالب في إحدى الكليات، لم يكن ليدور حول السلام وإنما حول قوة التقدميين والناس الطيبين في كليته ونسبتها إلى قوة الطلبة القوميين.

وفي تلك الأثناء أخذ الرفاق قصيدة طويلة كتبتها عن السلام

وسميتها ـ فجر السلام ـ ونشروها دون أن يذكروا اسمي، وهذا ما اقترحته أنا عليهم وكان ريعها طبعاً لحركة السلام. إن تلك القصيدة كانت من الشعر الشيوعي النموذجي، فقد شحنتها بأفكار حركة السلم تحدثت عن أشكال السلام في البلدان الاشتراكية والبلدان الاستعمارية والرأسمالية والبلدان المستعمرة وشبه المستعمرة. ومن أبياتها التي توضح فكرة الشيوعيين عن السلام:

والسلم ما حطم المستعبدون على
حديه، أوصال سفاكين أشرار

ولم أنس أن أتحدث عن الأم الرؤوم، حصن السلام والاشتراكية، فقلت:

هناك يرين السلام
كأهداب طفل ينام
وحيث التقيت وهي ترنو
عيون الورى في وئام
برغم اللظى والحديد
نمت زهرة للسلام

وتوتر الجو السياسي في بغداد شيئاً فشيئاً. وقدم عدد من رجالات الأحزاب وخاصة حزبي الجبهة الشعبية والوطني الديمقراطي مذكرة إلى عبد الإله ضمنوها مطاليب الشعب. وكنت عدا وظيفتي أشتغل مترجماً في جريدتي الجبهة الشعبية والرأي العام. وقد نشرت في الجبهة الشعبية قصيدة ثائرة تنبأت فيها بالوثبة الثانية.. وما لبثت الوثبة الثانية أن جاءت وإن سميت انتفاضة تشرين.

ولكن كيف جاءت؟ تلك هي سخرية الأقدار التي فجعت العراق بأسوأ حزب شيوعي عرفه التاريخ.

في أوائل تشرين أصرب طلاب كلية الصيدلة إضراباً أسبابه مدرسين صرف لا علاقة لها بسوء الوضع السياسي ولا بحرية الصحافة وسواها من الحريات ولا بقيادة الشرق الأوسط وسواها من مشاريع الاستعمار.. وأثناء الإضراب اعتدى طالب في كلية الحقوق لأسباب عاطفية وأخلاقية، إذ كان المعتدى عليه قد تعرض بإحدى قريبات المعتدى أحد طلاب كلية الصيدلة الشيوعيين وضربه بسكين.. وهنا قامت القيامة وخرجت المظاهرات التي ما لبثت أن رفعت الشعارات الوطنية التي لا علاقة لها البتة بأسبابها الأصلية.

إن الحزب الشيوعي الذي درس قادته بالتأكيد تواريخ الحركات والأحزاب الشيوعية، يعرفون جيداً أن كل حزب شيوعي حين يقوم بثورة أو محاولة ثورة لا يقود وراءه جماهير الشعب إلاّ إذا رفع شعاراً تتبناه كل تلك الجماهير، فحين كان الشعب الروسي قد سئم الحرب وضاق بها ذرعاً وود لو تنسحب حكومته منها، رفع الشيوعيون الروس البلشفيك شعار الانسحاب من الحرب فالتفت حوله الجماهير وقامت ثورة أكتوبر. أما الحزب الشيوعي العراقي.. فأي شعار جماهيري ابتدأ به مظاهراته؟ شعار لا يأتلف مع الشعور العام.



الحلقة الثانية والثلاثون

العدد ١٥٠١
التاريخ ٢٦/ تشرين الأول/ ١٩٥٩
حكاية انتفاضة تشرين

هناك رأي يقول، إن الحزب الشيوعي العراقي استدرج إلى انتفاضة تشرين استدراجاً وإن سلطات العهد البائد كانت تعرف أن الشيوعيين العراقيين لن يفوتوا فرصة القيام بتظاهرات وإحراق لمراكز الشرطة، إذا هي توفرت لهم فوفرها لهم عملاء نوري السعيد. ويقصد أولئك العملاء من هذا.. أشياء منها إفهام الشيوعيين والسائرين في ركابهم أنهم أضعف بما لا يقاس من الحكومة وقوتها، وأن مفارز قليلة من الشرطة والجيش كافية لسحق جبروت جماهيرهم وتشتيتها وزجها في المواقف والسجون، ومن ناحية أخرى فقد كان الاستعمار وعملاؤه يزعمون عقد ميثاق في بغداد، ولابد قبل ذلك من تصفية الحركة الوطنية، من حل الأحزاب وتعطيل الصحف الوطنية ومصادرة الحريات جميعاً.

بل إن شخصاً لا أريد ذكر اسمه كان يتصل بأحد الشيوعيين من ذوي قرباه وقد أخبره قبل انتفاضة تشرين بشهر كامل، بأن انتفاضة ستحدث بعد شهر، وكان قد سمع بذلك من مصدر مسؤول في

التحقيقات الجنائية وحين سأل ذلك الشيوعي منظمه، وكان بهاء الدين نوري عن ذلك أجابه بأنه لا يعلم شيئاً عن هذا.. وقد تلقى هذا السؤال قبل مظاهرات تشرين بيوم واحد. إن غباء القيادات الشيوعية عجيب في أمره.. وكيف لا يكون الأمر كذلك إذا كان سكرتيرهم قد جمده السيد موسى الذي كان مسؤولاً عنه آنذاك عام ١٩٤٨ لأسباب.. لا مجال لذكرها، إذ إن الحرية الجريدة لا تبيح لي ذلك!

كنت آنذاك في تشرين موظفاً في مديرية الأموال المستوردة، وقد سمعت بحوادث كلية الصيدلة لا بحقيقتها ولكن بأن أحد الجواسيس اعتدى على مناضل ديمقراطي ـ ويقصدون شيوعياً ـ وجرحه بسكين، وسمعت بالمظاهرات التي حدثت غير أني لم أرها في اليوم الأول.

وفي اليوم التالي توسعت المظاهرات وأقبل علينا أحد موظفي دائرتنا وهو مناضل محمر العينين والأنف من أثر الغاز المسيل للدموع الذي أطلق على المتظاهرين، وكان منهم.

وأمر المدير بإغلاق باب الدائرة وأمر الشرطة ونفراً من الفراشين بألاّ يسمحوا لأحد من الموظفين بمغادرة الدائرة. وكنا نحن الشيوعيين في الدائرة نتلهف إلى أن نكون في وسط المعمان. واكتفينا بالوقوف في النوافذ والشرفات نتفرج وكنت واقفاً في النافذة أتفرج حين ارتفعت ألسنة النار هائجة ثائرة تنذر بالويل والثبور، لقد أحرق المتظاهرون دائرة العلاقات الأميركية. وكانت قريبة من بناية الدائرة ورحنا نتباحث فيما نراه. ستمس النار أسلاك الكهرباء فتحترق بغداد كلها، فأية فاجعة وأية نكبة!

وتذكرنا حريق القاهرة المشؤوم الذي دبره الاستعمار وعملاؤه ربما كان هذا الحريق من نوع ذلك الحريق.

واقتحمت باب الدائرة غير مبالٍ بصيحات الفراشين ولا بمحاولات الشرطيين الموكلين به أن يمسكاني. واندفعت نحو دائرة العلاقات الأميركية التي كانت تشتعل فيها النار ولاحظت أن بعض المتظاهرين قد صعدوا إلى أعلى طابق في العمارة التي تقوم فيها دائرة العلاقات الأميركية، وراحوا يرمون من عل بمسجلات الصوت والراديوات والأشرطة السينمائية والكتب وكل ما صادفتهم أيديهم. كان المتظاهرون قد وقفوا تحت دائرة العلاقات المحترقة لا يبرحون، إن عليهم أن يتحدوا قوات الشرطة ويصطدموا بها ويهزموها ويفرضوا على الحكومة الخائبة مطاليبهم.. لا أن يحرقوا كتباً في المكتبات منها عشرات النسخ أو يحطموا مسجلاً للصوت لن يؤثر ثمنه الزهيد على الخزينة الأميركية في شيء. ثم إن هناك خطراً بأن يتسع الحريق، حتى يفترس بغداد كلها، بمنازلها وأكواخها بأطفالها وعذارها وحواملها وشيوخها. ورحت أصرخ في عصبية مخاطباً المتظاهرين: أيها الأخوان تذكروا حريق القاهرة ولا تسمحوا لهذا الحريق بأن يكون مثله علينا أن نسير في مظاهرتنا، أن نواصل النضال ـ واستجاب قسم من المتظاهرين لهذا النداء بينما ظل أغلبهم في غيهم سادرين.. يحرقون وينهبون ويحطمون، وكأنهم يحطمون الاستعمار ذاته لا مسجلاً للصوت، ويحرقون الاستغلال لا فلماً سينمائياً.

وعند مظلة شرطي المرور القريبة من سوق الشورجة، ارتقيت واحدة من الصواري ورحت ألقي قصيدة كنت قد كتبتها في الليلة الماضية، منها:

جاع الشهيد ومد فاه إلى الدم

فاعصر فؤادك أو فؤاد المجرم

جاع الشهيد وجعت أنت وأحدقت

بك أعين الجوعى عداد الأنجم

وهاجمت فيها الطبقة الحاكمة وعبد الإله وتجمع المتظاهرون الذين كانوا منهمكين في الإحراق والتحطيم على وقع أنغام القصيدة، والتحمت صفوف المظاهرة فسارت حتى تلقاها الشرطة الذين كانوا يتربصون قرب سينما روكسي ومعهم الكثير من قنابل الغاز وراحت القنابل المبكية الخانقة تنهال علينا. ولكن بعض المتظاهرين ممن لم يكونوا أعضاء في الحزب الشيوعي ـ مع الأسف ـ كانوا شجعاناً جريئين إلى حد راحوا معهم يلتقطون كل قنبلة غاز تهبط علينا ثم يقذفونها قبل أن تنفجر على الشرطة مرة ثانية وأمام هذا كله اضطرت الشرطة إلى الهرب. وخلا الشارع لنا فرحنا نسير فيه ونحن نهتف وننشد، ثم توجهنا إلى شارع غازي آنذاك.. وشارع الكفاح اليوم. وفي الطريق حملني بعض المتظاهرين على أكتافهم وألقيت قصيدة ثورية أخرى.

وحين أصبحت المظاهرة عند جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني جوبهت بعدد من الرصاصات انطلقت عليها من مركز شرطة باب الشيخ. واستولى الجبن على المتظاهرين وحاول واحد أو اثنان أن يتقدما فأصيبا بالرصاص ونقلا مجروحين في عربة إلى المستشفى. ولاذ المتظاهرون بالشارع الفرعي وراء ضريح الشيخ الكيلاني. وعلق أحدهم: من الممكن الوصول إلى مركز الشرطة عن طريق مقبرة الكيلاني.. يخترق الأنسان المقبرة ثم يتسلق الجدار فيصبح في المركز.. أين هو الذي يدبرها؟ أليس فيكم من يقوم بهذا العمل؟ ولكن.. أين هو الشجاع الذي يقوم بهذا العمل.

إن المناضلين الشرفاء جداً وقد جبنوا أمام رصاصات تنطلق من بندقية واحدة أو بندقيتين في مركز الشرطة قد استأسدوا على رجل مسكين فقير من أبناء الشعب كان يضع على رأسه كوفية صبغت باللون الأزرق لتدل على أنه من سلالة الرسول، وكان على صدغيه وشمان أزرقان ولمحه أحد الرفاق الشرفاء فصاح: هذا شرطي سري.. وانهالت عليه الأيدي والأقدام فدمى جبينه وهو يستغيث ويصرخ: والله موش شرطي، أنا رجّال فقير. ولكن ألا يعلم أن هؤلاء المدعين بأنهم المدافعون عن الفقراء والكادحين وهم أعدى أعداء الفقراء والكادحين، كم معيل لعائلة ليس له مورد سوى راتبه جعلوه يُفصل من عمله؟ وكم من فقير مبتلى بالسل جعلوه يسجن. وكم من نصف أعمى لا يكاد يبصر طريقه في النهار أمروه بأن يوزع مناشيرهم في الليل.

إن هؤلاء الذين تحكم عليهم المجالس العرفية اليوم بسبب ما ارتكبوه من جرائم في أحداث كركوك، ليسوا في الحق إلاّ من ضحايا الحزب العميل. فهو الذي أوعز إليهم بأن يهاجموا ويقتلوا ويسحلوا حتى إذا وقعوا في الفخ انسحب الحزب وراح يلقي المواعظ ويشجب المؤامرات ويدعوا إلى وحدة الصف العربي.

وقد علمت أنه بينما كان الرفاق الشرفاء لائذين وراء بناية الشيخ الكيلاني أقبل ثلاثة رجال أو أربعة وهتف أحدهم: سأقتل لكم هذا الشرطي. وعن طريق بناية الشيخ ارتقى إلى مركز الشرطة وذبح واحداً من أفراده وأشعل النار فيه فلاذ الشرطي الآخر بالفرار.

وبعد أن شبت النار في مركز الشرطة وانقطع الرصاص عادت الشجاعة إلى المناضلين فراحوا يتنادون بأن عليهم أن يبحثوا عن

الشرطي الهارب ليقتلوه. وعند التفتيش وصلوا إلى بيت مهدم يبدو الفقر عليه واضحاً فراحوا يفتشون كل زاوية فيه. وفي زير (حب) خال من الماء عثروا على الشرطي الهارب وانقض عليه أحد الرفاق بسكين. في اللحظة القصيرة ارتسمت في عيني الشرطي المسكين نظرة رعب وتوسل كافية لأن تفتت قلب الحجر، كأن الحياة منذ أن ابتدأت نطفة حتى بلغت بعد عصور من الجليد والزلازل والبراكين والفيضانات أعلى قمة من قممها.. الأنسان وكأن الأنسان منذ أن ابتدأ حياته أشبه بالوحوش وصارع كل قوى الطبيعة وأمراضها وأوبئتها ووحوشها وشهد كل المجازر والحروب كأن ذلك جميعه كان ينظر من عيني الشرطي وهو يرجو ويتحرق رجاءاً أن تنقذ حياته وألاّ يموت.

ومزق جسد الشرطي بالطعنات وكان عدد الأبطال من المناضلين الذين راحوا يطعنونه وهو ميت أكثر من أن يحصل ثم سحلت جثته إلى الشارع وصب عليها النفط وأُشعلت فيها النار.

وكان الليل قد أطبق. وبعد أن أحرزت جماهيرهم كل هذه النجاحات.. من إحراق المركز إلى قتل الشرطي.. انقطعت المظاهرة وقضى تلك اللحظة على الانتفاضة كلها فقد تسلم الجيش الحكم وأُعلنت الأحكام العرفية.. وكان ما كان مما يعرفه الجميع.



الحلقة الثالثة والثلاثون

العدد ١٥٠٢

التاريخ ٢٧/تشرين الأول/١٩٥٩

الشيوعيون هم الشعوبيون

صدر الأمر بإلقاء القبض عليّ وراحت الشرطة تطاردني في الدائرة وفي مخزن الإطارات المستوردة لحساب الحكومة الذي كنت رئيسه. لقد قتل عدد من أفراد الشرطة في مظاهرات تشرين، ولابد أن بعض المتهمين ستصدر عليهم أحكام بالإعدام. إن شرطة التحقيقات الجنائية ووكلاءها يعرفونني جيداً ومن السهل عليهم تشخيصي حين يتقدمون بالشهادة ضدي. وسوف يصدر الحكم بسجني لمدة عام أو أكثر وسأفصل من وظيفتي بالتأكيد، وهذا ما حدث فعلاً، فعلام البقاء إذن؟ فلأهرب.

وبعد أن تنكرت تنكراً محكماً ولبست ملابس الأعراب سفرت بالقطار إلى البصرة. وفي أبي الخصيب سلمني بعض ذوي قرباي بأيدي جماعة من المهربين العراقيين، وقد أوصلني هؤلاء إلى إيران.

كان الوقت فجراً، في يوم شتائي بارد حيث أيقظني المهرب من نومي في دارهم. وسرت وراءه حتى بلغنا نهراً صغيراً يفصل بين

العراق وبين إيران، بل يفصل بين شقي أرض عربية واحدة تتشابه في كل شيء. لقد أخيل إليّ وأنا أسير بين النخيل وبين أشجار التوت والرمان التي اصفرت أوراقها، أنني أسير في قريتي، ورحت أردد وأنا أتطلع إلى هذه الأرض العربية التي استولى عليها الغاصبون أبياتاً من قصيدة المتنبي الشهيرة:

مـغـانـي الـشـعـب طـيـبـاً فـي الـمـغـانـي
بـمـنـزلـة الـربـيـع مـن الـزمـان
ولـكـن الـفـتـى الـعـربـي فـيـهـا
غـريـب الـوجـه واليد والـلـسـان

نعم، لقد كنت غريب الوجه واليد واللسان في هذه الأرض العربية. واستفاق للمرة الأولى منذ عهد بعيد في نفسي شعور بقوميتي، بعروبتي، اعتززت بعروبتي، وأقسمت بيني وبين نفسي ألاّ أفرط بها وألاّ أخونها لأن يهودياً قذراً قاسي القلب ادعى باعتناق المسيحية في القرن التاسع عشر، ثم ألف ـ يدفعه حقده وحسده وتعصبه اليهودي وما قرأه في التوراة ـ كتاباً سماه رأس المال، وجاء بعده يهودي آخر من روسيا، ثار على الثورة التي قام بها البرجوازيون فانشأ حكماً، الأنسان فيه كالآلة لا يفكر ولا يحس إلاّ وفق نظام يفرض عليه، ولأن عدداً من الحاسدين والحاقدين واليهود والشعوبيين في البلاد العربية اتبعوا تعاليم هذين اليهوديين وخدعوا الشعب بها ووعدوه بجنة ستقام ـ ليتها قامت حقاً على الأرض ـ بينما هم يجمعون الأموال ويشترْون العمارات والسيارات ويشبعون نزواتهم وغرائزهم كما يشتهون.

أيتها العروبة، يا قومية محمد وعمر وعلي والمتنبي وأبي تمام. يا قومية سيف الدولة والمعتصم وصلاح الدين الأيوبي، لن أخونك ولن أتخلى عنك طمعاً بالسراب الشيوعي أو النعم الشيوعية الراهنة. وفي إيران عرفت العرب العائشين هناك فيما يسميه الفرس عربستان، معرفة وثيقة. رأيت شعورهم القومي المتدفق الذي يتسترون عليه خوفاً من البطش. ورأيت لغتهم العربية كيف أخذت تضمحل، فصرت تسمع العربي ينادي ابنه: إذهب إلى الاطاق وافتحه بالكليد واخذ معك الجراق واجلب لنا خربيزة. وهذا يعني: إذهب إلى الحجرة وافتحها بالمفتاح، وخذ معك المصباح، واجلب لنا بطيخة.

إن حزب تودة الشيوعي لا يعترف بوجود عرب في إيران. إن التوديين يقولون أن ليس في إيران سوى الإيرانيين وأن القول بأن هؤلاء عرب وأولئك فرس هو قول استعماري باطل. أما في العراق، فلو كان هناك خمسة هندوس مستعربين لرفع الحزب الشيوعي العميل عقيرته بدعوة المواطنين من عرب وهندوس.. إلخ إلى توحيد النضال ولطبع القاعدة والمناشير الحزبية باللغة الهندية أيضاً.

حين اتصلت بموسى بيمان أو موسى أسد الإيراني الشيوعي الذي أصبح ملحقاً صحفياً للسفارة العراقية في لبنان العربي، طلب إلي تزويدهم بقصيدة ثورية من قصائدي لنشرها في جريدة ـ خلق خوزستان ـ أي ـ أهالي عربستان ـ التي يصدرها حزب تودا لسكان هذه المنطقة العربية باللغة الفارسية. وكنت أحسب أنها تصدر باللغة العربية على غرار ما يفعله الحزب الشيوعي العراقي العميل حيث يصدر جريدته بلغة كل خمسة أنفار من سكان العراق بينما يبلغ عدد العرب في إيران حوالي الملايين الثلاثة. وأخبرني موسى بيمان أنه

سيترجم قصيدتي بنفسه فقلت له: ولماذا تترجمها؟ فقال: لأن النشرة تصدر باللغة الفارسية، ورجوته أن ينشر قصيدتي بلغتها العربية الأصلية مادامت تلك النشرة ـ خلق خوزستان ـ موجهة إلى العرب. فقال: إن نشرها باللغة العربية يعد تشجيعاً للروح الانفصالية الموجودة لدى بعض العرب القاطنين في إيران.

أهذه هي الشيوعية يارب؟

مع اليهود ضد العرب ومع الهندوس ضد العرب ومع كل الناس ضد العرب. من الممكن تبرير هذا حين يحدث في بلد عربي. أما إذا كان الشيوعيون ضد العرب في بلد العرب فيه أقلية، فهذا ما لا يمكن تفسيره. إلاّ بأن الحركة الشيوعية في العراق خاصة هي امتداد للحركة الشعوبية كحركة القرامطة مثلاً التي يعرفها كل من قرأ التاريخ العربي. لقد كانت الحركات أيضاً تنادي بالاشتراكية بل وحتى بالإباحية وإشاعة المرأة، ولكن غرضها الحقيقي هو محاربة العرب قوميتهم ودينهم، والآن يقود الحركة الشيوعية في العراق خاصة أناس مستعربون شعوبيون متسترون بستار الشيوعية، فالحركة الشيوعية في الحق هي امتداد للحركة الشعوبية. ولا يخطئ من يسمى الشيوعيين العراقيين بـ القرامطة!

كان العرب في إيران بمجرد أن يعرفوا أنني عربي من العراق يقبلون عليّ بكل أرواحهم وقلوبهم. كنت ذات ليلة، أنا وصديق عربي من عربستان في إحدى المشارب. وأقبل على المشرب شبان عرب ما لبثوا أن تحلقوا حول منضدتنا حين سمعونا نتحدث باللغة العربية. وحين علموا أنني عربي من العراق راح أحدهم يتحسر ويقول: أنتم أخوتنا، وكم نتمنى لو كنا معكم في بلاد واحدة ودولة

واحدة، ثم راح يغني أبوذية في مدح القرقوز فيصل ظاناً أنني من محبيه لمجرد كوني عراقياً!!

وهب علينا سكران فارسي يتكلم العربية بلكنة.. وصرخ على المغني أن يخرس وقال: ملك فيسل.. ملك بهرين.. ملك كويت، سنو هازا؟ أنت إيراني، غني على ملك إيران.. شاهنشاه.

وكادت تحدث مصادمة بين العرب وبين الفرس في المشرب لولا أن هدأنا الوضع وأفهمنا صاحبنا المغني بأننا لا نحب فيصلاً ولا خاله، وأن فيصلاً وخاله هما اللذان شرداني وجعلاني أهرب إلى إيران وأقاسي العوز الذل والخوف. ورأيت أن بقائي في إيران يكاد يكون مستحيلاً، والنقود التي كانت معي أوشكت أن تنفذ. واتفقنا أنا وصديق عربي من إيران على أن السفر إلى الكويت والاشتغال فيها هما خير ما نستطيع القيام به.

وفي قرية ـ العقبة ـ في جنوب عربستان وبينما كنا ننتظر هبوب الرياح لتقلع بنا السفينة إلى الكويت، حضرت مجلساً يقرأ فيه ملا فارسي كان يفرغ سمومه وحقده على العرب مغلفة بغلاف من الدين، سمعته يصرخ: أين سلاك ملاون سأد بن أبي وغاس كفت. وترجمة ذلك: هذا الكلب المعلون سعد ابن أبي وقاص.. قلت: سعد بن أبي وقاص القائد العربي الفذ، حرر العراق من نير الحكم الفارسي، وأنزل بالفرس وبرستمهم وبكسرى وإيوانه ضربة لن تنسى مادام في الدنيا تاريخ يقرأ.. يسبه أمام العرب هذا الصعلوك الفارسي. رحت أدعو الله بأن يلهمني الصبر فلا أتناول النعل وأضرب به ذلك الفم القذر الذي يسب قومي وأمجادهم.

الحلقة الرابعة والثلاثون

العدد ١٥٠٣

التاريخ ٢٨/تشرين الأول/١٩٥٩

أخلاق الشيوعيين

استفدت من الأشهر الستة التي قضيتها في الكويت فائدة جلى، فقد كشفت لي أخلاق الشيوعيين في بيوتهم دون طلاء من تعاليم ماركس أو لينين ولا خوف من رقابة أعداء الحزب.

فقد نزلت أنا ومحمد حسين رفيقي العربي من إيران في بيت يسكنه ستة من الشيوعيين العراقيين الذين كانوا قد فروا إلى الكويت بعد أن أصدرت المجالس العرفية أحكاماً غيابياً بسجنهم وهم عباس سكران وهو سائق ولفتة محمد وهو سائق أيضاً وهو هارب الآن من وجه العدالة بعد أن اشترك مع بقية الرفاق الشرفاء في سحل المرحوم أنس طه في البصرة، وعبد اللطيف سمير وهو عامل الكهرباء وعبد الصاحب وهو شبه أفندي وكان أطيبهم قلباً وأرفعهم أخلاقاً، وعبد الكريم ثويني وهو أحد خريجي دار المعلمين الريفية ومصاب بالسل، وقد ملأت إصابته بهذا الداء الوبيل نفسه بالحقد والبغضاء وعبد الحسن جبار وهو نقابي من عمال الميناء في البصرة. وكان ثلاثة من

رفاقنا الذين نساكنهم مصابين بالسل وقد رفضوا الرقود في المستشفى إلاّ عبد الدايم الذي دخل المستشفى فيما بعد.

وكانت الأعمال البيتية موزعة بيننا نحن غير المصابين بالسل توزيعاً يبدو اللؤم الشيوعي واضحاً فيه، فقد أنيطت بي أعمال من شانها أن تحطم كبريائي الطبقي، كأفندي، كالكنس وغسل الآنية القذرة وإعداد الفرش إلى جانب الطبخ وإعداد الشاي اللذين كنت أقوم بهما مرة في اليوم.

كان البيت الذي نسكنه وكراً من أوكار الحركة الشيوعية في الكويت، ولهذا كان محرماً علينا أن نغادر البيت إلاّ إلى العمل لئلا يرانا جاسوس من جواسيس نوري السعيد فيتعقبنا ويعرف أين نسكن.

وكان الرفيق جنجون الذي يسكن في محلة نائية من محلات الكويت هو منظمنا وحين كان يصل إليه عدد من جريدة الحزب أو منشور من منشوراته يهرع إلينا لندرس النشرة الحزبية ونتناقش فيها.

كان الرفاق يعاملونني أنا وصديقي محمد حسين معاملة خشنة وقحة، لأننا أفندية من الطبقة البتي برجوازية. وكانت المعارك مستمرة بيني وبينهم حول ما أقرأ، فإذا أردت أن تقرأ قصة، فلا تقرأ غير قصص مكسيم غوركي وتشيكوف وإيليا هرنبرغ أو قصص الكتاب الشيوعيين في سوريا ولبنان أمثال ذكروب وحنا مينة وسواهما. وإذا أردت أن تقرأ شعراً فعليك بأشعار ناظم حكمت وبابلو نيرودا وسواهما من الشعراء الشيوعيين والجريدة التي يجب أن تقرأ هي ـ الثقافة الوطنية ـ الشيوعية اللبنانية، أما مجلتنا فهي ـ الطريق ـ الشيوعية.

لقد وجدت ذات يوم في إحدى مكتبات الكويت قصة الكاتب

الإنكليزي الكبير د. هـ. لورنس المسماة ـ عشيق الليدي تشارلي ـ وثار الرفاق حين رأوها في يدي ومنعوني من قراءتها، ثم صادروها.

أما الراديو، فلا يتزحزح (ميله) عن محطة موسكو.

وهكذا انقطعنا عن العالم برمته إلاّ العالم الاشتراكي كأننا نعيش وراء الستار الحديدي. كنت كلما تناقشنا في قضية وأبديت رأيي الذي أقتنع بصحته جوبهت بضجة من الرفاق، إنني أحمل أفكاراً غريبة على الشيوعية لا ريب في أنها من الرواسب الطبقية رواسب الطبقة البتي برجوازية التي أنتمي إليها.

وفي ذات يوم حين بلغ السيل زُبى نفسي وكنت أتناقش مع لفتة محمد الذي أخذ يهاجمني بادئاً جملة بـ أنتم الأفنديه، أنتم أبناء الطبقة البتي برجوازية، ونحن الكادحين نحن أبناء الطبقة الكادحة لم تمالك نفسي فصحت به: تعال حاسبني، أينا الأفندي، وأينا الكادح، أينا البتي برجوازي، وأينا الفقير؟ إنك تتقاضى راتباً أكثر من راتبي وتلبس ملابس خيراً من ملابسي وتنام على فراش أحسن من فراشي وتقوم بأعمال أهون مما أقوم به، إنك لا تكنس ولا تغسل الأواني القذرة، فأينا البتي برجوازي وأينا الفقير؟ وإذا كنت تعتبرني بتي برجوازياً لأنني لم أنحدر من طبقة فقيرة، فأنت إذن من أذناب الطبقة الحاكمة لأن أباك شرطي.

وكنا كلما حلت ذكرى مناسبة وطنية كذكرى الوثبة وإعدام فهد ثم موت ستالين، نقيم احتفالاً في البيت يشترك فيه عدد كبير من الشيوعيين العراقيين الموجودين في الكويت.

وحلت ذكرى الوثبة فأعد الرفاق كلماتهم وكان من بين الخطباء إيراني اكتسب الجنسية الكويتية اسمه بيرزاد، وقد أعد كلمته باللغة

الفارسية، وراح يلقي ونحن نسمع حتى قال: فيسل ونوري سئيد وأبد إله اتفاخ شد برزد خلق عراق ودر غسر زهور اجتماع كروذر.. وترجمة ذلك: إن فيصلاً ونوري السعيد وعبد الإله اتفقوا ضد الشعب العراقي وعقدوا اجتماعاً في قصر الزهور.

وتصورت الملك الصبي الطفل وقد سال مخاطه من أنفه وهو يرتدي ملابسه العسكرية ويعقد اجتماعاً مع نوري السعيد وعبد الإله للبحث فيما يجب اتخاذه من تدابير ضد الشعب فلم أتمالك نفسي من الضحك.

وثار الرفاق وعربدوا وهاجموا طبقتي البتي برجوازية وجميع الأفندية في العالم وقرروا طردي من الحفلة وحرماني من العشاء تلك الليلة.

وفي حفلة أخرى بمناسبة موت ستالين خطب الرفيق عبد اللطيف سمير، وختم خطابه منادياً بسقوط الاستعمار الأنكلو ـ أمريكي ـ فرنسي، فضحكنا جميعاً لهذا التعبير المبتكر. ثم جاء الدور لشيوعي آخر فختم خطابه قائلاً: ولتعش الماركسية اللينينية الستالينية المالنكوفية. فأفلتت من فمي قهقهة كان جزائي عليها أقسى الكلام والحرمان من الحفلة والعشاء.

وفي ذات ليلة كان الرفيق لفتة محمد يقرأ في القصائد التي ترجمها إلى العربية عن ناظم حكمت الدكتور علي سعيد ارتسمت تحت شاربيه الكثيفين ابتسامة ثم قال بلهجة العالم الفيلسوف: ترى أستاذ، ناظم حكمت أعظم من شكسبير. ورغم السيطرة التي حاولت فرضها على عواطفي فإن الغيظ غلبني فصحت به محتداً من هذه الوقاحة والتطاول على شؤون الأدب التي لا يفقه الرفيق لفتة شيئاً فيها.

أخي، أنت قاري شكسبير أم أنت قاري كل ما كتبه ناظم حكمت؟ فأجاب بالصفاقة التي يندر وجودها عند غير الشيوعيين: أي، قاري الكتاب الذي أصدرته سلسلة اقرأ عن شكسبير. وقاري أربعاً من قصائد ناظم حكمت في هذا الكتاب. فقلت له: أخي، ليس ناظم حكمت وحده بل لو وقف ناظم حكمت ثم وقف على رأسه بابلو نيرودا ثم وقف على رأس هذا اراغون ثم وقف قسطنطين سيمونوف فوق رأس اراغون، لما بلغوا جميعاً كعب شكسبير.

واغتاظ الرفاق لهذا التحدي لكل الشعراء الشيوعيين الكبار وفي سبيل من؟ في سبيل شاعر لم يخدم أفكار الطبقة العاملة، واغتاظ الرفيق لفتة وهو يسألني: عجيب؟! من يقول ذلك؟ فقلت له: أنا أقول ذلك، لأنني قد قرأت معظم ما كتبه شكسبير في لغته الأصلية وقرأت من شعر ناظم حكمت ورفاقه أكثر مما قرأت أنت. قال: هذا رأيك الشخصي، ولا تستطيع أن تفرضه عليّ فأنا أعتبر ناظم حكمت أعظم من شكسبير لأنه يعبر عن أفكاري وآمالي، فأجبته وأنا أحاول التحدث بكل هدوء: لو وقف (الكرين) الذي تسوقه ثم جئنا أنا وأنت لنفحصه، وقلت أنت شيئاً عن سبب وقوفه وقلت أنا شيئاً فأي القولين هو الأصح؟ طبعاً قولك. لأن هذه هي شغلتك. وكذلك أنا إن الأدب هو شغلتي وقد تخصصت بالأدب الإنكليزي في دار المعلمين العالية.. وهاج الرفيق وصاح: دار المعلمين العالية؟ يعيرنا بشهادته. نحن ياعمي عمال وقد تكون أنت قد درست الأدب الإنكليزي في دار المعلمين العالية، ولكن سيأتي يوم حين نجلس نحن الذين لا نعجبك، وراء منصات القضاء لنحاكمكم.

لقد حقق الرفاق الشرفاء وعيدهم هذا، فشهدت الموصل وكركوك

قصابيهم ومثالهم يجلسون وراء منصات قضاء الغوغاء ويصدرون أحكامهم بإعدام كل عدو للشيوعية بل كل من ليس شيوعياً، ثم تنفذ تلك الأحكام في الحال.

ليتك أيها الرفيق لفتة لم تهرب من وجه العدالة، حتى إذا أدانتك المحكمة العرفية بقتل المرحوم أنس وسحله، عرفت ساعة تنفيذ الحكم فيك ـ أن للعدالة منصات أخرى غير منصات الرعاع.



الحلقة الخامسة والثلاثون

العدد ١٥٠٤

التاريخ ٢٩/تشرين الأول/١٩٥٩

شتائم الرفاق للرفاق

لم أعد أحتمل البقاء في الكويت بعد أن حول الرفاق الشرفاء حياتي جحيماً فيها، لقد أنجى صديقي العربي من إيران محمد حسين نفسه من هذا الكابوس حين ترك المنزل الذي كان يعيش فيه معنا، وساكن جماعة من عرب إيران. أما أنا، فكل العراقيين الذين أعرفهم ويمكن أن أعيش معهم عدا الشيوعيين كانوا قوميين.

أذكر من مضايقات الرفاق لنا أنهم كانوا يحرمون علينا أن نقرأ أي كتاب أو ديوان شعر عن الحب أو الجنس بل إنني نلت ذات يوم تقريعاً شديداً لأنهم رأوني أتفرج على قط وقطة يتمازحان، فيضربها بكفه ويصرخ. لقد كان منظراً طريفاً، ولكن الرفاق فسروا به بأنه اهتمام بالعمل... وأنه تنفيس عن غريزتي.

ولكني فوجئت بمحمد يتمرد على تشديدات الرفاق ويترك المنزل ليلاً ليطارد الفتيات وحين سألته عن سبب ذلك، أجاب بأنه رأى أحد الرفاق يغازل فتاة، إنهم يمنعوننا من فعل ما يفعلونه، إنهم يحرمون

علينا قراءة قصيدة عاطفية بينما هم يقدمون على ارتكاب المنكرات، وحين جابه محمد حسين الرفيق الشريف بما رآه.. اعتذر هذا بعذر واه لا يمكن تصديقه.

وصلت العراق فوجدت أن الأحكام العرفية مازالت قائمة وأن الشرطة جاءت إلى منزل أبي تبحث عني وعن أخي الذي كان في بغداد. فقررت الهرب إلى إيران ثم السفر إلى بخارست التي كان سيعقد فيها مهرجان للشبيبة.

وفي تلك الأثناء كان الحزب الشيوعي العراقي قد انقسم على نفسه إلى كتلتين تدعي كل منهما أنها هي المخلصة للتعاليم الماركسية اللينينية وأنها هي الوريث الشرعي للرفيق الخالد فهد، وكانت إحدى الكتلتين تصدر جريدة القاعدة بينما تصدر الكتلة الأخرى جريدة سمتها ـ راية الشعلة ـ.

لقد كان متوقعاً أن يحدث هذا الانفصال حين هرب من سجن الكوت، في جملة الهاربين من السجناء الشيوعيين رفيقان يعتبر كلاهما نفسه زعيماً شيخاً ماركسياً: هما ع. ج و ج ح. إن من يقرأ النشرات والجرائد التي أصدرتها الكتلتين لا يمكن أن يخرج برأي قاطع عن سبب الانفصال والخصام. لقد نشرت القاعدة رسالة موجهة من أحد الرفاق ضمنها بعض انتقاداته للحزب وشعاراته، وهي في الحق انتقادات معقولة، كان أغلبنا ـ نحن أعضاء الحزب الشيوعي العراقي ـ يود لو جهر بها.

وراحت القاعدة ترد على تلك الانتقادات رداً علمياً في بادئ الأمر، وعلى حين غرة ودون سابق إنذار قالت جريدة الرفاق: هكذا ينحدر هؤلاء الانتهازيون إلى مستنقع الجاسوسية. ولو لم تكن تلك

المعركة أشبه بالمعركة بين القصابين ـ كما يقول المثل ـ ما أمكن أن يعود ج ج والثرثار ح س ـ كما وصفته القاعدة في حينه ـ إلى الجلوس إلى جانب ع ج ورهطه في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العميل. لقد كتبت القاعدة لسان حال الحزب الشيوعي ذات مرة في إبان النزاع، تقول: علينا أن نسعى إلى دفع هؤلاء ـ وتعني جماعة راية الشعلة ـ إلى مستنقع الجاسوسية. ورد عليها جماعة راية الشغلية مستنكرين مستهزئين قائلين ما معناه أن: مرحى بحزب شيوعي يناضل من أجل تحويل الناس الشرفاء بل الشيوعيين إلى جواسيس. ونشرت القاعدة في سلسلة من أعدادها قوائم بأسماء الرفيقات من نصيرات راية الشغيلة وبأسمائهن الحزبية المستعارة طبعاً، وعرضّت بهن. وردت عليها راية الشغيلة بسلسلة من أعدادها أيضاً قائلة بأن التفسخ الأخلاقي ليس موجوداً في صفوفنا وإنما هو في صفوف القاعديين، ونشرت قوائم بأسماء المناضلات القاعديات وسلوكهن.

وبودي لو أتحدث عن أعمال كثيرة وما رأيت بعيني، ولكن الخطة التي اتخذتها جريدة الحرية في الترفع عن هجر الكلام تمنعني من ذكر تفاصيل ما رأيت.

حين عدت إلى قريتي في العراق وجدت لتفينوف مسؤول الحزب فيها، كان قاعدياً فأصبحت قاعدياً بالضرورة أيضاً. وأرسلت بواسطة لتفينوف رسالة إلى اللجنة المحلية للحزب الشيوعي العراقي في البصرة أبين فيها رغبتي بالسفر إلى إيران ثم إلى بخارست. وزودني الحزب برسالة توصية إلى حزب تودا. وقد أدركت من هذا، أن هناك شفرة خاصة تستعملها الأحزاب الشيوعية وتتراسل بها، وإلاّ فكيف يفهم حزب تودا الفارسي رسالة ولغتها هي العربية؟ وحتى لو كتبت رسالة باللغة الفارسية، فمن يضمن أنها من الحزب الشيوعي العراقي.

وفي إيران، في المحمرة التي يسميها الإيرانيون خرمشهر، سلمت الرسالة إلى الرفيق موسى بيمان أو موسى أسد كما يسمى في العراق الذي أصبح بقدرة قادر ملحقاً صحفياً للجمهورية العراقية التي هي جزء لا يتجزأ من الأمة العربية كما جاء في دستورها المؤقت في بيروت. وأرسل بيمان تلك الرسالة إلى مقر حزب تودا في طهران وظللت أنتظر إشارة منه لأسافر إلى هناك.

وفي تلك الأثناء كان الحديث الذي يشغل الناس في المحمرة هو ما حدث أثناء الاجتماع الذي أقامه التوديون بمناسبة أول أيار عيد العمال العالمي وبعده بقليل فقد هاجمت الشرطة ذلك الاجتماع وحدث اشتباك بينهما وبين المجتمعين وأصيب أحد أفراد الشرطة بطلق ناري في رجله، ويزعم الشيوعيون أن ذلك الشرطي قد عثر وهوى وأن بندقيته ذاتها قد انطلقت أثناء ذلك وأصابته في رجله، بينما يتهم غير الشيوعيين أنصار تودا المحتفلين بإطلاق النار عليه بل إنهم يتهمون شخصاً معيناً بالذات بإطلاق النار عليه.

ولكن ليس هذا هو المهم في القصة إنما المهم فيها هو أن ذلك الشرطي أُدخل إلى المستشفى وهناك بترت رجله وأعطيت تلك الرجل المبتورة إلى خادم من خدم المستشفى ليدفنها، طبقاً لما يوصى به الدين الحنيف، وكان ذلك الخادم مناضلاً شريفاً من أتباع حزب تودا، وبدلاً من أن يدفن ذلك الجزء من أجزاء جسم رجل مسلم ألقاه عند المسلخ، فقطعت الكلاب تلك الرجل وافترستها، وفرح الشيوعيون بهذا قائلين: بأي سك براى سكهاى است. وترجمته: رجل الكلب للكلاب.

إن الذين شهدوا جرائم الفوضويين عندنا حتى قتل وسحل وذبح

الأطفال ثم إلقاء أجسامهم في براميل الأوساخ وسواها من الجرائم المنكرة. وقد تساءلوا عما إذا كان الشيوعيون في أي بلد آخر غير العراق قد ارتكبوا مثل هذه الأعمال الفظيعة؟ نعم، لقد ارتكب الشيوعيون جرائم وحشية فظيعة في كل مكان: في كيرالا وإيران والعراق وفي بلدان أخرى كثيرة، بل إن حزب تودا قد أرسل منذ الثورة المباركة حتى الآن عشرات من أعضائه إلى العراق ليعلموا رفاقهم من شيوعي العراق كل أساليب القتل والتعذيب والاغتيال التي أتقنها الشيوعيين الإيرانيين بل وتدربوا عليها تحت إشراف خبراء في جمهورية أذربيجان الشيوعية، غير أن الشيوعيين العراقيين أغبياء كما يبدو لا يستطيعون أن يرتكبوا الجرائم ويتخلصوا منها دون أن يتركوا وراءهم من أثر.

إن التزوير الذي أجروه على الصورة التي نشرتها إحدى صحفهم تحت عنوان «جلسة قومية» حيث اقتطعوا أجزاء من الصورة يظهر فيها بعض الأدباء والمتأدبين الشيوعيين وطمسوا وجوه بعض رفاقهم، سرعان ما افتضح لأن كل شخص في تلك الصورة يمتلك نسخة منها. وسرعان ما نشرت جريدة الحرية تلك الصورة كاملة ليتضح لكل منصف أن الشيوعيين مزورون كاذبون في كل ما يقولون ويكتبون ويفعلون!

* * *

الحلقة السادسة والثلاثون

العدد ١٥٠٦

التاريخ ١٠/تشرين الثاني/١٩٥٩

تجربتي مع تودا

جاءتني الإشارة من موسى بيمان أو موسى أسد كما يسمى في العراق، بأن عليّ أن أسافر إلى طهران لأتصل بمركز حزب تودا هناك. وزودني بالعناوين وبرسالة تعريف، وكان القطار مزدحماً بحيث لم أحصل لي على مكان في الدرجة الثانية، ووعدت بأن يُحجز لي مكان بعد ثلاثة عشر يوماً. وكدت أيأس لولا أن موسى أسد تفاهم مع رئيس الكانتين في القطار فدفعت له ما يدفعه راكب الدرجة الثانية من الأجرة، فسمح لي بالجلوس في الكانتين وتكفل بإيصالي إلى طهران وما إن تحرك القطار حتى جاء يادالله وهذا هو اسم رئيس عمال الكانتين وسألني عما أريد أن شرب أو آكل إذ لا يجوز جلوس من لا يأكل ولا يشرب في الكانتين، وبعد محطتين أو ثلاث جاء مفتش القطار وسألني عن بطاقتي، وبدلاً من يخف بـ يادالله الذي أخذ مني أجرة راكب من ركاب الدرجة الثانية إلى نجدتي وشى بي لدى المفتش وأنبا قائلاً: أين ارب أست.. هذا عربي، فغرمني المفتش ضعف أجرة القطار. وحسبت ما دفعته لـ يادالله وللمفتش فإذا هو أكثر مما

كنت سأدفعه لو أني ركبت الطائرة إلى طهران. وفي اليوم التالي اتصلت بحزب تود في مركزه، وكان مركزاً من مراكز الشبيبة الديمقراطية، تماماً كما حدث في العراق يوم أصبحت مكاتب الشبيبة الديمقراطية والنقابات واتحاد الطلبة، مجرد فروع للحزب الشيوعي وطلبوا إلي أن أزودهم بصورتين فوتوغرافيتين لي ليستحصلوا لي جواز سفر إيرانياً. واصطحبني أحد الذين رأيتهم في مكتب الحزب معه، وسألني عما إذا كنت قد ذقت ـ البستني ـ فأجبته بالنفي لأنني لم أكن آنذاك أعرف معنى البستني، وهي الدوندرمة وتطوع بأن يذيقني البستني وحين جلسنا نأكل الدوندرمة سألني: ماهي ـ باي تخت ـ العراق؟ وخيل إليّ لجهلي باللغة الفارسية آنذاك، أنه يسألني عن ملك العراق، من هو؟ فأجبت: فيسل دوم، فيصل الثاني. فصدق بما قلت، أن فيصل الثاني هو عاصمة العراق، هذه هي معرفة الرفاق التوديين بالعراق وأحواله، وعلى أساس من هذه المعرفة العميقة بأحوالنا يستعين الحزب الشيوعي العراقي العميل بحزب تودا ويسترشد بآرائه.. في شؤوننا التي يجهلها. أهو حنين الدم في عروق البعض منهم من الفرس المستعربين العراقي أم هو واجب الشيوعي العراقي أم هو واجب الشيوعي في إطاعة ما تمليه عليه موسكو.. فإذا أمرته بأن يتلقى تعليماته من الحزب الشيوعي الإيراني فليس عليه إلاّ أن يطيع.

إن من عاش في طهران فترة من الوقت ولو قصيرة آنذاك ثم عاش في العراق خلال فترة الطغيان الشيوعي، يدرك مدى استفادة الحزب الشيوعي العراقي من حزب تودا. فالمظاهرات هناك تغني شعاراتها وشعارات الحزب منظوْمة شعراً وملحنة تلحيناً بسيطاً.. تماماً كما كانت مظاهرات الحزب العميل تطوف شوارع بغداد وسواها من

المدن، وهي تغني: حزب الشيوعي بالحكم مطلب عظيمي. أو ماكو مؤامرة تصير.. والحبال موجودة.

واستفاد حزب الرفاق العراقيين من الحزب الإيراني الشقيق له طبعاً وليس لنا ـ في النزهات والبكنكات التي ينظمها للرفاق والرفيقات والتي سرعان ما تنقلب إلى احتفالات حزبية تلقى فيها الكلمات والقصائد وتنشد الأغاني والأناشيد وتؤدي الرفيقات رقصاتهن.

لقد خرجت مع التوديين في إحدى هذه النزهات صبح يوم من أيام الجمعة وسرعان ما افترشنا عشب بستان مونق، ورحنا نستمع إلى الأغاني الحزبية والخطب والقصائد. وقد ألقيت أنا قصيدة لي عن السلام ألقيتها باللغة العربية ثم قرأت ترجمتها على الحاضرين باللغة الفارسية واستنسخها أحد الرفاق فأعطاها لتلاميذه في إحدى المدارس الثانوية في درس الأدب العربي. لقد تعلمت في هذه السفرة من فنون الحب ما كنت أجهله ولم يكن ذلك إلاّ عن طريق رؤيتي للآخرين. ولا أزال أتذكر تلك الصبية الإيرانية الجميلة ذات الجسم المملوء قليلاً وهي تركض في طريق عودتنا إلى حيث تنتظرنا السيارات ويركض وراءها عشرات من الشباب متعطشين متلهفين. ولولا الحمى التي نزلت بي فأقعدتني عن ملاحقتها لكنت بين الراكضين.

التقيت هناك في طهران بعدد من الشيوعيين الإيرانيين الذين كانوا يعرفون العربية جيداً لأنهم اشتغلوا أو عاشوا مدة في العراق والذين أصبحوا بعد ثورة تموز مواطنين عراقيين أكثر مني ومن كل عرب العراق وأبنائه منذ مئات السنين إخلاصاً وأكثر تمتعاً بخيراته، منهم (ع) الذي كان مدرساً في المدرسة الإيرانية في بغداد قبل سنوات عديدة والذي تسلل إلى العراق واكتسب الجنسية العراقية.

كما التقيت هناك بالدكتور جعفر رحماني وهو عراقي صميم من كردستان، جردته سلطات العهد البائد من جنسيته العراقية ثم عاش في إيران طبيباً ناجحاً وانغمر إلى جانب عمله في السياسة حتى إذا جاء انقلاب زاهدي ألقت السلطات الإيرانية القبض عليه وسجنته مدة عامين بناء على وشاية من أحد الرفاق المناضلين، كما قال الدكتور رحماني نفسه، وقد حاول العودة إلى بلاده بعد الثورة فألقي القبض عليه من جديد في حين أن موسى أسد الذي يعرف كل أهالي المحمرة وعبادان أنه شيوعي من حزب تودا، لم يوقف ولا يوماً واحداً ولم يفقد عمله ولم ينله أي أذى، ولله في خلقه شؤون.

ورأيت فيما رأيت أن حزب تودا كثير الاهتمام بالحوادث التقدمية والوطنية في التاريخ الإيراني فهناك مثلاً يوم يحتفل به الشيوعيون الإيرانيون احتفالاً عظيماً هو ما يسمونه بيوم (مشروطيت).. وأظنه كما بقي في ذهني مما قرأته عنه في الجرائد الإيرانية في حينه يوم طالب فيه بعض الأشخاص الإيرانيين بتطبيق روح الدستور في إيران.

في حين أن الرجعيين وحدهم هم الذين يحتفلون بذكرى مولد الرسول العربي العظيم محمد أعظم رجل أنجبه التاريخ. مع أن جريدة أوسع الجماهير لم تفوت ذكرى وفاة أو ميلاد الرفيق اليهودي لينين، وإن ما حدث بعد ذلك من خيانة حزب تودا الشيوعي الإيراني لمصالح الشعب الإيراني، حيث سمح لزاهدي بأن يقوم بانقلابه رغم علمه به، خوفاً من أن يلحق بـ (اتحاد شوروى) الاتحاد السوفياتي بعض الأذى، يعرفه الجميع مما سبق أن كتبته عنه.

لقد برر الشيوعيون قعودهم في جحورهم إزاء اللوريات الثلاثة التي ملأها زاهدي بجنوده وأشقيائه.. وقام بانقلاب بها، بأن استيلاءهم

على الحكم سيدفع أمريكا إلى التدخل مما يسبب تهديداً بالخطر للاتحاد السوفياتي، وحتى لو قبلنا بهذه الحجة فإننا نسألهم: أما كان بوسعهم أن يحبطوا انقلاب زاهدي ثم يبقوا مصدقاً وحكومته في الحكم، بحيث لا يكون للأمريكان مجال ولا حجة بالتدخل، أم أن الشيوعيين يعتبرون كل من ليس شيوعياً عميلاً للاستعمار سواء أكان مصدقاً أم زاهدي؟



الحلقة السابعة والثلاثون

العدد ١٥٠٧
التاريخ ٢/تشرين الثاني/١٩٥٩
نماذج من سلوك الشيوعيين

في الأيام الأخيرة من حكم الدكتور مصدق قدم إليّ موفد من شق الحزب الشيوعي العراقي الذي كان يصدر راية الشغيلة، جريدة ناطقة بلسانه. وسميناه نحن الشيوعيين العراقيين القاعديين الثلاثة الذين كنا نسكن في غرفة واحدة (فحل التوث) مشتقين تلك التسمية من قول القائل: يا فحل التوث بالبستان هيبة. واضطررنا إلى إنزاله معنا في غرفتنا، فهو رغم كل شيء شيوعي عراقي. وكان قد جاء بعد أن كلفه حزبه بشراء مطبعة صغيرة له من إيران وبمساعدة حزب تودا ليستخدمها الحزب الطليعي العراقي في نضاله من أجل: وطن حر وشعب سعيد.

وفي ذات يوم بعد انقلاب زاهدي جاءنا الدكتور الحكاك كما كنا نسميه وهو طبيب أسنان إيراني عاش مدة في العراق، فهو يتكلم العربية كأحد أبنائها، جاءنا الدكتور الحكاك ثائراً وصاح بنا أن نطرد فحل التوث ومهما حدث له، فإلى جهنم وبئس المصير. وحين سألنا عن السبب، قال إن جماعة يثق بهم أخبروه بأنهم شاهدوا فحل التوث

في (دروازة قزوين) في ساعة من الليل قبيل الوقت المحدد لمنع التجول، ودروازة قزوين هي ميدان طهران أو (محلة ذهبه) أو سواهما من الأماكن المشبوهة التي تباع فيها الرذيلة.

أهذا هو النضال؟ أن تسلخ جلود الفلاحين والعمال الفقراء بالتبرعات والاشتراكات التي تُجبى منهم للحزب الشيوعي ثم تسلم ما جبيته منهم إلى شخص كـ فحل التوث ليسكر به ويعربد ويقضي مأربه في دروازة قزوين؟ وليس فحل التوث هو الوحيد في ذلك فقد حدثت القارئ الكريم بإضراب عمال شركة نفط البصرة وكيف أن ممثل الحزب الشيوعي وصحبه من العمال كانوا يأكلون الدجاج ويسكرون ويأثمون.. بينما تدور رؤوس بقية العمال شوقاً إلى سيكارة أو عقب سيكارة، ومر بي حادث آخر مماثل حين كنت موقوفاً في صيف عام ١٩٤٨ في الموقف فقد جيء إلينا في الموقف بالعمال الشيوعيين الذين قادوا إضراب عمال النفط في (أج ثري). وفي ذات ليلة قامت معركة بينهم فهمنا من التهم المتبادلة بينهم فيها أنها تتعلق بمبلغ من المال جمعوه من العمال لإنفاقه على الإضراب وأن أحدهم يدعي بأنه قد نفد، بينما يتهمه الآخرون بأنه قد اشترى به كذا وكذا، وسكر بجزء منه بينما لا يزال يدخر جزء منه ثم ذبح الرفيق المتهم بكل هذه التهم الموضوع (على قبلة) فقال: إن هؤلاء الذين يتهمونه بإنفاق التبرعات هم من أعضاء حزب الشعب الانتهازي وأنهم يقصدون من حملتهم تلك تشويه سمعة أعضاء الحزب الشيوعي الذي كان في جملة من يتهمونه، فقد قال أنه: تيتوي.. منحرف.

وألح علي رفيقاي المناضلان في أن نذهب إلى دروازة قزوين لانفعل كما فعل فحل التوث وإنما لنتفرج وحسب، فرضخت

لإلحاحهما وذهبنا إلى هناك ذات ليلة، كان مكتوباً على أبواب كثيرة من الدور الآثمة: (أين خونة مصدق ست) ويعني ذلك: هذا منزل مصدق.

إن كثيراً من بيوت الإثم هي خمارات إلى جنب عملها الآخر. تباع فيها البيرة لمن يشاء وطلبنا ثلاث قنان من البيرة وجلسنا في صالون البيت نشرب.. وكان يجلس إلى مائدة قريبة منا ثلاثة شبان إيرانيين كانوا يتحدثون ثم قطعوا حديثهم على حين غرة حين أقبلنا.. وما لبثوا أن استأنفوه بعد أن سمعونا نتكلم العربية فيما بيننا، ولاحظوا ركاكة لغتنا الفارسية حين تكلمنا بصوت عال مع بعض الأشخاص عبر الصالون فأدركوا أننا أجانب.

وعرفنا من حديث هؤلاء الشبان الإيرانيين الثلاثة أنهم أعضاء في الحزب الشيوعي الإيراني ـ حزب تودا ـ وأنهم يعقدون اجتماعاً حزبياً في المكان الذي لا يمكن أن تصل أنظار شرطة التحقيقات الجنائية إليه، ولاشك في الداخل إليه بأنه جاء ليعقد اجتماعاً حزبياً.

لقد اتبع الشيوعيون العراقيون أسلوباً شبيهاً بهذا فراحوا يعقدون اجتماعاتهم في المشارب وفي دور الدعارة. وكان بين الذين قدموا إلى طهران في هذه الأيام العصيبة من أيامها، الأستاذ س ج هذا الشيوعي النبيل الذي هو بحق من أخلص الناس لذكرى فهد وأكثرهم تضحية.

إن الحزب الشيوعي العراقي الذي استولى على قيادته ألد أعداء فهد من قادة حزب الشعب الذي ظل يكافح فهد، وظل فهد يكافحه حتى اليوم الأخير من حياته. أقول إن الحزب الشيوعي العراقي لم يستطع أن يستوعب مثل هذا العنصر النزيه النظيف.. وإلاّ لما قر هو وأمثاله أساليب الحزب الطليعي.. الصدامي من قتل وسحل وتزوير.

سيتخذ الحزب الشيوعي هذا المديح الذي أزجيه للمناضل س ج حجة عليه. باعتباره شيوعياً رديناً، ولو لم يكن كذلك لما مدحه رجعي منقلب متآمر مثلي. ولكن ضميري يملي عليّ أن أقول الحق وإني أقدّر هذا الرجل لأنه شيوعي جيد لم يأت إلى الحركة ليجمع المال فيشتري عمارة بستين ألف دينار كما فعل بعضهم أو ليتزوج زواجاً يشبه زواجات أبناء الوزراء، كما فعل البعض الآخر. ولا لينال منصباً كان يملك قطعة من الأرض، من النخيل في الكاظمية وأظنه باعها خلال هذه السنوات الطويلة التي قضاها إما مسجوناً أو مطارداً مشرداً أو عاطلاً دون عمل.

كان أحد الشيوعيين العراقيين الإيرانيين وهو نجار كان يسكن الكاظمية قبل ذلك، قد استدان مني ثمانين توماناً وكنت أعتمد في عودتي إلى بلادي على هذا المبلغ. وبعد انقلاب زاهدي.. وحين نفدت نقودي إلاّ تومانات قليلة رحت أطالب هذا الرفيق بديني وهو يتملص، وأخبرته بأنني لا أستطيع أن أعود إلى وطني ولا حتى أن أعيش في طهران إن لم يعد إليّ هذا المبلغ أو حتى نصفه على الأقل، ولكنه ظل يتملص ويتهرب معتذراً بأن الشغل واقف وأخبرته بأن في وسعه أن يبيع شيئاً من متاعه، ولكن أذنه كانت صماء عن كل توسلاتي.

وكان مجيء الأستاذ س ج رحمة نزلت عليّ من السماء فقد كان في حاجة إلى فراش وسرير، فبعته فراشي وسريري وبذلك المال استطعت أن أركب القطار في الدرجة الثالثة عائداً إلى المحمرة لأعود منها إلى العراق.

قد يتساءل متسائل: كيف استطاع زاهدي أن يقضي على حزب

تودا وأتباعه بالملايين، لقد اتبعت حكومته طريقة تدل على الذكاء والدهاء، والرحمة أيضاً. . كانت الشرطة بالطبع تعرف عدداً كبيراً من التوديين. . فكانت تلقي القبض على أحدهم وبعد أيام يقضيها موقوفاً يخاطب بما معناه: لقد ضربت الشيوعية في إيران ولا أمل لها في الانبعاث. إنك قد تسجن سنوات طويلة تذوق خلالها ألوان الشقاء، فلماذا؟ لن تنبعث الحركة الشيوعية ولا رجاء في أن يجتاح الجيش الأحمر إيران ليحررها من حكومتها الوطنية. . فأنت إذن تضحي من أجل خواء وفراغ ولاشيء، فتعال واكتب براءة من حزب تودا مع ذكر تاريخ دخولك إلى الحزب والأشخاص الذين رشحوك إليه والأشخاص الذين كنت تجتمع معهم، فتخرج من الموقف لتكون موطناً صالحاً تجد أمامك العمل والرزق والمستقبل.

ويتبرأ الرفيق المناضل، ويعطي أسماء خمسة أشخاص من أعضاء الحزب على الأقل ثم يلقى القبض على هؤلاء الأعضاء الخمسة فيتبرأون. ويعطي كل واحد منهم أسماء خمسة من رفاقه. . وهكذا حتى قُضي على الحزب العميل. إلاّ شراذم انبعث الأمل في نفوسها حين بلغ الطغيان الشيوعي في العراق ذروته. فراحت تتسلل إلى بلادنا لتشارك في النضال، لأن الشيوعي لا يعترف بوطن، وهو مادام يكافح البرجوازية والرجعية والقومية في أي مكان. . فهو يؤدي رسالة الشيوعي المخلص للشيوعية الأممية.

لقد رأيت في إحدى مظاهرات الرفاق العراقيين شاباً مخنثاً كما يبدو من شكله وهو يرقص ويطقطق بإبهامه وإصبعه الوسط ويغني:

لــو نــزلــونـي لـنـلـقـبـريـبـا

أهــتــفــت تــعــيــش الأمــيــة

الحلقة الثامنة والثلاثون

العدد ١٥٠٩
التاريخ ٤/ تشرين الثاني/١٩٥٩
خاتمة المطاف

عدت إلى العراق بعد أن شهدت تجربة إيران المريرة، رأيت كيف ضحت الطليعة الواعية الإيرانية من حزب تودا بمصالح الملايين من الإيرانيين في سبيل حرصها على مصالح كعبة الشيوعيين وأمهم الرؤوم التي يغني التلميح إليها عن التصريح بها لمجرد الخوف على تلك البلاد من أن ينالها ضرر، وإذا نالها ضرر أو شرر فما قيمة نضال الشيوعيين الإيرانيين وسعادة الشعب الإيراني وتحسن أحوال بلدان الشرق الأوسط كلها إزاء تلك النكبة التي تحل بالبشرية حين يسهر القيصر الأحمر ليلة أو ليلتين وهو خائف من أن يتحول عدوان الأمريكان من إيران إلى بلاده.

وبوساطة من صديقي الأستاذ عبد الرزاق الشيخلي استطعت أن أحصل على وظيفة استخدامية في مديرية الأموال المستوردة ببغداد. وقد حدثت القارئ بقصة القصيدتين اللتين أردت نشرهما، وكيف أمرني الرفاق بأن أنشر (الأسلحة والأطفال) قبل (المومس العمياء). والسخط الذي أثارته المومس العمياء بين الشيوعيين لما جاء فيها من

شجب للشعوبية والشعوبيين وأعداء العروبة كما حدثته عن الكتاب الذي نشرته من الشعر العالمي المترجم وتعليق مجلة (الثقافة الوطنية) الشيوعية اللبنانية عليه وردي القاسي الصريح، ورغم هذا كله فإن صلتي بالشيوعيين لم تنقطع وإن كانت صلتي بالحزب الشيوعي قد انقطعت.

ضل الشيوعيون يجالسونني ويطلبون إليّ أن أقرأ عليهم من شعري وتضمني وإياهم مجالس الشرب. في هذه الأثناء تحول الأستاذ محيي الدين إسماعيل من مجرد واحد من معارفي إلى صديق حميم من أصدقائي. وكان محيي الدين شيوعياً مرتداً مثلي، وكنا كلما ضمنا مجلس نبدأ بمناقشة الفلسفة الشيوعية والنظام الشيوعي فنبين مثالبهما. أذكر أننا اكتشفنا ذات ليلة هذه الحقيقة. مع أن اكتشافها لا يحتاج إلى كثير من الذكاء: طبقاً للماركسية يجب أن تحدث الثورة البروليتارية في البلدان المتقدمة صناعياً في إنكلترا وأمريكا وألمانيا واليابان حيث يبلغ عدد العمال ـ طبقة العاملة كما يسميهم أحد الرفاق ـ الملايين بل وعشرات الملايين أحياناً. ولكن الأمر حدث على العكس من ذلك، إذ حدثت الثورة البروليتارية في روسيا القيصرية وفي الصين وهما بلدان متأخران صناعياً واجتماعياً وسياسياً.

إذن، فالثورة البروليتارية أو النظام الشيوعي بالأحرى كالجرثوم لا ينشأ إلاّ في المجتمعات المتأخرة المريضة، ثم يقوم الحكم الشيوعي، ومن رأي الفلسفة الماركسية أن السير الطبيعي المحتوم للتاريخ هو نحو الاشتراكية والشيوعية وأن كل ما تفعله الثورة البروليتارية ثم حكم الحزب الشيوعي الذي يقوم في إثرها هو إزالة العوائق والسدود التي كانت الرأسمالية وكان النظام الاستعماري يضعانها في طريق التاريخ.

حسناً، إذا كان السير الحتمي للتاريخ هو نحو الاشتراكية فالشيوعية، ثم جاء ـ حزب الشيوعي ـ إلى الحكم فأزال العوائق من طريق التاريخ. . وإذا كان النظام الجديد الذي أقامة الشيوعيون يمثل مصالح الأكثرية ويخدمها، فهي تؤيده وتدعمه بلا شك، فعلام إذن هذا التضييق على حريات الأفراد وهذا التشدد، وهذا الاضطهاد لكل شاعر يكتب قصيدة كما يملي عليه ضميره لا كما يريد زدانوف وموسيقي يضع قطعة موسيقية لا يستطيع السامع أن يعرفها صفيراً بفمه بعد أن يخرج من القاعة التي قدمت فيها، كما قال ستالين حين سئل عن رأيه في قطعة موسيقية لموسيقار سوفياتي عزفت في إحدى القاعات. . ولماذا. . ولماذا. .

كنا حين نتكلم مثل هذا الكلام يجيبنا الرفاق: إن الاتحاد السوفياتي محاط بالدول الاستعمارية المعادية فهو لا يستطيع أن يتسامح ولا أن يعطي لشعبه كثيراً من الحرية. ولكن، بعد أن قامت الحكومات الشيوعية في أوربا الشرقية وفي الصين وصار الاتحاد السوفياتي بعيداً عن الدول الاستعمارية المعادية بآلاف الأميال. . فلماذا نرى التضييق والتشديد باقيين حتى الآن؟

معنى هذا أن الشيوعية كالمرض الوبيل لا ينشأ إلاّ في مجتمع مريض متأخر ولا يمكن المحافظة عليها إلاّ بأساليب الزجر والإرهاب.

ينتقد زدانوف قصيدة لشاعرة سوفياتية تقول فيها أن نفسها كمستنقع راكد يفور بالبعوض والحشرات فيقول: لم تبق في بلادنا أية مستنقعات بعد الحملة الصحية التي قام بها النظام الاشتراكي، فمن أين جاءت الشاعرة بهذه الصورة؟

هكذا يفكرون، وهكذا يحاسبون الأنسان كأنه لا يمكن أن يشقى ويحزن إلاّ إذا كان جائعاً أو عارياً. فماذا يقولون إذن عن هذه القصة من قصص أفريقيا العربية:

كان هناك سلطان واسع الثروة والملك والنفوذ ينال كل ما أراد، ولكنه كان شقياً وجمع حكماءه وأطباءه واستشارهم في أمره، فأشاروا إليه بأن يكتب إلى ولاته في كل بقعة من البلاد ليبحثوا له عن أسعد إنسان، حتى إذا وجدوه بعثوا به إليه فخلع عليه ملابسه السلطانية ولبس هو ملابسه. وعثر أحد الولاة على أسعد إنسان وجيء به إلى القصر فخف السلطان نحوه ليحتضنه ثم يخلع ملابسه. وتقدم السلطان نحوه، غير أنه بهت فقد كان أسعد إنسان في الدنيا عارياً دون ملابس. في تلك الأثناء حدثت فضيحة بيريا وزير داخلية الاتحاد السوفياتي ونائب رئيس وزرائه ورئيس البوليس السياسي فوق ذلك وعضو المكتب السياسي أعلى هيئة قيادية في الحزب الشيوعي البلشفي، لقد اتهم بيريا بالخيانة والتجسس لحساب الاستعمار، بل لقد قال الشيوعيون عنه رسمياً أنه عميل عتيق، ونشروا عنه أكذوبة أنه كان في خدمة الاستعمار منذ أن كان في السادسة عشرة من عمره يوم أخذته قوات المتدخلين البريطانيين بقيادة تشرشل أسيراً لديها، بعد قيام الثورة البلشفية.

كنت أشرب مع أحد الشيوعيين وثار بيننا جدل، ثم قلت له: أسالك سؤالاً واحداً، فأجبني عليه وفكر بما أقول، خذ بيريا، إنه إما أن يكون جاسوساً كما قيل عنه وكما أدين فأُعدم وإما أن يكون بريئاً. أيمكن أن يكون وسطاً بين الجاسوس وبين البريء؟ كلا طبعاً، فإذا كان جاسوساً طوال هذه الأعوام الأربعين وهو كما نعلم رئيس البوليس

السياسي الذي بيده أرواح الناس، فكم من بريء راح ضحية لهذا الجاسوس؟ آلاف الأبرياء من البلاشفة المخلصين الذين كافحوا وناضلوا وتعذبوا، راحوا ضحايا بريئة لجاسوس حقير، ولا يفيدهم في شيء، أن الاعتبار أعيد لهم الآن.

وإذا كان النظام يسمح بمجيء الجواسيس والمغامرين إلى السلطة، أفلا يمكن أن يرقى إلى أعلى المناصب ويكون بيريا آخر فيعدم آلاف الأبرياء من جديد؟

وإذ كان بريئاً، فأي نظام هذا هو الذي لا يأمن فيه شخص ك بيريا الشيوعي المكافح منذ أربعين عاماً، لا يأمن على نفسه؟!

وجاءني الرفيق الشيوعي في اليوم التالي وصاح في وجهي بغضب: عليك اللعنة إنك لم تتركني أنام في الليلة الماضية. قد قضيت الليل كله وأنا أفكر: إما أن يكون بيريا جاسوساً أو بريئاً، فإذا كان جاسوساً فالحال كذا وكذا، وإذا كان بريئاً فالحال كذا وكذا. ولكن الرفيق لم يكن يملك من الحس بكرامة الأنسان والعدالة ما يجعله يثور على الشيوعية ويتمرد عليها.

إن مطالبه في الحياة لا تتعدى فتاة جميلة وربع قنينة من العرق المستكي. والشيوعية توفر له كلا هذين المطلبين. فماذا يهمه إذن من العدالة والإنسانية والكرامة والضمير، عليها اللعنة.

إن الشيوعيين لم ييأسوا مني إلاّ بعد أن أخذت بنشر سلسلة مقالاتي (كنتُ شيوعيّاً) بل حتى بعد صدور المقالين الأولين أو الثلاثة من هذه السلسلة لم يكونوا يائسين مني، فقد أرسلوا لي وسيطاً ينصحني بالإقلاع عن نشر هذه المقالات. ومع أن مذكراتي قد انتهت بانتهاء هذا المقال، فلن أكف عن محاربتهم، سأنقد كتباً ودواوين

شيوعية، وألخص كتباً ضد الشيوعية، وأنشر صوراً قلمية لبعض الشيوعيين، فلا يفرح الرفاق بأن مذكراتي قد انتهت وأنهم استراحوا منها.. وإلى اللقاء.



الحلقة التاسعة والثلاثون

العدد ١٥١٩

التاريخ ١٦/تشرين الثاني/١٩٥٩

حديث عن تيتو

مع أن تيتو في رأيي ورأي الكثيرين هو أحسن شيوعي في العالم، والحزب الشيوعي اليوغسلافي هو خير الأحزاب الشيوعية وأخلصها وأنظفها، فقد تمرد الزعيم الشيوعي اليوغسلافي مليوفان جيلاس على تيتو ونظامه الشيوعي، حين لاحظ نشوء ما سماه الطبقة الجديدة أو كما أسميه أنا البرجوازية الشيوعية. وتتألف هذه الطبقة الجديدة أو البرجوازية الشيوعية من فئة معينة من أعضاء الحزب الشيوعي - في أي بلد يحكمه الحزب الشيوعي - يحتلون أرفع الوظائف وأهمها. وهم يستطيعون بواسطة تلك الوظائف الحصول على الرواتب الضخمة والاستيلاء على الأملاك التي أُخذت من أصحابها وأصبحت ملكاً للدولة، وهم يسكنون في الفيلات الضخمة ويتمتعون بأجمل الزوجات.

ولقد رأينا الشيوعيين العراقيين أو زعماءهم بالحزب، والعراق ليس بلداً شيوعياً والحزب الشيوعي ليس مشتركاً في الحكم.

أقول: رأينا قادة الحزب الشيوعي العراقي يشترون العمارات الضخمة التي يبلغ ثمن الواحدة منها حوالي (٧٠) ألف دينار، ورأينا قادة الحزب الشيوعي العراقي يتزوجون فينفقون آلاف الدنانير على زيجاتهم، ورأيناهم يمتلكون السيارات الفارهة، لا من نوع - موسكوفيتش - السوفياتية وإنما من نوع استديبيكر وكاديلاك الأمريكيتين، ورأيناهم يستولون على الوظائف الكبيرة والوظائف الجيدة، غير مؤهلين لها بغير إخلاصهم للحزب العميل.

إذا كان جيلاس قد رأى هذه البرجوازية الشيوعية تنشأ في يوغسلافيا تحت ظل المرشال تيتو فليساعد الله شعوب البلدان الشيوعية.

ولعل من المفيد بهذه المناسبة أن أتحدث قليلاً عن الخلاف الذي نشأ بين الحزب الشيوعي الروسي ومن ورائه كل الأحزاب الشيوعية العميلة من جهة وبين تيتو والحزب الشيوعي اليوغسلافي والشعب اليوغسلافي من جهة أخرى.

كان تيتو قبل ٢٨/ حزيران/ ١٩٤٨، واحداً من أكبر الزعماء الشيوعيين في العالم وبطلاً بارزاً من أبطال الكفاح من أجل - وطن حر وشعب سعيد - وقد ترجم الشيوعيون العراقيون إلى اللغة العربية كتيباً عن حياة تيتو ونشروه وحفظناه نحن الشيوعيين آنذاك عن ظهر قلب، ورغم مضي اثني عشر عاماً أو أكثر فما أزال أذكر حتى الآن قصيدة مما جاء في ذلك الكتيب، وقد نظمها شاعر يوناني عن تيتو:

تيتو.. من هو تيتو؟

يسأل الغتسابو: من هو تيتو؟

ويسأل الأعداء: من هو تيتو؟

فنجيبه: كلنا تيتو.

تيتو هو النهر، هو السهل، هو الجبل

تيتو هو الشعب، هو العامل والفلاح

اسألوا أعلامكم التي ثقبها الرصاص

فهي قوائم بقتلاكم وجرحاكم

سجلها نضال تيتو.. إلخ

قرر السوفيت حل الكومنترن الذي كان يوجه نشاط الأحزاب الشيوعية في العالم كله لأسباب تتعلق بتحالفهم مع بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا، في الحرب ضد هتلر. وما إن أعلن الجنرال مارشال وزير خارجية أمريكا عن مشروعه الذي سمي باسمه عام ١٩٤٧، وهو كما يعرف القارئ مشروع للإنعاش الأوربي، حتى ردت روسيا على هذه الخطوة أن أنشأت ما سمي مكتب الاستعلامات الشيوعي أو الكومنفورم. وما كانت تلك التسمية تضليلاً، فلم يكن عمله مقصوراً على جمع المعلومات وتقديمها وإنما كان من بين أغراضه كما جاء في البيان الذي حددها: تبادل الخبرة بين الأحزاب الشيوعية وفي حالة الضرورة تنسيق نشاطها. وجاء في البيان أن افتقار الأحزاب الشيوعية في ذلك الوقت إلى الروابط التي تجمع بينها هو عجز خطير في الموقف.

وكان الحزب الشيوعي الروسي بواسطة الجيش الأحمر الذي حرر بلدان أوربا الشرقية قد أنشأ حكومات شيوعية خاضعة له في تلك البلدان. ومن دلائل ذلك الخضوع أن الجنرال السوفياتي مالينوفسكي أصبح وزيراً للدفاع، أي والله وزيراً للدفاع في حكومة بولندا.

ولم يكن المارشال تيتو من ذلك الفريق الذي وصل إلى الحكم على حراب الجيش الأحمر. ولكنه ناضل وكافح وخاض حرب الأنصار ضد الاحتلال النازي حتى تكلل كفاحه بالنصر فألف حكومة من الحزب الشيوعي.

لقد كان الحزب الشيوعي الروسي يقصد من استيلائه على بلدان أوربا الشرقية تحويلها إلى ورش تنتج بأبخس التكاليف والأثمان السلع التي يحتاجها الشيوعيون في استعدادهم الضخم للحرب. وإن قنّع استعداد هذا ببراقع السلام والتعايش السلمي. كان يريد من دول أوربا الشرقية ومن يوغسلافيا أيضاً أن تهتم بالصناعات الثقيلة بالدرجة الأولى. ورأى تيتو المخلص لشعبه، أن شعبه الذي قاسى الجوع والفقر والحرمان سنوات طويلة، كان في حاجة إلى معامل تنتج له قماشاً يلبسه وبسكويتاً يأكله أكثر من حاجته إلى معامل تنتج مئات الأطنان من الحديد ليشتريها الشيوعيون بعد ذلك بسعر الكلفة.

كان يرى أنه هو ـ وهو ابن يوغسلافيا ـ أصدق فهماً وأتم معرفة بشعبه وما يحتاجه، لا ستالين الجالس في كرملينه. ونظم الشيوعيون الروس حركات داخل يوغسلافيا لإرغام تيتو على الانصياع لأوامر الوطن الأم فقاومها وكافحها. وكانت المعاملة الاقتصادية غير المتكافئة التي يعامله بها الشيوعيون الروس لا تنال قبولاً عنده.

يكفي أن نذكر ما قاله الجنرال أوتمار كريجيج رئيس الدائرة السياسية في الجيش اليوغسلافي من أن المعدات العسكرية التي استوردتها يوغسلافيا من روسيا بعد الحرب، كانت كلها قديمة مستهلكة وقد أعيد صبغها. بينما دفع اليوغسلافيون فيها ثمن المعدات الجديدة. كما أن المواد المتفجرة التي استوردها منها كانت عديمة الفائدة وقد أتلفوا معظمها.

وبلغ استياء الشيوعيون من هذا الشيوعي المتمرد غير العميل أقصاه حين أصدر تيتو عام ١٩٤٨ بيانه بطرد وزيرين يوغسلافيين مهمين من منصبيهما، هما وزير الإضاءة ووزير المالية. لقد طردهما بتهمة الانحراف وإن كانت التهمة الحقيقية هي التجسس لحساب الحزب الشيوعي الروسي.

كان هذا الحزب يحاول أن يستغل يوغسلافيا سياسياً واقتصادياً وعسكرياً ولكنه اصطدم بشيوعي يضع مصلحة شعبه فوق أي اعتبار آخر، ومن مظاهر الاستغلال الاقتصادي، الاقتراح الذي قدمه الشيوعيون الروس إلى يوغسلافيا حول النفط. وقد قدموا إلى الحكومة اليوغسلافية اتفاقية طلبوا منها توقيعها. وهي تنص على أن حقول النفط لا قيمة لها لأنها مصادر طبيعية. أي والله.. هذا ما سطروه في الاتفاقية. وأما ما يجب على يوغسلافيا تقديمه نتيجة لمساهمتها في رأس المال هذه الشركة المختلطة، فهو العمال والمواد والمال وغيرها من متطلبات الإنشاء.

ويقدم الشيوعيون الروس مقابل ذلك الفنيين والإداريين. كما أن لهؤلاء الحق الأول في الحصول على حاجتهم من النفط خالصة من جميع الرسوم بما فيها رسوم النقل والتصدير وما يتبقى من النفط بعد ذلك فهو ليوغسلافيا، وقد استطاعوا أن يسيطروا سيطرة تامة على جميع اقتصاديات دول أوربا الشرقية بواسطة الشركات المختلطة.. ولكنهم عجزوا عن تحقيق مطامعهم في يوغسلافيا مصطدمين بوطنية تيتو واحترامه لنفسه وحزبه وبلاده.

وهكذا تقرر طرده من الكومنفورم في ٢٨/ حزيران/ ١٩٤٨، وراحت أبواق الدعاية الشيوعية تشنع عليه وتتهمه بالانحراف. لقد أتاح

تيتو للأحزاب الشيوعية فرصة التخلص من أخطر تهمة، وهي حقيقية، توجه إليهم وهي أنهم عملاء للشيوعيين الروس يفضلون مصالح هؤلاء على مصالح بلدانهم وشعوبهم ويصدعون لما يأمرونهم، فقد أثبت أنك تستطيع أن تكون شيوعياً وألاّ تنصاع رغم ذلك لأوامر تأتيك من الخارج، ولكنهم عملاء في طبيعتهم لا يمتلكون أي احترام لأنفسهم ولا لشعوبهم وأوطانهم.. ولهذا شاركوا في الحملة ضده. وراحوا ينقون كالضفادع حين تستجيب لنقيق الضفدعة الرئيسية.



الحلقة الأربعون

العدد: ١٥٢٠

التاريخ ١٧/تشرين الثاني/١٩٥٩

رباط الجريمة

كان من عادة خليتنا الشيوعية في تلك القرية النائية من قرى أبي الخصيب في البصرة، أن تعقد مجلساً من مجالس الشراب مرة كل أسبوع. وكان الموضع الذي نعقد فيه ذلك المجلس هو البستان الذي يعمل حمد أحد أعضاء حزبنا الشيوعي، فلاحاً فيه. وكنا نبحث في هذه الجلسة الخمرية مختلف الشؤون الحزبية وما يتعلق بالثقافة الماركسية ويعبر كل واحد منا عن أمانيه ورغباته، فهذا الفلاح يتمنى لو قتل صاحب الأرض واستولى على البستان وسرق ماله، حتى إذا أُلقي القبض عليه سيق إلى سجن النساء فتجمعت السجينات حوله، وذلك الحلاق يتمنى لو جاء فلان وفلان من كبار الموظفين أو كبار الملاكين للحلاقة عنده فقطع رقابهم بالموس دون رحمة. وذلك الأعور يود لو سلطته الظروف على كل أعدائه الطبقيين ففقأ عيونهم. وذلك التلميذ الفاشل الذي لم يستطع أن يجتاز الصف السادس الابتدائي، يتمنى لو أصبح أكبر شاعر وبز شوقياً وعلي محمود طه وعمر أبو ريشة وسواهم من الشعراء الرجعيين. وذلك الفارسي

المستعرب يود لو قدر له أن يتزوج بنساء كل المعتزين بنسبهم العربي ليلدن أبناء من أصل فارسي وإن كانوا يحسبون أنفسهم عرباً.

وكان من الأشياء الأولى التي نعلمها لرفاقنا الفلاحين أو الكادحين، أن الفلاح أخو الفلاح والكادح شقيق الكادح، وأن الأسر الثرية التي تسمى أنفسها أسراً شريفة، هي في الحق بؤر للفساد والرذيلة والانحطاط، وأن الشريف حقاً هو الذي يعمل بيديه لا ذلك المتبطر المتكئ على تخت المقهى صباح مساء يأكل من كد الفلاح وأتعابه.

ومع أن الحزب الشيوعي العراقي كان لا يقر السكر والعربدة والتفسخ الخلقي، إذا كانت علنية فلم نكن نرى بأساً في أن نعاقر الخمر جهاراً في تلك القرية المسلمة المحافظة فنتحدى تقاليدها ودينها وشيوخها. إن الكثيرين لا ينتمون إلى الحزب الشيوعي إلاّ تحدياً منهم لشخص معين أو جماعة معينة أو لفكرة تمسهم شخصياً على الأقل.

فهذا يصبح شيوعياً تحدياً لجاره أو قريبه أو عدوه، أو حتى لأبيه الصائم المصلي المؤمن بالله. وذاك تحدياً لجاره العربي الذي عيره بأنه فارسي، وذاك تحدياً لفلان الذي لم يفقد إحدى عينيه والذي كان يعيره بأنه أعور. وذاك يصبح شيوعياً لأنه ضعيف ولا يملك من وسيلة للانتقام ممن اعتدوا عليه، إلاّ بأن يصبح شيوعياً.

وفي ذات مساء حين التأم شملنا حول كؤوس الشراب، قال أحدنا أنه شاهد في النهر زورقاً يتجه إلى قريتنا وفيه فلان من العائلة الفلانية الثرية ومعه امرأة جميلة، هي فلانة التي تعمل خادمة في بيتهم. وقال آخر أنه شاهد فلاناً وفلاناً ـ وهما من تلك العائلة نفسها ـ يقبلان إلى القرية لاهثين متجهين إلى البستان الذي تملكه عائلتهما على شط

العرب في قريتنا ليلتقيا هناك براكب الزورق وصاحبته، وأنهم سيقضون الليل في شرب وسمر، وقال حمد أن من واجبنا ونحن الكادحون أن ننتقم من أولئك البرجوازيين الإقطاعيين وأن نأخذ منهم الخادمة الجميلة.. فالأولى بها أن تكون لنا نحن الكادحين والشيوعيين الذين ندافع عن مصالحها الطبقية.

واستصوبنا الفكرة، وراحت الخمر تنسج لنا خطة الهجوم على أولئك البرجوازيين الأوغاد الذين جاءوا يمتهنون شرف الكادحين تحت أسماعنا وأبصارنا نحن المنتمين إلى حزب الكادحين، حزب الطليعة الواعية.

وخلعنا ملابسنا وبقينا بالتبابين وحدها، وحملنا مختلف الأسلحة، هذا يحمل منجلاً وذاك معولاً والآخر فأساً والرابع يحمل عصا. إلاّ حمد، فقد كان يحمل بندقية صنعها من أنبوب للمياه تُحشى بالبارود وتنطلق حين يصطدم بذلك البارود مسمار متصل بلاستيك في مؤخرتها وهوسنا ونحن نسير إلى تنفيذ مهمتنا (هوسة) تشبه ما كنا نسمعه إبان الكابوس الأحمر. وتحمس حمد فأطلق النار من بندقيته دون أن يتذكر أنه لا يملك من البارود غير ما أطلقه.

وسرنا نحو شط العرب حتى إذا اقتربنا منه سمعنا أصوات الضحكات التي كان يطلقها الشبان.. وتقدم حمد مدفوعاً بشجاعة لم يكن يملكها لولا الخمر، وصاح: أبو بلم، وأجابه الراكبون في البلم.. الزورق البصري الجميل: نعم. فقال حمد حانقاً: نعم.. نعم الله ضلوعك، ألاّ تعلم أننا الشرطة، وإن كنا نلبس الـ (باش بزغ). وقد تلقينا إخبارية بأن زورقاً محملاً بالأسلحة المهربة سيجتاز شط العرب في ساعة كهذه، في هذه الليلة.. من يقول أنكم لستم أولئك المهربين أنفسهم.

وأجابنا الفتية مذعورين: لا والله عمي، نحن من العائلة الفلانية وقد أرسينا زورقنا لدى بستاننا.

وتغلب الفلاح في نفس حمد على الشيوعي أو على عضو الحزب الشيوعي في الحق فيها، فقال باستخذاء: مادمتم أبناء العائلة الفلانية فأنتم تاج رأسنا، ونحن الشرطة خدامكم. وانسحبنا فاشلين.

لقد كتبنا في حينه إلى لجنة الحزب الشيوعي المحلية في البصرة نبشرها بأننا قد نجحنا في ضم عدد من الفلاحين في صفوف حزبنا، فتلقينا منها رسالة شكر وتشجيع. ولكن، في الحق أننا لم نستطع أن نقنع بالشيوعية أياً من الفلاحين الذين أصبحوا أعضاء في الحزب الشيوعي.. لماذا؟ لأن الفلاح بذهنيته ونفسيته ومعتقداته يستحيل أن يتقبل الفلسفة المادية الديالكتيكية التي لا يمكن للشيوعي أن يصبح شيوعياً ما لم يفهمها ويقتنع بها ويؤمن.

إن مئات بل وعشرات المئات من هؤلاء الذين يصفقون ويرقصون ويغنون ويهتفون في المظاهرات الشيوعية ليسوا شيوعيين على الإطلاق، بل إن الكثيرين من أعضاء الحزب الشيوعي العراقي ليسوا شيوعيين. وهذا من بين الأسباب التي تجعل الحزب الشيوعي العراقي يدفع هذه الجماعة إلى ارتكاب جرائم القتل والسحل والإحراق. إن قيامهم بتلك الأعمال التي يحرضهم الحزب الشيوعي عليها يربطهم بالحزب الشيوعي والحركة الشيوعية برباط الجريمة فيجعل مصيرهم مرتبطاً بمصير الحزب العميل والحركة الفوضوية ومتوقفاً عليها. فإذا انتكست الحركة الشيوعية تعرضوا للمحاكمة جزاء الجرائم التي اقترفوها ونالوا من العقوبات ما قد يرقى إلى الإعدام. أما إذا نجحت الحركة الشيوعية وارتفع مدها فإنهم لن يحاسبوا على تلك الجرائم بل

وينفتح أمامهم الطريق لارتكاب المزيد من الجرائم. إن أغلب الذين قاموا بجرائم القتل والسحل والاعتداء ليسوا أعضاء في الحزب الشيوعي العراقي. ولكن الحزب العميل يستفيد منهم أكثر مما يستفيد من أعضائه. فهم من ناحية ينفذون أوامره وتوجيهاته وهو من ناحية أخرى يستطيع أن يدعي ببراءته من تلك الجرائم.. لأن الذين ارتكبوها ليسوا أعضاء في الحزب. كما أنه لن يخسر شيئاً إذا هم أُعدموا أو سجنوا لأنهم ليسوا من أعضائه.

فيا أبناء الوطن رصوا صفوفكم والله يؤيدكم بنصر من عنده لتحولوا بين الحزب الملحد العميل وبين أن يقيم روابط جريمة تربط مصير المئات من الناس بمصيره.. فيروحون، يناضلون، في سبيل تقوية الحركة الشيوعية.. لا دفاعاً عنها وإنما عن أنفسهم وعن مصيرهم المرتبط برباط الجريمة.. بمصيرها المشؤوم.



الفهرس

هذا الكتاب

مثلما حظي الشاعر بدر شاكر السيّاب بالشهرة والاهتمام، فقد تعرّضت أعماله وآثاره للإهمال والتشويه، فأعماله الشعرية يُعاد نشرها بطبعات مختلفة لكنها جميعها غير نقدية ومليئة بالأخطاء ولا يوجد متحف يحوي آثاره. يضم هذا الكتاب لأول مرّة بين دفتيه اعترافات السياب التي نشرها عام ١٩٥٩ في جريدة (الحرية) البغدادية، جاءت اعترافاته في (٢٩) حلقة حملت عنواناً واحداً (كنت شيوعياً) ثم تلتها (١١) حلقة تحمل كل واحدة عنواناً خاصاً بها.

